James Wilson Stevens

الأسرى الأمريكان

في الجزائر : 1785 / 1797 م

ترجمة : علي تابليت





شالة
THALA EDITIONS

الأسرى الأمريكان

في الجزائر : 1795 / 1796م

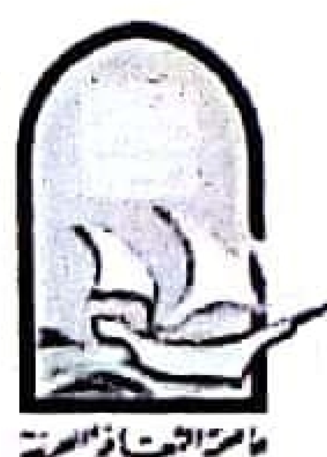
ترجمة : علي تابليت

AN HISTORICAL AND GEOGRAPHICAL
ACCOUNT OF ALGIERS

COMPREHENDING
A NOVEL AND INTERESTING DETAIL OF EVENTS
RELATIVE TO

THE AMERICAN CAPTIVES

BY JAMES WILSON STEVENS



ثالة
THALA EDITIONS

تمت الترجمة في المعهد العالي العربي للترجمة . نوفمبر 2007

لصالح تظاهرة "الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007".

الإيداع القانوني: 206 - 2007

ردمك: 978-9961-905-99-9

تقديم

بعد قرن من عودة «Joshua Gee» إلى أمريكا، سنة 1687، ألقى الجزائريون القبض على «John Foss»، من «Massachusetts»، ظهرت أسطورته في طبعتين عام 1798، والتي سجلت بداية لأدب الأسرى الأمريكان في الجزائر، وبعد 20 سنة الموالية، كتب 12 من الأسرى مذكراتهم ومعاناتهم في أفريقيا الشمالية. وبالتأكيد، فإن هذه القصص الأدبية، قد ظهرت فيما يزيد عن 100 طبعة، وبلغات عدة، ووجدت رواجا واسعا وافيا من الجمهور الأمريكي، حيث يذكر «Wilshire Riley William»، أن الأسير المشهور «James Riley»، قد ادعى أن قصة وأنه بلغت مبيعاتها قرابة مليون نسخة، وكان من بين قرائه الشاب «Lincoln Abraham» رئيس الولايات المتحدة فيمابعد، الذي اشترى نسخة من كتاب ريلي، «Shipwreck Narrative»، كما وجدنا قصة السيدة «Martin Maria»، التي كانت أسيرة في الجزائر مدة ست سنوات، بيعت قصتها بشكل واسع، والتي ظهرت طبعتها الأولى عام 1807 بعنوان : «Martin Maria's Account of her six years in captivity»، وأعيد طبعها 12 مرة. و«Mary Velnet»، الإيطالية، التي نشرت قصتها عام 1818، بعنوان : «The Captivity and Sufferings of Mrs Mary Velnet. Boston»، 1828.

يبقى تسعة من الذين تركوا مذكراتهم، ويمكن تقسيمهم إلى مراحل تاريخية ثلاثة :

- أسرى ما قبل الحرب الأمريكية.
- أسرى الحرب .
- أسرى ما بعد الحرب .

حيث يمثل كلا من «John Foss» و«James Leander Cathcart»، القسم الأول، وكلاهما كتبا مذكراتهما في الجزائر قبل معاهدة الجزائر وأمريكا عام 1795.

و«William Ray»، و«Jonathan Cowdery» و«Elijah Shaw»، في حرب طرابلس. ثم الأسرى الأربعة في المغرب.

«Judah Paddock» «Robert Adams» «James Rilery»، وأخيرا «Archibald Robbins».

يتضمن الكتاب خمسة فصول في التاريخ وسبعة في وصف الجزائر. تبدأ الخمسة الأولى، بالتاريخ الفينيقي وسقوط قرطاجة، وطرد الوندال للرومان، وقدوم العرب، وسقوط دولة زناتة، وإقامة دولة الأشراف محلها. ثم خطر الأسبان ودعوة الأخوين بربروسة، وخيانة وقسوة عروج، في رأي الكاتب، وهزيمته وقتله من قبل الأسبان. ثم يخلفه خير الدين، ومن جاء بعده من البايات والدايات، ويتطرق إلى البحرية الجزائرية ومعاركها مع القوى الأوربية، وحملة 1775، والقرصنة الجزائرية على التجارة الأمريكية، وأسر 13 سفينة أمريكية، وطواقمها وحمولاتها، وينهي الفصول الخمسة الأولى بمعاهدتي الجزائر 1795، ومعاهدة طرابلس 1797.

وعن وصف الجزائر فإنه يتحدث عن مدنها وأوديتها وتربتها، ومناخها، ومنتجاتها، وحيواناتها، وآثارها. والسكان وتقاليدهم وتصرفاتهم، وملابسهم، ولغتهم، وقراصنتهم وتجارتهم، وواردات الدولة، ونظام الحكم، والعقوبات والدين.

ويقدم مختصر تاريخي عن أهم المدن مدينة الجزائر، جذورها، موقعها، ديارها، ماؤها، بناياتها العمومية، ها، شوارعها، أبوابها وأسوارها، ميناؤها، قلاعها وحصونها، سكان المدينة وعبيد الجزائر. وأخيرا طرائف من مدينة الجزائر، وتفاصيل د عن الجزائر العاصمة أيام علي بيتشينين، ومغامرات إيما نويل داراندا

يتضمن الكتاب في صفحاته الأصلية 304 صفحة، وصدر في طبعته الأولى عام 1797، وتباع الطبعة الأولى هذه، التي قمنا بترجمتها بقيمة 3.500 دولار، أما الطبعة الثانية الصادرة في عام 1800 فإنها تباع بقيمة 2500 دولار. و الفضل كل الفضل في الحصول على هذه النسخة يعود إلى الصديق الدكتور الأمريكي «Gerald MacLean»، صاحب كتاب:

: English Visitors to the Ottoman Empire, 1580–1720.»
«The Rise of Oriental Travel

والذي تعرفت عليه في مؤتمرات بمؤسسة التميمي، زغوان، تونس، وفي مؤتمر آخر شاركنا فيه معا في جامعة «Exeter»، ببريطانيا، عام 2002، حول : بريطانيا العظمى والمغرب العربي.

ولم يرد في الكتاب أي مصدر رغم أهميته في نشره للوثائق الرسمية الأمريكية، ثم أنه يغالي كثيرا في وصف حالة الأسرى الأمريكان في الجزائر، رغم اعترافه أحيانا أن وضعيتهم، في الجزائر، هي أفضل بكثير من سجون بريطانيا أيام الثورة الأمريكية. والكتاب هو إهداء من الكاتب إلى القنصل الأمريكي الأول، بالجزائر، «جويل بارلو Barlow Joel»، الذي كان أول قنصل أمريكي في الجزائر من 4 مارس 1796 إلى 17 جويلية 1797. حيث قام بتحرير الأسرى الأمريكيين، وقد جمع المؤلف مجموعة روايات من الأسرى، خاصة من الأسير «Isaac Brooks»، الذي أسر يوم 23 أكتوبر 1793، في سفينة «President of Philadelphi»، تحت قيادة القبطان «William Penrose».

القبة، الجزائر العاصمة

06 أوت 2007.

الفصل الأول

الفينيقيون والقرطاجنيون القاطنون الأوائل. تدمير قرطاج. الوندال يطردون الرومان. غزو المسلمين. خضوع أمراء العرب. إبادة الزناتيين. نجاح أشراف حسن. تهديد الأسبان. دعوة بربروسة. غدره وقسوته. انهزامه وقتله من قبل الأسبان.

ربما لا توجد مشكلة في تاريخ مثير ولا يمكن تعليلها كما هو الحال في انحطاط قوة وعظمة اتساع الدول البربارية، بحيث كانت شموع مجد قرطاج في طريق الزوال، وقد كانت هذه الدول مركزا لا يشق لها غبار، وكانت دون مستوى روما ذاتها في الفنون والعلوم والعظمة والرقة.

إن السكان الأصليين لهذا البلد ، طبقا لمعظم المؤرخين الموثوق فيهم، هم من أصل فينيقي، ثم القرطاجنيون بعد ذلك، الخصم العنيد للرومان، وهي إحدى الأمم المولعة بالقتال قديما .و تاريخ القرطاجنيين يشبه تاريخ كل الأمم، فهو غامض جداً وغير مؤكد. وقيل انه في السنة السابعة من حكم Pygonalion هربت إليزا– Eliza أو Dido أخت ملك صور، مع بعض من رفاقها وتابعيها، نتيجة قسوة وجشع أخيها سيشوس، حلت أولا بجزيرة قبرص، حيث التقت بتسيس الإله جوبير، رب الآلهة عند الرومان، والذي كان مشتاقا لرؤيتها، فوافقت على ذلك. كانت العادة

تقتضي آنذاك، أن الفتاة تذهب إلى المصيف في أيام محددة قبل الزواج لتشاهد الغرباء الذين قد يحلون على سواحلهم من أجل المتاجرة بأجسادهن مقابل المال، ومن ثم يتمكّن من اكتساب مهر. ومن هذه النساء، اختار أهل صور 80 منهن وأخذوهن معهم، بعدها أبحروا مباشرة إلى ساحل أفريقيا. وأخيرا وصلوا بسلامة إلى الولاية المسماة بأفريقيا ليس بعيدا عن يوتيكا، شمال غرب قرطاج، وهي مدينة فينيقية ضاربة في القدم. فالقصة المأثورة هو أن الفينيقيين فرضوا على الأفارقة الطريقة الموالية : أنهم يرغبون في إقامة مستوطنة تشبه مساحتها جلد الثور المدبوغ للإحاطة بها. وقد وجد هذا الطلب سخرية من الأفارقة ، لكنهم تفاجئوا عند منحهم إياه، فقد شاهدوا إليزا تمزق الجلد المدبوغ إربا إربا، وبهذه الوسيلة أحاطت أراضي كثيرة ، ومن ثم قامت ببناء قلعة أطلقت عليها إسم بيرصة، Bутса، وعلى أي حال فقد فند العلامة هذه القصة الخرافية، غير أنه من المؤكد أن القرطاجنيين كانوا ولسنوات عديدة يدفعون السناهية السنوية للأفارقة مقابل الأرض التي امتلكوها.

ومن هذه الفترة يبدأ تاريخ القرطاجنيين، وتعد قرطاج إحدى الدول القديمة ذائعة الصيت، حيث غزا جيشها بقيادة حنبعل وضباط بارزون الأراضي الرومانية، وهددوا بإسقاط روما نفسها. ولكن هذا ليس واردا في العمل الحالي للدخول في تفاصيل هذا التاريخ، والذي سيشكل في حد ذاته مجلدا ضخما وهاما.

وبأمر من مجلس الشيوخ الروماني هدمت ونهبت، مدينة قرطاج، من قبل الجيش الروماني بقيادة Acmilianus، وقبل تنفيذ أوامرهم، قاموا باحتفالات دينية مطلوبة في هذه المناسبات.

قام بتقديم القرابين إلى الآلهة، بعدها أمر بجر المحراث ليدور حول أسوار المدينة. بعد ذلك، سويت الأبراج، والحواجز والأسوار وكل الأعمال التي أنجزها القرطاجنيون خلال عقود ما بالأرض، وأضرمت النار في العاصمة الشامخة، وأتت النار على الكل ولم تسلم أي دار من لهيب النار. بدأت النار في كل أحياء المدينة في نفس الوقت، واستمرت تحترق بغيظ شديد لا يتصور لمدة سبعة عشر يوما، ومع انتهاء هذه الفترة أصبحت المدينة كلها رمادا.

هكذا سقطت قرطاج في حدود 146 قبل الميلاد. وفاز Aemilianus بالكنز، حتى بعد أن نهب من قبل الجنود وفقا لإحصاء Pliny، والذي بلغت قيمته 4.470.000 رطل من الفضة. وبعد قرابة 24 سنة من هذه الحادثة، تعهد C.Gracchus بإعادة بنائها. تركها Maxentius في رماد في حدود السنة السادسة أو السابعة من حكم Constantine وتولاها Genferic، ملك الوندال في سنة 439 بعد الميلاد، لكنه وبعد قرن أعيد إلحاقها بالإمبراطورية الرومانية من Farius Beli الشهير. وفي الأخير، ومع نهاية القرن السابع الميلادي نجح المسلمون في الاستحواذ عليها، بعد أن دمرت نهائيا. وتوجد الآن قلة قليلة من الآثار الباقية.

وبعد القضاء على الإمبراطورية القرطاجنية، بقي الرومان يحتفظون بسلطتهم لفترة طويلة في أفريقيا، غير أنه في سنة 426، أعلن عصيان ضد Bonifacius، الحاكم الأعلى لجميع الأراضي الرومانية في الأقاليم من قبل خيانة جنرال آخر يدعى Actius، ووجد نفسه عاجزا أن يحارب بكل قوات الإمبراطورية الرومانية ، مما جعله يستدعي Geneferic، ملك الوندال لدعمه. وعقب ذلك تخلى عن غزواته في أوربا، وانتقل إلى أفريقيا.

لكن سرعان ما تصالح Bonifacius مع إمبراطوريته Placidia، وسعى بدون جدوى إلى ملاحقة الوندال للانسحاب من أفريقيا. وتلا بعد ذلك مباشرة حرب، التي أكد فيها البربر انتصارهم، ثم توسعت دائرة الحرب بسرعة في كل مقاطعات أفريقيا. وفي عام 435 وقع اتفاق سلام، الذي تنازلت بموجبه نوميديا وبعض البلدان الأخرى إلى الوندال، والذين سرعان ما استولوا على ما تبقى من الأراضي. غير أن هؤلاء البربر لم يتمتعوا طويلا بغزواتهم. وفي حدود 535 قام Belifarus ، قائد جوستينيان . ملك اليونان بطردهم، وضم مقاطعات شرقي الإمبراطورية.

وفي سنة 647، قام المسلمون باحتلال بلاد مابين النهرين، ومصر، وفينيقيا. والجزيرة العربية، وفلسطين واتجهوا نحو أفريقيا. والتي سرعان ما تم إخضاعها. وهذه آخر ثورة تحدث في حدود منتصف القرن السابع الميلادي. واستمرت سيادة العرب على كامل البلاد إلى غاية 1510. وفي هذه السنة قام شخص يدعى أبوبكر بن عمر أو كما يسميه

الأسبان، أبو تاشفين، وهو عربي من قبيلة صنهاجة، بثورة ضد استبداد هؤلاء الطغاة. وجمع قوة عسكرية من الساخطين بدعم من مرابطيه أو مريديه، في الولايات الجنوبية لنوميديا وليبيا. ويطلق على أنصاره اسم المرابطين، أما الأسبان فيسمونهم Almoravides، أي المرابطون. وربما تعود تسميتهم أنهم جمعوا من قبل الأولياء. والذين يطلق عليهم هم أيضا إسم المرابطين.فقوات الخليفة Keyem..كانت مشغولة في هذه الفترة بإخماد ثورات أخرى في سوريا، وبلاد ما بين النهرين..الخ، أما العرب في أسبانيا فقد دخلوا في حروب دموية، ومن ثم فإن تاشفين ليس له ما يخشاه منهم. فقد نجح في كل ما أراده ضد شيوخ العرب أو طغاة تافهين، الذين هزمهم في العديد من المعارك. وفي النهاية طردهم ليس فقط خارج نوميديا وليبيا، بل من كل الأجزاء الغربية، وجعل مقاطعة طنجة بكاملها تحت هيمنته.

خلف تاشفين ابنه يوسف، أو جوزيف، الأمير المولع بالقتال. ومع بداية حكمه قام بإنشاء مدينة مراكش، التي عزم أن تكون عاصمة إمبراطوريته.

وخلال تأسيس هذه المدينة أرسل بوفد من مرابطي تلمسان، وهي مقاطعة جزائرية، لغرض إعادة الزناتيين-فرقة إسلامية- إلى الإيمان الحقيقي، كما كانت تسمى آنذاك.غير أن الزناتيين استهانوا بكل هذه العروض من هذا النوع . اجتمع الزناتيون في عاصمتهم أماس أو أمسا وقتلوا الوفد. فلم يكونوا راضين بهذا العمل من الإساءة البالغة والوقاحة، فقاموا بغزو أراضي يوسف بجيش قوامه 50,000 رجل،

غضب يوسف لهذه الإجراءات فجند جندا مع إمكانية القيام بحملة عسكرية، واستولى على أراضيهم. وبدلا من أن يصد الزناتيون الحملة، انسحبوا نحو فاس، حيث كانوا يتوقعون مساعدة، لكنهم خابوا في توقعاتهم هذه،إذ خرج أهالي فاس وقاوموهم، ووجد الزناتيون أنفسهم أمام مأساة ، وأثقل كاهلهم أسرهم وأمتعتهم، وكادوا يهلكون جوعا وتعبا.

نزل عليهم أهل فاس، وقطعوهم إربا إربا، باستثناء قلة من الذين إما أنهم غرقوا عند محاولاتهم أن يسبحوا عبر الوادي، أو سقطوا عند الاندفاع من الصخور التي كانت تحت سيطرة أعدائهم وتتساقط عليهم.

وفي نفس الوقت لوحظ تحرك جيش يوسف الذي أشاع الفساد والدمار، قرب أراضي الزناتيين غير المحظوظين وأصبحت كومة من آثار الدخان.

ومهما يكن، فإنه سرعان ما أعيد تأهيلها بالعديد من مهاجري فزان، الذين أقاموا مستوطنات في ظل حماية الأمراء الحاكمين. وطبقا لمعلومات موثقة ، تبين أن قرابة مليون من الرجال والنساء والأطفال، من الزناتيين فقدوا أرواحهم في هذه الحملة الفتاكة.

إن يوسف، الذي كان أميرا لا يقر له قرار في طموحه، ولم يكن ميالا للسلم. أعلن حربا ضد أهالي فزان، الذين أصبحوا خاضعين له ويدفعون له الضريبة، ووسع نفوذه على امتداد سواحل المتوسط. كان هجومه الموالي على بعض شيوخ العرب، الذين لاحقهم عبر الصحراء الليبية

وبعنف شديد، وأنه لا جرف صخري لمعظم الصخور الكثيرة الخراشيم، ولا مخارق الصخور الخفية وفرت لهم ملاذاً من انتقام ملاحقيهم.

لقد سوى كل قلاعهم وحصونهم بالأرض، والتي كانت تبدو إلى ذلك الوقت لا تخترق، وبامتداد نفوذه نشر هلعا عاما وحزنا شديدا على امتداد أقاليم إفريقيا كلها.

وهكذا أقيمت إمبراطورية المرابطين، غير أن وجودها لم يدم طويلا، لأنهم طردوا من ممتلكاتهم، الجديدة في القرن الثاني عشر من قبل مرابط موحدي. فهذه السلالة من الفقهاء قهرها عبد الحق، والي فاس، الذي حرم هو الآخر من فتوحاته في القرن الثالث عشر، من أشراف الحسن، الذين ينحدرون من أولئك الأمراء العرب والذين احتلهم سابقا أبو تاشفين.

قسم الأشراف ممتلكاتهم الجديدة المكتسبة إلى عدة مقاطعات صغيرة، كما قسمت الجزائر إلى تلمسان، وتنس، ومدينة الجزائر نفسها، وبجاية، لضمان سلامتها وأمنها ضد غزو الأمراء المجاورين. وقام أمراء المدن الأربع الأولى بصيانة إمبراطوريتهم، بتوازن حصيف للسلطة، ومن ثم استمروا في سلام ووئام متبادل لعدة قرون متتالية، غير أن ملك تلمسان قد خرق بعض المواد من اتفاقهم، مما أدى بأبي الفارس إلى إعلان الحرب ضده، وجعل تلمسان خاضعة له.

لم يعمر أبو الفارس طويلا بعد هذه الحادثة، وقسمت مملكته بين أبنائه الثلاث وكان الشقاق والغل نتيجة هذا التقسيم.

وبسبب هذا الضعف والهرج والمرج أصبحوا سهل المنال بالنسبة للحكومة الأسبانية ، التي أرسلت أسطولا وجيشا قويا ضد البربر، بقيادة الكونت نافار The count Navare، وذلك في سنة 1505، وسرعان ما أكملت هذه القيادة احتلال وهران، وبجاية ومدن أخرى هامة، وأدى ذلك إلى انتشار هلع وخوف شديدين بين الجزائريين، وعليه فقد طالبوا بحماية سليم التومي، وهو أمير عربي، اشتهر ببسالة جنوده. جاء لمساعدتهم بجيش كبير معظم رعاياه من المحاربين، وذلك بحضور ملكته زفيرة، وابن في حدود إثنى عشرة من عمره. وعلى أي حال ،فإن هذه القوة لم تكن كافية لرد عدوان الأسبان، فقد أتموا إنزال قواتهم إلى البر في نفس السنة قرب مدينة الجزائر، وأرغموا الجزائريين ليصبحوا خاضعين لأسبانيا. ولم تستطع قوات سليم التومي من منع إقامة حامية اسبانية مخيفة مكونة من 200 شخص على جزيرة قبيل المدينة، والتي ألحقت ضررا جسيما بالقراصنة الذين حاولوا الإبحار من داخل الميناء أو خارجه، فإلى هذا الدابر النير أجبر الجزائريون على الخضوع ، واستمروا كذلك إلى تاريخ وفاة ملك أسبانيا، فردنان Ferdinand، الذي حدث في 1516. بعدها قرر الجزائريون التخلص نهائيا من لنير الأسباني، ومن أجل إتمام هذه الخطة، قام بإرسال بعثة إلى عروج بربروسة، يناشده مساعدته ضد الأسبان، ووعده بتعويض مناسب مقابل خدماته. وتعني كلمة بربروسة اللون الأحمر للحيته، فهو ابن لفخري في جزيرة Lesbos وكان رده سريعا بروح مقدام لا يقر له قرار. ترك هو وأخوه خير الدين والدهما، وانضم معهما طاقم قراصنة. وسرعان ما اشتهرا في هذه المهنة الجديدة،

بنشاطهما وبسالتهما، وأصبحا صاحبا سفينة شراعية صغيرة، ونفذ قرصنتهما بكل نجاح، وسرعان ما جمعا أسطول مكون من إثنى عشرة غليوطة، إضافة إلى العديد من سفن ذات قوة أصغر.أصبح عروج أميرالا لهذا الأسطول، ينوب عنه أخوه خير الدين، وأصبحت إسماهما مزعجاً من مضيق الدردنيل إلى مضيق جبل طارق. ويبدو أن طموحهما ازداد اتساعا تبعا لقوتهما، كما أصبح أمل الخوف من بسالتهما أكثر منه لنجاحهما المفاجئ.

وبينما كانا يعملان كقرصان، فإنهما تصنعا بأفكار ونالا ملكة المنتصرين، فهما عادة ما ينقلان الغنائم التي تحصلا عليها من سواحل أسبانيا وإيطاليا، إلى الموانئ البربرية، فأمن وضعية هذه الموانئ الواقعة قرب الدول التجارية الكبرى المسيحية، أدت بهما إلى الرغبة في إحداث مؤسسة في البلاد البربرية، ولم يتضررا في إنجازه. جاءت فرصة مناسبة لإتمام هذا المشروع الذي أوجد نفسه بنفسه.

استقبل بربروسة البعثة الجزائرية في جيجل حوالي 170 ميل نحو شرق الجزائر، ووعدهم أن يدعمهم بكل ما يملك من قوة، وقد طارا فرحا وفي سرية تامة لهذه الفرصة المناسبة ، التي تجعل منه سيد هذه المدينة. ولتحقيق مخططاته ميدانيا، جهز أسطولاً مكوناً من 18 غليوطة.

ركب السفينة التي أقلعت بقوة عسكرية تركية، مع مدفعية ذات خبرة جيدة، مزودة بعتاد عسكري كبير، وأرسلها إلى مدينة الجزائر.

وفي نفس الوقت تقدم بربروسة برا نحو المدينة بجيش قوامه 800 تركي، و3.000 جيجلي، و 2.000 من الأهالي المتطوعين، وبدلا من أن

يسلك أقرب طريق للجزائر، فإنه وجه مسلكه نحو شرشال–حوالي 60 ميلا غرب الجزائر–حيث يتواجد حسن، قرصان آخر مشهور تحت قيادته، أين استقر، وأرسل رسولا إلى أسطوله، الذي أرسى في هذا الوقت بمدينة الجزائر، يأمره بالتوجه فورا إلى شرشال، وكانت خطته بهذه المسيرة أن يعاقب خيانة حسن، الذي استمال جزء معتبرا من الأسطول المتمركز هنالك لخدمته، وكان على أبواب الانطلاق والنزول على الساحل الاسباني. غير أنه تفاجأ عند ما وجد بربروسة قريبا منه، واستعدوا توا لمواجهة جيشه القريب، غير أنه أدرك عدم الاقتدار للقوات التي حركها، ورأى أنه من الصواب أن يحل كل الخلافات بطريقة ودية، بعدها تلقى وعدا بالعفو من قائده، وسلم نفسه كأسير. وكيف ما كان، فإن بربروسة لم يكن مرتاحا للعفو عن الجرم، وبأمر منه، أعدم حسن بحضور الجيش التركي. بعد هذه الأحداث أجبر سكان شرشال على الاعتراف به حاكماً لهم، وأقام حامية من جنوده في ذلك المكان لضمان احتلاله. بعدها توجه جيشه وأسطوله بمسيرة نحو الجزائر، وعند اقتراب جيشه من المدينة استقبله سليم التومي، أمير الجزائر آنذاك، بحضور حشد كبير من سكان المدينة الذين رحبوا بهذا الفاتح المشهور. والذين يرونه لا يقهر، استقبل بحفاوة، توجه إلى المدينة وسط هتافات هيلولة للسكان، ونزل في أفخم غرفة قصر التومي، حيث أعدت له وليمة فاخرة. ابتهج إلى أبعد حد وبانت عليه علامات الرضا. وبعد يوم من وصوله مدينة الجزائر بدأ في ترتيبات للانقضاض على الأسبان، الذين كانوا إلى زمن بعيد يعرقلون الجزائريين، حيث أمر بحفر خندق لتطويقهم، ووجه مدفعيته ضد الحصون الأسبانية المتواجدة على جزيرة صغيرة في الميناء على علو 500 ياردة من المدينة. وقبل أن يبدأ في ضرب

الهدف المقصود في الجزيرة، أرسل ساعيا إلى الحامية الأسبانية لإعلامهم أنهم سيعاملون معاملة طيبة إذا ما سلموا القلاع ويرسلون إلى أسبانيا، وفي حالة رفضهم ذلك، فإنهم سيتعرضون للموت جميعا. غير أن قائد الحامية رفض كل عروض الإستسلام، وأنه سيقاوم حتى النهاية.

وقد أثار هذا الرد سخط بربروسة ، وسرعان ما بدأ في رشق الجزيرة بالمدافع، والتي استمرت مع إنقطاع مؤقت مدة 20 يوما، غير أن أمره لم يشمل سوى قطع ميدانية صغيرة، ولم يحدث هلعا كبيرا لدى الحامية.وفي نفس الوقت قام الجزء الأكبر من جنود بربروسة بشغب وبكل أنواعه وبشكل مفرط إلى أبعد الحدود، أما علاقات جنوده بالأهالي ، فقد اقترفوا كل أنواع العنف، والوحشية. وسرعان ما شعر الجزائريون بالخطر المحدق بهم، أغاظت سليم التومي فظاعة الأتراك كثيرا وتوسل التومي إلى بربروسة لسحب جنوده من المدينة، لكن هدفه الوحيد الآن، هو احتلال المدينة، وأن النتيجة المرجوة لبربروسة، هي استكمال مشروعه، قرر قتل التومي بطريقة خاصة، بعدها يعلن نفسه ملكا للجزائر. ومن أجل تنفيذ خطته هذه، تسلل إلى شقة صغيرة حيث كان التومي في يوم ما منعزلا لغرض الاستحمام، فوجد الأمير وحده،فأنقض عليه فجأة وقتله خنقا.

وعندما اقترف هذا العمل الوحشي، انسحب خفية، تاركا الأمير يسبح في الماء. وبعد قليل، عاد مع خدمه، إلى الحمام، وتظاهر باندهاش كبير لوفاة التومي، الذي زعم أنه سحب من الماء وهو مغمى عليه.

ومهما يكن، فإن وفاته، نسبت بصفة عامة إلى بطش بربروسة، أما الأهالي فقد أصيبوا بهلع لهذه الحادثة، ويبدو أنهم أكثر قلقا وكتموا

غضبهم خوفا من القمع الذي يلحقهم، بدلا من الأخذ بالثأر لموت سلطانهم.

والآن يسعى بربروسة ليجهر بنفسه علانية ملكا، وبينما كان يسير في الطرقات كان الأتراك والأهالي يهتفون بحياته، عاش الملك عروج بربروسة، ملك الجزائر، الذي لا يقهر، المختار من الله لينقذ السكان من اضطهاد المسيحيين، وليقضي على كل من يعارضه، أو يرفض الاعتراف به كسلطان شرعي.

ان كلمات التهديد هذه أخافت السكان كثيرا ، وتوجساً من الإبادة الجماعية، وسرعان ما أعلن ملكا، واستدعى جميع المواطنين الأثرياء للحضور أمامه، حيث وعدهم بالتشريف والترقية إن قبلوا رئاسته. وقامت زوجة سليم التومي بمحاولة اغتيال فاشلة عن طريق طعنه بخنجر، وقيل أنها شربت السم ، لتتجنب وحشية سلطانها الجديد.

لم يتوان بربروسة في الجلوس على العرش، بعد ذلك عامل رعاياه الجدد بمثل هذه القسوة، مما جعلهم يغلقون أبواب منازلهم. والإختفاء عند ما يظهر علانية.وقد وجد الأتراك أنفسهم سادة بالمعنى الكامل للمدينة، واستعملوا جميع أنواع العنف والجشع. بدأت فواحشهم بإهانة اللغة، وانتهى المشهد بالسلب والقتل، واغتصاب النساء علناً.

وأمام هذه الشدة والغلو والإهانة والفقر، قام المواطنون بمراسلة سرية مع قائد الحامية الأسبانية، حيث أعلموه أن هناك مكيدة معدة لإبادة كل الجنود الأتراك، ويلتمسون منه المساعدة، ووعدوه مقابل ذلك، أن يدفعوا مرة أخرى الضريبة لملك أسبانيا. استجاب القائد لرغباتهم، ودبرت الخطة التالية : يخفي عدد كبير من الأهالي خناجرهم داخل

ملابسهم، ويدخلون المدينة لغرض التجارة، وفي نفس الوقت تحضر مجموعة من السفن الطويلة لتطلق النار على المدينة. وفي الوقت الذي يذهب فيه الأتراك لإخماد النيران تغلق أبواب المدينة عليهم، ويقوم في الحين أسبان الحامية بمساعدة السكان، غير أن يقظة بربروسة كشفت المؤامرة، ونتيجة لذلك، قام بتحصين المدينة، ورفع عدد حراسه سواء من حيث السفن أو في بوابات المدينة، وهكذا أحبط هذه الخطة نهائيا.

اكتشف بربروسة المؤامرة ونفذ أعمالا شنيعة ، حيث تظاهر بعدم كشف الرؤوس المدبرة، وقام بزيارة في أحد أيام الجمعة ، وهو ما يماثل يوم السبت عند المسيحيين، إلى الجامع الكبير في المدينة، حيث كان الجزء الأكبر من المتآمرين حاضرين. إلى جانب حضور عدد من المصلين بصفة غير معهودة، وكان ضمن هؤلاء الطاغية، الذي أمر عددا من جنوده الأتراك بأن يكونوا متواجدين. وعند بداية القيام بالصلاة، أمر بربروسة بأن تغلق أبواب المسجد، واختار 20 من القادة الرئيسيين من كل فئة، والذين يتصور أنهم أكثر فسادا ؟ وطبقا لأوامره تم اقتداؤهم فورا إلى الشوارع وقطعت رؤوسهم. وبعد تنفيذ هذا الأمر الفظيع عرضت أجسادهم عارية من الثياب أمام أعين العامة، وقاموا بحمل رؤوسهم والدوران بها في المدينة عدة أيام، حتى أصبحت بعد مدة تحدث اشمئزازا ورائحة كريهة، قبل أن تدفن في مزبلة. حصلت هذه الحادثة عام 1517، وبينما كانت هذه الأمور تجري توجس ابن سليم التومي خطرا، ففر إلى وهران، حيث وضع نفسه تحت حماية مركيز، (لقب شرف، دون الدوق) ؟ وماريز Gomarez ، قائد المنطقة، ووضع أمام ذلك النبيل، خطة لجعل مدينة الجزائر تحت إشراف ملك أسبانيا. وافق وماريز على الخطة،

وأرسل الشاب سليم التومي إلى أسبانيا، حيث قدم خطته أمام الكردينال فرانسيسكو كيسماس Ximenes francisco والمجامع الكنسية لأسبانيا، والتي وافقت هي الأخرى عليه، وأرسلت أسبانيا أسطولا يتكون من 10.000 شخص من القوات البرية بقيادة الشاب سليم التومي وفيرا ديغو دون Vera de diego Don ، لإعادة الأمير الشاب إلى مملكته، غير أن ما يبعث على الأسى هو حالة هذا الجيش، إذ ما أن اقترب إلى اليابسة، حتى ثارت عاصفة هوجاء أدت إلى هلاك هذا الأسطول كله، وقد حاولت كثير من السفن، بكل شجاعة إنقاذ بعضها البعض والآخر ابتلعه المحيط، وأخرى قذفتها الأمواج إلى الصخور وأصبحت قطعا، أما الشاب سليم و كيسماس فلم يسمع عنهما مرة أخرى إطلاقا ؟ وهكذا فإن الجزء الأكبر من هذا الجيش قد غرق، أما الناجون من سوء الأحوال الجوية ، فإما أنهم قتلوا من قبل الأتراك، أو أصبحوا خاضعين لاسترقاق مثير للشفقة. ازداد كبرياء بربروسة مما جعله معجب بنفسه، أمام هذه الكارثة، ولو أنه لا يوجد ما يجعله يتباهى في هذه المناسبة، وفوق ذلك، فإن غروره وغطرسته ازدادا حدة، ذلك أنه تخيل أنه شخص لا يقهر، وأوهم نفسه أن كل العوامل تعمل لصالحه. وبهذه البلية ، فإن كل الآمال فقدت لطرد بربروسة، واسترجاع ورثة سليم إلى إيالة الجزائر.

وأخيرا أصبح الحكم الاستبدادي لبربروسة لا يطاق، ومن ثم قام العرب، القاطنون في الأجزاء الداخلية من البلاد، بمناشدة حميد العبدس، ملك تنس، بدعمهم لطرد الأتراك خارج مدينة الجزائر، ذلك أن الأمير تعهد أن يقدم لهم كل ما يملك من قوة، وذلك بشرط أن يوافق العرب بتوريث المملكة له شخصيا ولسلالته فيما بعد. قبل هذا الاقتراح حالا، وعندها

أعلن حميد العبدس نفسه توا على رأس جيش قوامه 10.000 مغربي– مور– بدأ مسيرته في شهر جوان 1517، وانضم إليه كافة العرب في البلاد عند دخوله الأراضي الجزائرية، يقصد العاصمة، وجاهروا بعداوتهم للطاغية.

حصل بربروسة على معلومات اقتراب حميد العبدس، وجهّز جيشا وصل عدده إلى 1.000 من المسكيت الأتراك، و500 من أصل غرناطي، وأوصى حكومة الجزائر بالاهتمام بأخيه خير الدين، خرج بربروسة بقوة طفيفة، لملاقاة حميد العبدس، وبعد مسيرة حوالي 12 فرسخا نحو غرب الجزائر، أدركه بربروسة، بدأت معركة خاسرة. وكان النصر لوقت ما مشكوكا فيه، وتلا ذلك مجزرة رهيبة. لكن الأتراك كانوا منضبطين في استعمال الأسلحة النارية، وأظهروا تفوقا كبيرا، أما العدو فلم يكن له سوى سهام ورماح، وبدأ في التراجع. وهزم جيشه رغم تفوقه من حيث العدد. لاحقهم بربروسة إلى أسوار عاصمتهم، والتي أصبح سيدا لها بكل سهولة، أما حميد العبدس فقد انسحب نحو قمة الأطلس، أما المدينة التعيسة، فقد سقطت بدون مقاومة تذكر وأصبحت ضحية لكل أنواع العنف والوحشية. وأعلن بربروسة نفسه ملكا عليها وسرعان ما انتشر هذا النصر الفاصل في كامل أفريقيا، كما أنه سرعان ما أصبح بربروسة سيدا لتنس، بعدها استقبل بعثة من سكان تلمسان، حوالي 50 فرسخا نحو الغرب، والتي أعلنت عن عدم رضاها لإدارة ملكهم لشؤون البلاد، خاصة فيما يتعلق بخلع ابن أخيه عن العرش، والذي أجبر على

الفرار إلى وهران، واقترحوا عليه تولى شؤونهم، في حالة قبول اقتراحهم، فطلب من هذا النوع، كما يتصور، كان خبرا سارا له بشكل كبير، وقرر عدم ضياع الفرصة المواتية لتوسيع مملكته ونتيجة لهذه البعثة كتب إلى أخيه خير الدين بأن يرسل إليه بعض قطع من المدفعية والذخيرة العسكرية، وحال استلامه لهذه المواد توجه إلى تلمسان. وأوصى بقيادة تنس لأخيه الثالث إسحاق.

لم يخامر ملك تلمسان شعور بوجود خيانة من رعاياه، فحشد جيشا قوامه 6.000 من الخيالة و 3.000 من المشاة، وانتظر وصول الطاغية في سهول Aganel، أمام المدينة، حيث دارت معركة دموية، والتي لم يستطع ملك تلمسان التصدي لمدفعية بربروسة، وهزمه الأخير شر هزيمة، وفر مع ما تبقى من جنوده إلى عاصمته، حيث أخذ أسيرا وقطع رعاياه رأسه، بعد ذلك قاموا بإرسال رسل مع رأسه إلى بربروسة الذي أمرهم بتسليم مفاتيح المدينة إلى الفاتح.

وبعد يومين، دخل بربروسة إلى تلمسان منتصرا ، وسط هتافات حشد من المواطنين، الذين استقبلوه وعاملوه بكل رقة واهتمام. وكعادته، وحال استيلائه على المدينة بدأ في الاضطهاد، غير أن رعاياه الجدد سرعان ما أقنعوه أنهم لن يستسلموا مثل مواطني مدينة الجزائر. ووجد اعتراض مريب لإدارته في حكومة تلمسان، وقلق حذر لحكم السلطان نتيجة عمله الشائن. دخل في حلف مع مولاي حامت، ملك فاس، وجاء في مواد التحالف أن يقدم كل واحد للآخر مساعدة متبادلة ضد

عدوهما. بعدها قام باحتياط وأمن كبيرين لتوفير الأمن لحامية جنود تلمسان، وكذا الحال بالنسبة لبقية المدن في مملكته. والبعض من هذه الاحتياطات جاءت نتيجة ثورات حدثت ، مما جعله يرسل أحد قرصانه المدعو إسكندر، وهو لا يقل وحشية وبشاعة عنه، للقضاء عليهم.

أما إسحق بني جوب، قائد تنس، فقد أصبح هو الآخر بغيض جدا في إدارته، مما أحدث ثورة عارمة وسط أهالي البلاد وسقط ضحية نتيجة غضبهم الشديد. تأسف أهالي تلمسان بصدق أنهم توددوا إلى مساعدة مثل هذه الطاغية، وقاموا بمشاورات حول أنجع السبل لطرده من مدينتهم، وإعادة رجال بوشمان، أميرهم الشرعي، غير أن مؤامرتهم سرعان ما عرفت، وذبح عدد كبير منهم، أما بوشمان، الذي حظي بالفرار إلى وهران، ووضع نفسه تحت حماية مركيز ماريز، الذي أرسل استشارة حوله إلى شارل الخامس. بعدها حل بوشمان بإسبانيا وعاد ومعه أسطول قوي وجيش، وسلم له مجمل محاضر الجلسات الخاصة بأفريقيا.

أمر شارل الخامس فورا بإعداد جيش يفوق 10.000 رجل، ووضع تحت قيادة وماريز، وإرشاد بوشمان، وانضم إليهما في طريقهما إلى تلمسان الأمير سليم بعدد كبير من العرب والمور، وكان قراره الأول الهجوم على القلاع الهامة مثل قلعة calau الواقعة بين تلمسان والجزائر، والتي كانت تحت قيادة القرصان إسكندر، بجيش قوامه 300 تركي. وحاصروها بإحكام من كل الجهات، وبخطة إيقاع بربروسة في شرك من

تلمسان إلى مقر استراحته، وإعطاء فرصة لأهالي تلمسان بغلق مداخل المدينة ضده. غير أن الطاغية كان على مقربة من إقامته في عاصمته، خوفا من ثورة عارمة، والتأخير الخطير لملك فاس الذي تجاهل أن يرسل له قوات إضافية التي وعد بها.

قامت حامية calau، في نفس الوقت بدفاع قوي، وعند انسحابها ليلا قتلت 300 أسباني. وهذا ما شجعهم للقيام بمهمة ثانية، غير أنهم ردوا على أعقابهم خاسرين، وجرح إسكندر نفسه، لم تستطع الحامية الصمود أكثر، وإستسلمت بشروط مرضية، غير أنهم أبيدت من قبل العرب جميعا باستثناء ستة عشر منهم، الذين تشبثوا بقرب من ركاب الملك والجنرال الأسباني.

بعد الانقضاض على هذا الحصن شرعوا في مسيرتهم تمهيدا لحصار تلمسان.تلقى بربروسة معلومات عن اقترابهم ، وقرر عدم انتظار التعزيزات القادمة من ملك فاس، وخرج من عاصمته بجيش يفوق 1500 من خيالة الأهالي، للوقوف ضد تقدم الأسبان، لكنه علم بتفوق قواتهم، وعليه نصحه مستشاروه بالعودة وتحصين نفسه في عاصمته.

غير أن هذه النصيحة جاءت متأخرة.ذلك أن أهل تلمسان أغلقوا الأبواب في وجهه، وقرروا ألا يفتحوها إلا لسلطانهم الشرعي، عندما يظهر. وأمام هذا الخطر الشديد أعتقد أنه من الحكمة الانسحاب إلى القلعة، والدفاع عن نفسه هنالك حتى تتاح له فرصة للخروج خفية مع جيشه وخزينته المسروقة.وهنا قام بدفاع قوي، لكن مئونته تضاءلت، نجح في هروبه ليلا عن طريق نفق واقع تحت سطح الأرض، الذي قام

بحفره لذلك الغرض، وحمل معه أمواله الضخمة، غير أن فراره سرعان ما عرف، وعليه أمر وماريز بملاحقته بسرعة. وجد بربروسة نفسه قريبا من ملاحقة الأسبان، وذلك بسبب نقل كمية كبيرة من الأموال، والسبائك الذهبية والفضية، والمجوهرات ...الخ المبعثرة على امتداد الطريق الذي سلكه وذلك قصد إلهاء العدو، وتأخير ملاحقته له وذلك بالقيام بجمع هذه الأموال المبعثرة هنا وهنالك حتى يتمكن من عبور وادي Huexda، غير أن هذه الخدعة الحربية، لم تنجح بسبب يقظة وفطنة القائد الأسباني، الذي أمر جنوده بالسير، دون انتظار لجمع الغنائم، وسرعان ما لحقوا بالهارب على ضفتي الوادي، أي حوالي ثمانية فرسخ من تلمسان. أما بربروسة فقد عبر الوادي بسرعة مع طليعة من جيشه، وهاجم الجيش الأسباني مؤخرة جيشه بضراوة من جهة أخرى، وقطعوهم إربا إربا. وبعده عبر الوادي ؟وماريز وتلا ذلك اشتباك دموي، حيث قاتل الأتراك بعنف شديد، غير أن الأسبان تفوقوا عليهم عددا، وسقط الطاغية ومعه 1500 من الأتراك في ساحة المعركة.

وإلى هذا الحد تنتهي سيرة هذا الطاغية القوي، الذي توفي في سنة 1519، وعمره 44 سنة، وهذا بعد أربع سنوات من طموح ارتقائه إلى منصب ملك جيجل المتاخم للبلاد، وسنتين بعد أن تولى حكم مدينة الجزائر، و12 شهرا من استيلائه على تلمسان. أضف إلى ذلك قيامه بغزوات بحرية ونشر خراب ودمار على طول البلاد البربرية لمدة 14 سنة.

وبعد هذا الانتصار الهام لـ وماريز،عاد منتصرا إلى تلمسان ودخلها وسط هتافات الجماهير التي خرجت لاستقباله، وهي حاملة رأس بربروسة على رأس حربة، وأعلن بوشمان ملكا، وساد فرح كبير وسط أهل تلمسان.

وبعد أربعة عشر يوما من المعركة، ظهر ملك فاس، قرب تلمسان بجيش قوامه 20.000 من الفرسان، غير أنه انسحب بجيوشه هذه بعد أن علم بهزيمة بربروسة، تجنبا لهجوم العدو.

لم يلبث "دماريز" طويلا في تلمسان حتى غادرها عائدا إلى وهران، تاركا بوشمان، ليتولى مملكته بشكل سلمي

الفصل الثاني

خير الدين يخلف بربروسة.القضاء على القلعة الإسبانية أمام المدينة. تعيين خير الدين في منصب باشا الإمبراطورية. تعيين حسن أغا بدله. حملة شارل الخامس ضد الجزائر.المدينة في هلع كبير. تنبؤ شاذ لمتكين مجنون. هلاك أسطول اسباني بسبب عاصفة. رفع حصار مدينة الجزائر. تحقيق في مكافأة المتكين المجنون. حسن يخضع تلمسان. استرداد بجاية عن الإسبان. انتخاب حسن القورصو باشا. الحكم عليه بالموت. وتولية تكليلي. إعادة تنصيب ابن خير الدين. انهزام الإسبان.حصار المرسى الكبير. محمد يخلف تكليلي. مغامرة فاسكون فوق ذنخ والموت. الجزائريون يخيفون الأوربيون. حملات عسكرية عديدة. الجزائر تصبح مستقلة عن الباب العالي. تعيد مستحنط للإخوة الأربعة.

انتشر خبر وفاة بربروسة إلى وسط أتراك مدينة الجزائر.الذين أصيبوا بهلع كبير وأعلن أخوه خير الدين نفسه ملكا مباشرة بعد سماعه الخبر. لم يترو القائد الاسباني بل أهمل مواصلة انتصاراته في هذه الآونة الحرجة والمباركة في نفس الوقت. أعاد قوات الإمبراطور دون محاولة منه لاخضاع مدينة الجزائر. أصبح خير الدين متوحشا في

وضعيته الحالية الحرجة من غزوة اسبانية، وخشي من نتائج طغيانه وكذا استبداد ضباطه، لذلك أرسل بعثة إلى الباب العالي يستغيث ويطلب منه الحماية، والتي قدمت سابقا. وعين باشا أو خليفة الملك على مدينة الجزائر، وتلقى تعزيزات معتبرة لإتمام قهر الجزائريين التعساء، الذين لم يتجرؤوا على المقاومة على الأقل أو الشكوى. ونتيجة لهذه التعزيزات، رفع عدد جنوده من الأتراك باستمرار، مما مكنه ليس فقط على قهر المور والعرب في الداخل، بل لإزعاج المسيحيين في البحر.

وكانت خطوته الموالية هي القضاء على الحصن الاسباني أمام مدينة الجزائر. والذي كان مصدر ازعاج للعاصمة، والذي استقر فيه الاسبان حتى سنة 1530 .

بحيث كانت سفنه (خير الدين) (نتيجة لذلك) مجبرة دائما أن ترسو قرب باب عزون، بعيدا عن وصول مدافعها، حيث كانت السفن معرضة باستمرار إلى خطر العواصف الهوجاء. ومن ثم قرر القضاء عليه، وكانت محاولته الاولى عن طريق خدعة حربية، إذ قام باختيار غلامين من الأهالي وزودهم بمعلومات عن كيفية تصرفهما، أرسلهما إلى الحصن، حيث طلبا الإذن بالدخول، معلنين أنهما يرغبان في إعتناق الدين المسيحي، والإقامة مع الاسبان. واستقبل الشابان وعوملا معاملة جيدة. وفي أحد أيام السبت، وبينما كان قائد الحصن Martin de Vargas، ورجاله في الكنيسة، صعد الشابان إلى برج تظهر منه المدينة، ومن هناك

لوّحا بعلم كإشارة ولاحظتها خادمة القائد، فذهبت مسرعة إلى سيدها لتعلمه بما حدث، وتوجه Vergas ورجاله إلى البرج فورا، حيث ألقي القبض على الشابين، واستعدوا لمقاومة القوات البرية للعدو. وأحبطت خطة خير الدين، وكف عن خطته، وعندما خف الخطر الذي أحدثه الشابان، قام القائد بإعدامهما شنقا بعد معركة حامية الوطيس في مدينة الجزائر. وأصيب خير الدين بغيظ شديد في المعركة، وقرر فورا القضاء على الحصن. وعلى إثر ذلك أرسل خير الدين مرتدا إلى الحصن ليعلم Vergas، أنه إذا استسلمت الحامية فإنه هو ورجاله سيعاملون معاملة حسنة، ويرسلون إلى اسبانيا، وإن كان الأمر غير ذلك، فإنهم سيخضعون للموت، وكان رد Vergas أنه سيقاوم حتى النهاية، وبعد استلام خير الدين جواب قائد الحامية، أعد مدفعية قوية، وبدأ في قصف عنيف ومتواصل على الجزيرة، والذي استمر مدة 15 يوما دون توقف. هدمت كل أسوار الحصن وقتل العدد الأكبر من المحاصرين. وأمر خير الدين جنوده أن ينزلوا إلى الجزيرة والتي تم إخضاعها دون مقاومة، وما تبقى من الأحياء أصبحوا أسرى. وعانى Vergas من الحبس مدة ثلاثة أشهر وبعد انقضاء هذه المدة، أمر بالحضور أمام خير الدين، وخضع للفلقة حتى الموت. (طريقة في معاقبة المذنب بضرب أسفل القدمين بالعصا).

بعد هذه الحادثة بدأ في بناء مرفأ قوي من الجزيرة إلى المدينة، لحماية سفنه، ومن أجل ذلك استخدم 30.000 عبد مسيحي، الذين شرعوا

في هذا العمل، مدة ثلاث سنوات دون انقطاع، وفي الوقت الذي انجز فيه العمل، سعى إلى إصلاح القلعة التي افتكها من الاسبان ووضع فيها حامية عسكرية قوية لمنع السفن الأجنبية من الدخول إلى الميناء من غير أن تعرف بنفسها. وبهذين العملين الهامين، يتضح أن خير الدين لم يكن يخشى فقط من العرب والمور، بل أيضا من القوى البحرية المسيحية، خاصة الإسبان. لم يفشل نائب السلطان في اعلام الباب العالي بنجاحه والحصول منه على دعم مالي جديد، والذي بواسطته استطاع أن يبني قلعة حصنية، وأن ينصب مجموعة من المدافع في كل الأماكن التي قد يفضلها العدو للنزول إلى اليابسة. كل هذه الأعمال وجدت اصلاحات كبيرة من وقت لآخر.كلّما كانت الفرصة مواتية.

وفي نفس الوقت وفوق ذلك، هناك إحساس من السلطان بالخدمات الجليلة التي قام بها خير الدين، أو ربما يعود ذلك إلى الغيرة التي أدت بخير الدين أن يكون حراً. ورفعت من مقامه ليصبح باشا الامبراطورية، عين خير الدين، حسن آغا، وهو مرتد من سردانيا، محارب جسور. وضابط له خبرة، ليخلفه كباشا الجزائر.

وسرعان ما تولى حسن منصب الحكومة الجديدة، بعدها بدأ في متابعة النهب والسلب على الساحل الاسباني بحماس أشد من سابقه،

وتوسع في ذلك ليصل إلى الدول الكنسيّة، وأجزاء أخرى من إيطاليا. لكن البابا بول الثالث Pape Paul III أبلغ بالأمر. وهو بدوره، يحذر شارل الخامس Charles V ليرسل له أسطول قوي لقمع هذه القرصنة الوحشية المتكررة، حتى يفشل مغامرة حسن. ونشر بيان رسمي بابوي من قبل قداسته، حيث وعد بالغفران الكامل للذنوب، ومكافأة الاستشهاد، وقد وعد بهذا جميع الأشخاص الذين يسقطون في هذه المعركة، أويصبحوا عبيدا.

فالإمبراطور لا يحتاج من جهته إلى مسيّر. وبالتالي أبحر على رأس أسطول قوي يتكون من 120 سفينة كبيرة و20 غليوطة على متنها 30.000 من الجنود المختارين، وكمية هائلة من الأموال، والأسلحة والذخيرة... الخ. ورافق في هذه الحملة عدد من شباب النبلاء والطبقة العليا كمتطوعين وبين هؤلاء العديد من فرسان مالطا، وأعطت مشاركتهم ضد أعداء المسيحية مكانة وشعورا خاصين. ولم تقتصر المشاركة على الرجل بل شاركت حتى السيدات مع شارل في حملته، وكذلك التحقت زوجات وبنات الضباط والجنود قصد الاستيطان في البلدان البربرية بعد الغزو الشامل.

وتم تحضير الحملة مع رياح مواتية، وسرعان ما ظهرت سفن الحملة أمام مدينة الجزائر وكانت كل سفينة ترفع الألوان الإسبانية في مؤخرتها ومقدمتها، مع مرشد السفينة ومدير الدفة.

وأمام هذا العدد الضخم من القوات الحربية الهائلة، وقع الجزائريون في ذعر شديد. وكانت المدينة محاطة بسور واحد وبتحصينات خارجية بسيطة. تضم الحامية التركية 800 تركي و6.000 من المور، من غير سلاح ناري إضافة إلى تنظيم ضعيف، أما بقية قواتهم فهي موزعة في المقاطعات الأخرى للمملكة لجلب ضرائب القبائل المعتادة من العرب والمور. ونزل الإسبان دون مقاومة، وأقاموا حصنا بعد ذلك مباشرة، في ظل الموقع الذي عسكروا فيه، وحولوا المسار الذي يزوّد المدينة بالماء. أصبحوا الآن لا يخشون من الخطر. تلقى حسن الدعوة للإستسلام من غير قيد أوشرط، أو العقاب له ولحاميته إن رفض ذلك.

أمر البشير باستعمال كامل قوة الامبراطور في البر والبحر، ودعاه إلى العودة إلى الديانة المسيحية. وكان جواب حسن، أنه لو فعل ذلك سيكون مجنونا، وسيتظاهر باستشارة عدو، وأن الاستشارة يجب أن تظل عملا أكثر حماقة للذي يريد نصيحة من مثل هذا المستشار. وكاد أن يسلم المدينة عندما كُلِّفَ بالاستشارة. وأن القوات التابعة للحكومة الغربية كانت على استعداد تام للتوجّه إلى المكان، غير أن ذلك لم يتم حيث أن الاستعداد كان كاملا للدفاع عن المدينة.

وفي نفس الوقت، صمم شارل، على القيام بهجوم عام، وأن يجعل المدينة تحترق بشكل متواصل، ولاحظ وجود دفاع ضعيف من الحامية

التركية، واعتقد أنها سيلة المنال. وبينما الحكومة الجزائرية يتداول حول أنجع الوسائل للحصول على استسلام مشرف، وإذا بمتكهن مجنون يحضر هو وحشد كبير من الناس ويدخلون الديوان وينبأ بهلاك سريع للإسبان قبل مغيب القمر، وطلب من السكان الصمود حتى ذلك الوقت. وسرعان ما تم التأكيد على هذه المفاجأة والطريقة غير المنتظرة.

وفي 28 أكتوبر 1541 ظهرت عاصفة مخيفة من الشمال مصحوبة برياح وأمطار متبوعة بزلزال عنيف وظلام عام قابض للصدر في البر والبحر، وهكذا ظهر أن الشمس والقمر اتحدا معا لهلاك الإسبان. وفي ليلة واحدة، وحسب أقوال البعض أنه في أقل من نصف ساعة، تحطمت 86 سفينة و15 غليوطة بكامل طواقمها، وعتادها العسكري، وبهذا حرم الجيش المتواجد على الشاطئ من وسائل البقاء على قيد الحياة. كما أن معسكرهم أيضا، والذي يمتد على طول السهل، في أسفل القلعة، غمرته المياه الآتية من التلال المجاورة. فقد حاول العديد من الجنود الانتقال إلى مواقع أفضل، فقد قطعوا إربا إربا من قبل العرب والمور، في حين كانت العديد من الغليوطات وسفن أخرى، تحاول الوصول إلى الخليج المجاور على طول السواحل، وتعرضوا فورا إلى السلب وقتل جميع الطواقم من قبل السكان.

وفي الصباح الموالي شاهد شارل البحر مغطى بأجزاء من السفن، وجثث جنوده، وخيوله وكائنات أخرى تطفوا على الأمواج، وهكذا أصابه غم وكدر مما جعله يترك خيامه ومدفعيته وكل أمتعته الثقيلة، للعدو

وسار في مقدمة جيشه، وفي فوضى عارمة نحو خليج Mallabux من أجل الإبحار في تلك السفن التي رمتها العاصفة على الساحل. لكن حسن الذي كان يراقب تحركاته، سمح له فقط بوقت كاف للنزول إلى الشاطئ، عندها، هاجم الاسبان أثناء هروبهم السريع للوصول إلى سفنهم، فقتل منهم عددا كبيرا، وألقى القبض على عدد أكبر من الأسرى، بعدها عاد إلى الجزائر منتصرا، حيث احتفل مع مرح صاخب، لشدة فرحه والنجاة من الخطر.

ومباشرة بعد تكهن يوسف بهلاك الإسبان، أعلن أنه لم يكن فقط المنقذ لبلاده، بل قدم له مبلغ مالي معتبر، مع حرية ممارسة وظيفة الكهانة بدون مضايقة. وقد وجد معارضه قوية ضده، قبل ذلك، بمدّة من الأولياء ورجال الدين الذين أعترضوا أمام الباشا. أنه من السخافة والعار لأمة أن تنسب خلاصها إلى عراف فقير الحال، هذا الخلاص الذي تم بفضل دعاء المصلين وفقا لعقيدتهم. ومع ذلك يبدو أن الباشا وديوانه، بعيدين عن السياسة، وذلك بتقديمهم آخر نزوة من نزواتهم. غير أن الإنطباع الذي تنبأ به يوسف وإنجازاتهم قد أثرت على عامة الناس، وأثبتت أنها قوية جدا لاجتثاثها، وإن روح الألوهية وممارسة الشعوذة تجلب السمعة لأصحابها(...)

أما الإسبان التعساء فلم يصل منهم إلى سفنهم إلا العدد القليل عندما هوجموا بعاصفة جديدة، حيث هلك العدد الأكبر منهم، وقد هلك في إحدى السفن الغارقة 700 جندي، إلى جانب البحارة في قتال

الإمبراطور، ولم يكن بالإمكان انقاذ ولو شخص واحد. وأخيرا، وبجهد كبير، وصلوا إلى ميناء بجاية، الذي كان تحت قبضة الإسبان آنذاك حيث زوّد ملك تونس الأمبراطور بالمؤنة، الذي تلقاها بلطف ورقة، مع ضمانات الرضا والحماية.

هنا صرف الامبراطور بعض بقايا فرسان مالطا وقواتهم، وذلك بصعوبة كبيرة وخطر حل ببلادهم. لم يبق شارل بنفسه سوى إلى غاية 16 نوفمبر، عندها أبحر إلى قرطاجنة، وحل بها في 25 من نفس الشهر. وقد فقد في هذه الحملة السيّئة الحظ أزيد من 120 سفينة وغليوطة، وأكثر من 300 عقيد وضباط آخر في القوات البرية والبحرية، و8000 جندي وبحار إضافة إلى أولئك الذين قتلوا على يد العدو عند الإبحار، أو النزول في العاصفة الأخيرة. أما عدد الأسرى فكان كبيرا جدا، ذلك أن الجزائريين باعوا البعض منهم بطريقة مزرية، ببصلة لكل رأس. أصبح حسن مفتخرا بهذا النصر، والذي لم يشارك فيه إلا بقسط ضئيل، باشر حملة ضد ملك تلمسان، الذي، أصبح الآن محروما من مساعدة الإسبان، وكان ملزما أن يجنح إلى السلم بدفع مبلغ كبير من المال، والإقرار بالخضوع له. عاد الباشا إلى الجزائر، محملا بثروة طائلة وسرعان ما مات بالحمى، وعمره 66 سنة. وابتداء من هذا التاريخ لم يستطع الإسبان إطلاقا مضايقة الجزائريين بأي درجة كانت. وفي عام 1555 فقدوا مدينة بجاية، التي استردها صالح رايس، خليفة حسن، والذي شرع سراً في إعداد حملة في السنة المقبلة، ولكنه اكتشف أمرها بأنها كانت موجهة ضد وهران.

غير أنه قطع مسافة 4 فرسخ من الجزائر، ووجد الطاعون منتشرا والذي أودى بحياة العديد من السكان في المدينة وأصيب هو في فخذه فمات خلال 24 ساعة.

وبعد وفاته مباشرة قام الجند الجزائريون باختيار مرتد كورسيكي، هو حسن القورصو، بدله، في إنتظار وصول أوامر إضافية من الباب العالي. رفض القورصو منصب الباشا من عقد جيد، لكنه سرعان ما واصل الحملة المطلوبة إلى وهران، حيث قام بإرسال مبعوث لاعلام الباب العالي بما حدث، بدأوا بصعوبة حصارهم لوهران غير أنهم فوجئوا عندما وصلت أوامر الباب العالي، التي منعت بصريح العبارة حسن القورصو ببدء الحصار، أو أن يرفعه فوراً إذا كان بدأه. وقد تلقى القورصو وكل الأسطول، والجيش الأوامر، بحزن عميق، ذلك أنهم كانوا متأكدين من النجاح، مع العلم أن الحامية الإسبانية المتواجدة آنذاك في وهران كانت ضعيفة جدا. وبرغم ذلك فإنهم لم يتجرؤوا على العصيان ورفعوا الحصار.

لم يتمتع القورصو بشرف الرئاسة سوى أربعة أشهر، قبل أن تأتي الأخبار، بأن ثمانية غليوطات قادمة وعلى متنها باشا جديد يخلفه، والمسمى، تيكللّي، وهو شخصية تركية هامة في بلاط الباب العالي، عندها قرر الجزائريون جماعيا عدم قبوله. ومع ذلك قبل النهاية، بسبب خيانة الجنود المشارقة، وكان مصير القورصو أن رمى من خلال سور أوجدار تتواجد فيه عدد من الأعقف الحديدية المثبتة، بحيث علقت اضلاعه اليمنى، علق مدة ثلاثة أيام تحت تعذيب شديد قبل أن تزهق روحه.

لم يمر وقت طويل حتى تولى تيكللي أمور الدولة، بعد القيام بمثل هذه الوحشية، واغتيل بسببها، ومع ذلك تحت قبة وليّ صالحٍ، من قبل يوسف كالابر، المرتد المفضل لدى حسن القورصو، وبسبب عمله هذا أختير بالإجماع على تولي منصب الباشا لكنه توفي بالطاعون بعد 6 أيام من اختياره.

خلف يوسف حسن بن خير الدين، الذي استدعي من منصب الباشا، عندما تولى بعد صالح رايس، والآن ابتسم له الحظ للعودة إلى منصبه. وبعد وصوله مباشرة، دخل في حرب مع العرب، الذين هزموا مع خسارة كبيرة. وفي السنة الموالية أعد الإسبان حملة ضد مستغانم، تحت قيادة الكونت دا الكاَنديلا The Count d'Alcandela، غير أنهم هزموا تماما، وقتل القائد نفسه، وأسر 12000 من الاسبان.

وتعود هذه الكارثة إلى عدم قدره الترّوي، أو بالأحرى إلى تهور القائد، والتي كانت نتائجها وخيمة. ذلك أنه عندما وجد استحالة حشد قواته المبعثرة، اندفع، برمح في يده، وفي طحمة قوات العدو، وهو على رأس عدد قليل من الرجال يصيحون : «سان جاقو ، سان جاقو ، النصر لنا، والعدو منهزم».

وبعد ذلك ألقي به على الأرض من على ظهر جواده ودهس حتى الموت.

أصيب حسن ببلية بإثارة غضب رعاياه، وذلك عندما أذن لأهالي جبال مملكة «كوكو» بشراء الذخيرة بالجزائر، وعليه أرسل إلى القسطنطينية مقيدا بالحديد، بينما حل محله آغا الانكشاريين، والقائد العام

للقوات البرية. ولم يجد حسن صعوبة في تخليص نفسه، غير أنه تم تعيين باشا جديد، يدعى أحمد، الذي كان قد وصل. بعدها أرسل اثنان من ممثليه إلى القسطنطينية، أين ضربت أعناق رؤسائهم. فأحمد شخص مصاب بالنهم والجشع، ذلك أنه بعد وصوله الجزائر جاءه كل أعيان المدينة بأعداد كبيرة ليقدموا له هدايا، والتي تقبلها بشره كبير. وبما أنه اشترى شرفهُ بالمال الذي كدّسه عندما كان بستانيا للسلطان. وتمتع بها، أي الأموال، وعلى أي حال فإنه لم يحكم سوى أربعة أشهر، وبعد وفاته عين بدله قائم مقامه، الذي تولى أمور الدولة، إلى غاية تعيين حسن، للمرة الثالثة واستقبل بمسيرة ترحاب كبيرة. كانت المهمة الأولى التي التزم فيها حسن القيام بها هي حصار المرسى الكبير، الواقعة قرب مدينة وهران، والتي خطط القيام بها فورا بعد عودته. ووصل عدد القوات التي استعملها في هذا الحصار بـ26.000 من القوات البرية، و10.000 من الخيالة، إضافة أن له أسطول يتكون من 32 مرزابة (سفينة طويلة صغيرة سريعة كانت تعمل في البحر المتوسط) وقرقورة (سفينة طويلة ذات مجاذيف) وترافقهم ثلاث سفن فرنسية محملة بالبسكويت والزيت ومؤن أخرى. وواجهت المدينة حملة حسن بقيادة «دون مارتين دوكوردوفا(Martin de Cordo (Don شقيق الكونت دا الكانديلا، الذي أخذ أسيرا في المعركة حيث قتل ذلك النبيل، غير أنه حصل على حريته من الجزائريين بمبلغ مالي ضخم، والآن يبدي نبالة الدفاع ضد الأتراك. وقد هوجمت المدينة بعنف شديد برا وبحرا. وأحدثت عدة تغيرات في الأسوار.

نصبت الرايات التركية في الأسوار، وأحيانا تختفي، أما المدينة فقد استسلمت في النهاية. ولم يكن حسن ملزما برفع الحصار بسرعة، جاءت أخبار مفادها أن الأميرال الجنوي المشهور دوريا Doria يقترب، ومعه إمدادات معتبرة من إيطاليا. وقد وصل الأسطول فيما بعد. لكنه لم يجد الغليوطات الجزائرية، فاتجه الأسطول إلى Pennon de Velez حيث صد بشكل مخجل من قبل حفنة من الأتراك الذين تعسكروا هنالك. والتي حدثت في السنة الموالية.

وفي عام 1567 استدعى حسن مرة أخرى إلى القسطنطينية حيث توفي بعد ثلاث سنوات. وخلفه محمد الذي كسب ودّ الجزائريين عن طريق أعماله الوطنية الشجاعة والعديدة، إذ أدمج الانكشاريين والأتراك المشارقة معا، وبهذه الطريقة وضع حدا لخلافاتهما والتي أدت إلى تأمين الإستقلال الجزائري عن الباب العالي.

وفوق ذلك، أضاف بعض الحصون للمدينة والقلعة التي اختار موقعها لتكون منيعة. لكنه وبينما كان يدرس الاهتمام بالجزائر. وإذا بمغامر اسباني جرئ، يدعى John Gascon، وضع خطة مفاجئة لكل أسطول القراصنة في الجون، وأشعل النار عليهم في الرقدة الأولى. وللقيام بهذا العمل لم يكن لديه ترخيص من الملك فيليب الثاني، فحسب، بل زوده بسفنه الخاصة، وبحارته، وفرقوعات نارية لتنفيذ خطته. ومع هذا العتاد أبحر إلى الجزائر في بداية أكتوبر، حيث ترسو السفن كلها في هذا الموسم بالميناء. بحيث يمكن الإقتراب منها داخل الميناء باطمئنان.

ومعرفة طريقتهم في ركوب السفن، وهذا قصد مفاجأتهم في الوقت الذي يتصرف معظم طواقهم في أحيائهم المشتة. وعليه قدم في سرية تامة لا يعرف أحد إلى مدخل جفنة الميناء، ووزع رجاله مع القرقوعات النارية، غير أن مفاجأتهم الكبرى، أنهم وجدوا هذه القرقوعات النارية مزجت بطريقة رديئة، مما صعب عليهم اشعالها رغم تدريبهم عليها سابقا. وفي نفس الوقت، فكر Gascon بالذهاب وبطريقة شجاعة، إلى مدخل جفنة الميناء وقام بثلاث طعنات خنجرية. وتركها مثبتة في بوابة الميناء، حتى يتذكره الجزائريون. كان محظوظا جدا أنه لم يجد أي اضطراب أو مقاومة، لكنه لم يكن مع رجاله، وسرعان ما تم اكتشافهم وفشلت محاولتهم، مما جعل حارس المركز المجاور للطابية ينهض ويطلق صفارة انذار يستيقظ رجال الحامية العسكرية.

وهنا وجد Gascon نفسه في خطر شديد، وأبحر بسرعة فائقة، غير أنه تمت ملاحقته وألقى القبض عليه، وأعيد أسيرا إلى محمد، الذي سرعان ما أخذه، وأمر فورا، باعداد مشنقة له، على أن تكون عالية جدا في المكان الذي نزل فيه Gascon، وأمر برفعه وتعليقه من رجليه، حتى يموت موتة شنعاء.

ولإظهار إمتعاضه واحتقاره من سيده الملك، أمر بربط أصابع القدم. يبق معلقا طويلا في تلك الحالة. حيث أخذه القبطان، الذي كان

يرافقه عدد من القراصنة، ليشفعوا فيه، ومن ثم أنزل ووضع تحت عناية جراح مسيحي، غير أنه بعد يومين، دار الحديث بين بعض الأهالي إن الكلام يجري في إسبانيا، بأن الجزائريين لا يتجرّؤون على إلحاق الضرر ولو بشعرة واحدة من رأس Gascon. عندها علّق الإسباني سيئ الحظ بمجذب إلى أعلى سوروفي الأسفل تتواجد المسامير التي اسقط عليها، حيث دخلت في إحدى أضلاعه عند سقوطه، وجرح جرحا مميتا من غير أن يتلفظ بآهة. هكذا كان مصير حملة Gascon، والتي جعلت منه بطلا عند الإسبان وأصبح شهيدا عندهم. ومن جهة أخرى، يرى الجزائريون أنها كرامة تعود إلى المرابط سيدي ولد داد، حيث كان لدعائه قبل هذه العاصفة الهوجاء أثر ما ضد الأسطول الاسباني.

بعد هذه الحملة الفاشلة، استدعى محمد بسرعة، وخلفه المرتد المشهور أوشالي، الذي اخضع مملكة تونس، والتي بقيت، على أي حال، خاضعة إلى حاكم الجزائر حتى سنة 1586، عين الباب العالي، باشا لتونس.

إستمر حكم مملكة الجزائر إلى بداية القرن السابع عشر عن طريق نواب أو باشاوات يعينهم الباب العالي، ولم تجد شيئا مهمّا حوزيته، عدا عدا جشعهم واستبدادهم الذي لا يطاق سواء مع الجزائريين أو حتى مع الأتراك أنفسهم. وفي الأخير أصبح كل من الجيش الانكشاري في المرحلة

الأهلى (المليشيا) قادران على كتم الهيمنة الاستبدادية للباشوات. أصبح الشعب بكامله تقريبا، مستنزفا بالضرائب العالية المفروضة عليه، وعزم السكان على خلع هؤلاء الطغاة اللؤماء، ووضع ضباطهم على رأس الحكومة، أفضل طريقة لهذه المحاولة في الخلافة، هي أن يرسل الحرس الأهلي وفد من بعض رؤسائه إلى الباب العالي، للتظلم من جشع وجور هؤلاء الباشوات. الذين أغرقوا كلا من ايرادات الدولة من الضرائب، وتحويل الأموال المرسلة من القسطيطنية إلى خزائنهم، والتي كان من المفروض توظيفها والحفاظ عليها ودفع مستحقات العساكر، وبهذه الوسائل كانوا في خطر دائم، وإذا وجد العرب والبربر الذين إن وجدوا مساعدة بسيطة من قبل أية دولة مسيحية فإنهم بإستطاعتهم طرد جميع الأتراك من المملكة.

قدّم الوفد إلى الباب العالي، تصورًا، سهلا وأرخص ثمنا، والذي بموجبه يمكن للباب العالي أن يسمح لهم بإختيار داياً أو حكماً، من بينهم، والذي يسيّر ايرادات المملكة بشكل عقلاني، والحفاظ على قواتها بشكل كامل، والذي يمد كل احتياجات الدولة، من غير نفقات إضافية أو اضطراب للباب العالي بل يقوم بحمايتها. ومن جهتهم، فإنهم التزموا دائما بالإعتراف بالسادة الكبار كسلاطينهم، وأن يقدموا لهم ولاءهم المعتاد مع الضريبة، واحترام باشواتهم، بل وحتى إسكاتهم والتكفل بهم

وبحاشيتهم، بطريقة ملائمة لمقامهم، وذلك على حسابهم. وكيفما كان، فإن الباشوات يستثنون مستقبلا من أي مساعدة إلا إذا طلب ذلك الديوان العام، ولهم الحرية في التصويت عليهم، وكذلك في طلب إستشارتهم، أو أن مصلحة الباب العالي تتطلب ذلك عند سكوتهم. أما ما عدا ذلك من الأمور، ذات علاقة بالحكومة الجزائرية، فإنها تترك لإشراف الداي وديوانه.

وقد وجدت هذه الاقتراحات قبولا من الباب العالي، وعاد أعضاء الوفد مرتاحا، واعلنوا عن امتيازاتهم الجديدة، واجتمع الديوان الكبير مباشرة للقيام بانتخاب داي من بينهم. وأوجدوا مجموعة قوانين جديدة، وقاموا بوضع عدّة تنظيمات لدعم أفضل وكذا المحافظة على هذا النمط الجديد للحكم. وللمحافظة على هذا فقد ألزموا كل رعاياهم بالقسم، والحرس الأهلي، والبحرية، والتجارة...الخ، فقد تمت تسوية جميع هذه الأمور على قدم المساواة. مع أن المشاجرات الكلامية غالبا ما كانت تحدث بين الباشوات والدايات، حيث يحاول استعادة كل أحد نفوذ السابق، والآخر يحاول القضاء عليه، مما سبب مثل هذه الشكاوي المتكررة، وعدم رضى في البلاط العثماني، وجعلهم يندعون مرارا على مطاوعتهم. وفي سنة 1601 قام الإسبان بمحاولة أخرى تحت قيادة دوريا Doria الأميرال الجنوي، على الجزائر، والتي كانوا محظوظين فيها أكثر من المعتاد، لأن أسطولهم انسحب بسبب الرياح المعاكسة، ومن ثم عادوا من دون خسارة.

وفي عام 1609 طرد عرب الأندلس من اسبانيا، وتدفق عدد كبير منهم إلى الجزائر، وبدون شك فإنهم ساهموا في جعل الأسطول الجزائري مهيبا، وهو ما أصبح عليه فيما بعد مباشرة، وعليه يبدو أنه من المحتمل أن الهجمات المتتالية على مدينتهم حفزهم على دعم أسطولهم.

وقد كان أسطولهم يتكون في 1616 من 40 سفينة ذات حمولة تتراوح بين 200 و400 طن، وسفينة أميرالهم 500 طن. وتنقسم عمارتهم البحرية إلى قسمين، تتكون أحدهما من 18 سفينة، تبحر حتى ميناء ملاقا، والأخرى إلى خليج سانتا ماريا Santa Maria، بين لشبونة و Seville وتتشابك مع كل السفن المسيحية، ويدعون أنهم على صداقة مع كل من الفرنسيين والانجليز، في حين أنهم في حرب مع الأسبان والبرتغاليين.

وأصبح الجزائريون الآن يشكلون خطرا على القوى الأوربية. فالأسبان، هم محل خطر دائم، وأقل قدرة على التعاون معهم، يترجون مساعدة بريطانيا، والبابا، ودول أخرى. وكيفما كان، فإن الفرنسيين هم أول من تجرأ على إظهار أمتعاضهم من السلوك الخوآن لهؤلاء السفلة.

وفي سنة 1617 أرسل السيد Beaulieu لهم بأسطولا قوامه سفينة حربية التي هزمت أسطولهم، واستولت على سفينتين من سفنهم. بينما أغرق أميرالهم سفينة وطاقمه، بدلا من أن يقع في أيدي أعدائه.

وفي 1620 أرسلت عمارة بحرية انجليزية ضد مدينة الجزائر، تحت قيادة السير روبرت مانسل Sir Robert Mansel، غير أننا لم نجد أي أثر

لهذه الحملة، سوى أنها عادت دون أن تحدث شيئا ما، وأصبح الجزائريون أكثر فأكثر تطاولا وبشكل صريح ضد جميع القوى الأوربية، باستثناء الهولنديين الذين وافقوا في عام 1625 أن يقدموا اقتراحا موجها إلى أمير Orange أنهم في حالة وضع 20 سفينة معهم في السنة الموالية، بناء على خدمة ودية ضد الاسبان، فإنهم سينضمون معهم ب 60 سفينة من سفنهم.

وفي السنة الموالية قام الكراغلة (أبناء الأتراك الذين سمح لهم بالزواج بالجزائر) والمسيحيون في الحرس الأهلي، بالإستيلاء على القلعة، وبحلول الظلام أصبحوا سادة المدينة، غير أنهم هوجموا من قبل الأتراك والمرتدين، الذين هزموهم شر هزيمة. ونفذ حكم الإعدام في العديد منهم، ورميت رؤوسهم مكدسة على أسوار المدينة، باستثناء البوابة الشرقية، وأضرمت النار في جزء من القلعة، أما ما تبقى من الكراغلة فقد صرفوا من الحرس الأهلي، الذي منع قبولهم فيه إلى أمد بعيد.

وفي عام 1623 تحرر الجزائريون والدول البربرية الأخرى من تبعيتهم للباب العالي واستقلوا بأنفسهم. وكان سببا لهذه المناسبة هو مرور 25 سنة من الهدنة مع السلطان Amurath. الذي أجبر على ابرامها مع الامبراطور فردناند الثاني Ferdinand II، وذلك للحيلولة دون تفوقه بإعلان حرب ضده وكذا على Sophi الفرس في نفس الوقت، والهدف من وراء ذلك كله هو وضع دقر أمام التجارة القرصانية للجزائريين، وقد تم تنفيذها كما ذكر أعلاه.

وقرروا أن أي يرغب في أن يكون في سلام معهم، لابد، أن يقدم طعن بشكل واضح وعلى انفراد لحكومتهم. ولم تتم الموافقة على هذا القرار إلاّ

بعد مدة، مما جعل الجزائريين يشرعون في حصاد غنائم لسفن تجارية عديدة. تابعة للقوى التي هي في سلم مع الباب العالي.

واستولوا على سفينة هولندية، وبولاكر في الأسكندرون، ووصلوا إلى الساحل فوجدوا المدينة مهجورة من الآغا التركي وسكانها، فنهبوا جميع المخازن والمستودعات وأضرموا النار فيها.

وفي هذه الفترة تعهّد لويس الثالث عشر ببناء قلعة على سواحلهم، بدلا من التي أقامها سابقا أهل مرسيليا، والتي دمروها. وهكذا أكمل انجازها مع بعض الصعوبات وأطلق عليها اسم حصن فرنسا : Bastion of France غير أن الوضعية التي آلت إليها فيما بعد كانت غير ملائمة.

فقد اشترى الفرنسيون ميناء القالة، ونالوا حرية التجارة مع العرب والبربر. فالبلاط العثماني كان في ارتباك شديد مع الحرب الفارسية، وليس له وقت في التحقق من القرصنة الجزائرية في نفس الوقت. وهذا ما أعطى فرصة للصدر الأعظم ودماسق آخرون ليخلطوا الأمور مع الجزائريين، ولكي يحصلوا على نصيبهم من الغنائم، والتي كانت جد معتبرة. ومهما كان، فإنه وجه لهم توبيخاً قاسياً وذلك لسد الخاطر. وكان جوابهم : «أن هذا السلب مستحق لهم لأنهم يعدّون أنفسهم المتراس الوحيد ضد القوى الأوروبية. خاصة ضد الأسبان، الأعداء الألداء لكل من هو مسلم. مضيفين» «أن عليهم أن يدفعوا مقابل شراء السلم وحرية التجارة مع الإمبراطورية العثمانية، وأن يحترموا قيودهم. وإلا فإنهم لن يفعلوا شيئا سوى اضرام النار في كل سفنهم والعودة إلى حياة الحمال »

وفي سنة 1635 دخل أربعة إخوة من عائلة مرموقة إلى فرنسا في مهمة خطرة ميؤوس منها. أنه من الممكن أن ترد في حوليات فروسية موازية وكان هذا أقل ما يقال أنه رد حذر لفرصة الجزائريين على أنفسهم. وبما أنهم آلوا على أنفسهم أنهم سيلقون القبض على كل سفن الأمم من غير تمييز. وعليه فإنهم سيستولون على سفن الجزائريين وذلك بفرقاطة ذات 10 مدافع. وبهذه الصورة المضحكة أبحر (8) متطوع. أعدت لجنة مالطية مع قائد مقتدر و30 بحارة فكان لهم حظ سعيد في خرجتهم الأولى. بغنيمة سفينة محملة بالخمر على الساحل الأسباني. وأخذهم الفرح الشديد والتيه. وبعد ثلاثة أيام التقوا بحمق قرصانيين جزائريتين. أحدهما ذات 20 والثانية بـ 24 مدفعا فقد وجدت هاتين السفينتين وسطهما فرقاطة صغيرة. فكلاهما ذات تنظيم محكم. ويديرهما ضباط أكفاء. فقد استولت هاتين السفينتين الكبيرتين على الفرقاطة الصغيرة وذلك بإطلاق المدافع جميعها من جانب واحد من السفينة في وقت واحد وسرعان ما استولوا على الصاري الأكبر في السفينة وعلى الرغم من ذلك. ييئس الفرنسيون من المقاومة. ولم يستطع القراصنة أخذهم إلا بعد سماع صيحة نيرانهم ووصول حملة سفن جزائرية أخرى. وذلك بعد أن أصبحت السفينة الفرنسية قطعا. وعوقب الفرسان الرواد بشدة على تهورهم بعبودية مريعة. وتم تحرير أنفسهم في عام 1642 مقابل 6000 دولار

الفصل الثالث

الجزائريون يجهزون أسطولا قويا. الذي قضى عليه نهائيا من قبل البندقيين. الجزائر في حالة ارتباك للأخبار. الجزائريون يجهزون اسطولا جديدا. سفينة تجارية هولندية تهزم عددا من سفنهم. لويس الرابع يقوم بتحضيرات ضد الجزائر. قنبلة مدينة الجزائر وإضرام النار فيها من قبل الفرنسيين. الجزائريون يقومون بتخريب واسع في فرنسا. قنبلة مدينتهم من جديد. واضرام النار فيها وتحطيمها تقريبا. إلتماس السلم. القبطان Beach يحرق سبع من سفنهم. طرد الباشا التركي . الحملة الإسبانية لعام 1775.

استمر الجزائريون في قرصنتهم مع أمن العاقبة، مقابل رعب والمعرّة المفضوحة للقوى الأوربية، إلى غاية سنة 1652، وذلك عندما توجه الأسطول الفرنسي عَرَضاً إلى الجزائر، وخطرت فكرة لدى الأميرال الفرنسي بأن يطلب إطلاق سراح جميع أسرى بلاده، دون استثناء، ورفضت هذه الفكرة، وقامت السفينة الفرنسية من غير احتفال. والناقلة للحاكم التركي وقاضيه، اللذان وصلا توا من الباب العالي مع كل طاقمها وحاشيتهما.

وبطريقة انتقامية فاجأ الجزائريون حصن فرنسا المذكور سابقا، ونقلوا ساكنيه المقدر عددهم ب 600 شخص، مع كل أملاكهم المنقولة وأثرت هذه العملية على الأميرال، ومن ثم أرسل لهم كلمة بأنه سيزورهم

في السنة القادمة مع كامل أسطوله. فكان جواب الجزائريين أنهم لا يخشون تهديدات الأميرال الفرنسي، فجهزوا أسطولا من 16 سفينة ومزرابة مجهزة بشكل ممتاز تحت قيادة الأميرال علي بيتشيني.

فالهدف الرئيسي لهذه القوات المسلحة كان ضد خزينة Loretto، والتي حالت الرياح المضادة من الحصول على الهدف. ومن ثم قاموا بالإنزال في Puglia، في مملكة نابولي، حيث دمروا كل مناطق Necotra، حاملين معهم عددا كبيرا من الأسرى، وكان من بينهم راهبات. ومن هناك اتجهوا نحو Dalmatia، ونفضوا الأدرياتيك، وقاموا بنهب واسع، وتركوا تلك السواحل في هلع متناه.

وفي الأخير، رد أهل البندقية على هذا السلب الكبير، بتجهيز 28 سفينة، تحت قيادة الأميرال Capello، مع الأمر بإغراق وحرق كل السفن القرصانية البربارية التي يجدونها، سواء في عرض البحر أو حتى في موانئ الصدر الأعظم، وذلك طبقا لآخر معاهدة سلام مع الباب العالي.

ومن جهة أخرى، فالقبطان باشا، الذي خرج بأسطول تركي لمطاردة السفن الفلورانسية والمالطية خارج الأرخبيل، كان على علم بأن الأسطول الجزائري على مقربة منه، وأرسل له أوامر لمساعدته بسرعة. ذلك أن علي بتشيني، سبق وأن وافق على ذلك، غير أن هدفه الأول كان الانزال على جزيرة Lissa أو Lisina، والتابعة لأهالي البندقية، غير أن Capello لحق به، وعليه أضطر الأول للجوء إلى Valona، وهو ميناء تابع للصدر الأعظم، حيث لاحقه أميرال البندقية، لكن الحاكم التركي رفض إخراج القراصنة طبقا لأحكام معاهدة السلم بين البلاط العثماني والبندقية. مما جعل Capello يكتفي بمراقبتهم مدة زمنية. وقد خشي

بتشيني من الحجز، وغامر بالخروج، ودارت المعركة بين الطرفين حيث انهزم الجزائريون. وأصيبت خمسة من سفنهم، مع فقدانهم 1500 شخص، أتراك ومسيحيين عبيد، إلى جانب 1600 عبيد من الذين استعادوا حريتهم، بعدها، انهزم بتشيني، وعاد إلى volana، حيث كان تحت رقابة capello ، غير أن هذا الأخير لم يبق قائدا لمدة طويلة حتى جاءته رسالة من المجلس التشريعي، يطلبون منه عدم القيام بمحاولة أخرى ضد القراصنة في ذلك الوقت، خوفا من القطيعة مع الباب العالي. وتبع ذلك رسالة من حاكم volana، يطلب منه الحذر والإنسحاب حتى لا يؤدي ذلك إلى غضب السلطان من مثل هذه الإهانات. وقد إضطر البطل البندقي الإذعان للأوامر، مع الابقاء على مراقبة الجزائريين خاصة ما تعلق بإقامة الخيام، وسحب ما سلبوه وعتادهم إلى الساحل. وعليه قام بإطلاق النار على خيمهم، واستمر في ذلك. بينما قامت مجموعة غليوطات وشراعيات ذات تجهيز جيد بهجوم على سفنهم بشجاعة، دون أن تلحق بهم خسارة كبيرة. قاموا بجرّ 16 من سفنهم الشراعية بكل مدافعها، وعتادها...الخ. أطلقت إحدى السفن الشراعية البندقية قذيفة على مسجد تركي، واعتبر ذلك إهانة للباب العالي، ولإخفاء ذلك، أمر Capello بإغراق جميع السفن الجزائرية المحجوزة باستثناء سفينة الأميرال، التي تم اقتيادها إلى البندقية، لتضع هنالك كتذكار للإنتصار. وقد روى Capello ذلك بتأنيب قاس، غير أن البندقيين أجبروا على شراء سلام من الباب العالي بقيمة 500.000 دوقة. وأبدى الباب العالي استعداده لتعويض ما خسره الجزائريون، وذلك ببناء 10 سفن شراعية لهم، شريطة أن يستمروا في خدمته حتى نهاية الصيف الموالي، لكن Pinchin، الذي لا يعرف إلا القليل عن الجزائريين فضلّ الإذعان لعرضه بلطف.

وفي نفس الوقت، وصلت أخبار هذه الهزيمة إلى الجزائر مع الأسى العميق والفوضى. وكانت المدينة على وشك عصيان عام، غير أن الداي وديوانه أصدروا بيانا جاء فيه أنه لا يمنع فقط الشكاوى والاحتجاجات، تحت طائلة أقصى العقوبات، بل أن يمنع جميع الأشخاص مهما كانوا من ذلك.

وبينما كانوا يتداولون عن هذه النقطة الهامة. وفي نفس الوقت، تقدموا بطلب إلى الباب العالي من أنه على البندقيين المتواجدين في شرق البحر المتوسط أن يعوضوا لهم ما خسروه، غير أن الباب العالي رفض الإذعان، وتركهم يعوضون خسارتهم بأنفسهم، كما أنهم أيضا، قاموا ببناء سفن جديدة وبطريقة جد ممتازة حسب قدرتهم. وعلى أي حال، لم يمر وقت طويل، حتى اقتنعوا بفعالية قراصنهم، الذين جلبوا 600 عبدا، جاؤوا بهم من ساحل جزيرة إيسلندة، حيث قام لئيم (كافر) بتوجيههم على متن سفينة دنماركية. لم يبق قراصنتنا في حالة ضعفهم وعدم دفاعهم عن أنفسهم، بل أصبحوا قادرين مع نهاية السنة الثانية، للظهور في البحر بأسطول قوامه 65 سفينة. قام Pinchinin بتجهيز أربع غليوطات على نفقته الخاصة، بالإشتراك مع سكرتير باشا طرابلس، وقام برحلة ثانية. وتضم هذه القطعة البحرية 5 غليوطات وسفينتين شراعيتين، مجهزة كلها تجهيزا جيّداً وببحارة أكفاء، وقد التقوا مع سفينة انجليزية ذات 40 مدفعا. حيث رفض ضباط Pinchinin الخوض معها، غير أنهم

اقتربوا منها بعد ذلك، وكانوا جبناء، وأقسموا فيما بعد أنهم سيهاجمون السفينة المسيحية القامة في طريقهم. وحدث أن التقوا بمركب تجاري هولندي، وعلى متنه 28 مدفعا و40 شخصا ذات حمولة كبيرة، وغير قادرة على استعمال صواريها بسبب هدوء الرياح. أمرها Pinchinin بالاستسلام فورا، لكنه تلقى جوابا تهكميا، عندها صفّف سفنه، عن طريق المجاذيف، في شكل هلال حتى يمكنها أن تطلق النار في وقت واحد على عدوهم. غير أنه في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه لإطلاق النار عليها هبت رياح ساعدت السفينة على تغيير اتجاهها مما أدى بالسفن الجزائرية إلى إرتباك شديد. أما Pinchinin فكان يلاحق بسفينته السفينة التجارية. والتصق بها وقفز 70 جزائريا إليها وبأيديهم سيوف القطلس (سيف قصير ثقيل مقوّس كان يستخدمه البحارة).

البعض منهم قطع حبال الأشرعة، والبعض الآخر أخذ في الذهاب والإياب بين الغرف وبأيديهم قنابل يدوية، أما الهولنديون فقد حصنوا أنفسهم جيدا في حجراتهم المغلقة، وشرعوا في اطلاق النار على الجزائريين من مدفعين صغيرين، مما أدى إلى حدوث مجزرة وسط الجزائريين، الشيئ الذي أدى إلى قتلهم جميعا أو الاستسلام. وفي نفس الوقت قام Pinchinin بعدة محاولات فاشلة لإنقاذ رجاله، وكذا تطويق السفينة الهولندية بغليوطته الأخرى، غير أن تلك السفينة نجت،

وأصبحت تطلق النار على القراصنة. واستمرت السفينة الهولندية بإطلاق وابل من القذائف والقضبان الحديدية، وفي أقل من عشرة دقائق، قتل أكثر من 200 منهم، جرح عدد كبير منهم، ومن بينهم الشيخ أو السكرتير، الذي جرح في بطنه، وسرعان ما توفي بسبب جرحه. انسحبت العمارة البحرية بأقصى سرعة، وعادت إلى الجزائر بحالة بائسة.

لكن بالرغم أن Pinchinin عادت في حالة إنهزام، إلاّ أن بقية الأسطول ألقى القبض على عدد كبير من الأسرى، وكمية معتبرة من الغنائم الثمينة، من بينهم انجليز وفرنسيين وهولنديين، أجبروا للإذلال أمام الجزائريين، الذين يتكرمون، أحيانا، أن يكونوا في سلام معهم. لكنهم أقسموا على خوض حرب أبدية مع اسبانيا، والبرتغال وايطاليا، الذين يعتبرونهم أكبر أعداء الإسلام.

وفي الأخير، آثار لويس الرابع عشر الفضائح المفجعة، التي قام بها الجزائريون على سواحل Languedocو Provence، وأمر عام 1681، بإعداد أسطول معتبر ضدهم، تحت قيادة The Marquis du Quesne، نائب أميرال فرنسا، وكانت حملته الأولى ضد عدد من قراصنة طرابلس الذين كانوا محظوظين بسبب سرعتهم في عملية الجذف. وأنذروا في جزيرة Scio التابعة للأتراك، وبالطبع، لم يمنعه ذلك، من متابعتهم هناك، وأنزل عليهم

وابلا من القذائف مما أدى إلى تدمير 14 من سفنهم، إلى جانب تدمير أسوار القلعة. ولا تبدو هذه القسوة إلاّ كإشارة لمتابعة القراصنة الجزائريين، غير أنه يبدو أنهم لازالوا مستمرين في فضائعهم على السواحل الفرنسية،حيث أبحر إلى الجزائر في شهر أوت 1682، وقصف مدينة الجزائر بشدة، واشتعلت المدينة بكاملها في وقت قصير جدا. وهدم الجامع الكبير، ومعظم المنازل التي أصبحت خرابا، وفرّت الأعداد الكبيرة من سكان المدينة وأصبحت المدينة مهجورة، وفي لحظة ما جاءت رياح عاتية أرغمت Du quesne على العودة إلى طولون Toulon. ومباشرة بعد ذلك انتقم الجزائريون، وذلك بإرسال عدد من الغليوطات والسفن الشراعية إلى سواحل Provence حيث ارتكبوا أعمالا وحشية، وجلبوا معهم عددا كبيرا من الأسرى، عندئذ، أمرت قوات مسلحة جديدة للاستعداد في طولون ومرسيليا، للسنة المقبلة، وتلقى الجزائريون اشعارا بذلك، مما أعطى وقتا كافيا للجزائريين للدفاع عن أنفسهم.

وفي ماي 1683، أرسى Du Quesne وعمارته البحرية قبالة الجزائر، عندما إنضم إليه Marquis d'affranville، على رأس خمسة سفن ضخمة، وتم الإتفاق على قنبلة المدينة في اليوم الموالي. وعليه تم رمي المدينة ب 100 قنبلة في اليوم الأول، التي أحدثت الرعب والهلع في المدينة. وبينما كان الحصار جاريا أطلقت مئات من القنابل دون أن تحدث ضررا معتبرا، وفي الليلة الموالية، تلقت المدينة عددا من القذائف التي دمرت قصر الداي وعدة مباني أخرى، كما أصيب عدد من مدافعهم وأغرق عدد من

سفنهم في الميناء، وقام الداي والباشا التركي، وكذا الجيش كله، وجنحوا للسلم على الفور بعد الدمار الرهيب، وكان الشرط الأساسي لقبول السلم مع الداي،تحرير كافة الأسرى المسيحيين الذين تم أسرهم في وهم تحت الآخرين المزعين العلم الفرنسي، وعددهم 142، حيث أطلق سراحهم فورا. مع تعهد بأن يرسل إليه البقية الموزعون داخل البلاد بعد جمعهم ومن ثم، أرسل Du Quesne، رئيس دائرة لوازم الجيش، ومهندسيه إلى المدينة، لكن بأوامر مستعجلة بإطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين دون استثناء، إلى جانب ممتلكاتهم الشخصية التي أخذت منهم.

على أن يقدم الداي كرهائن، الأميرال Mezomorto والرايس Hali، أحد ضباطهم. وقد إنزعج الداي للطلب الأخير، مما جعله يجمع ديوانه ليعرفهم على الموضوع، وعليه ثارت ثائرة Mezomorto ورد على المجلس أن جبن هؤلاء الأشخاص الجالسين على سدة الحكم قد تسببوا في تدمير الجزائر. وأكد من جانبه أنه لن يوافق إطلاقا على تسليم أي شيئ مما أخذ من الفرنسيين.

ومباشرة بعد ذلك أخبر الجند ما حصل، مما أثار غضبهم، وعليه قتلوا الداي في تلك الليلة، وفي الصباح تم اختيار Mezomorto مكانه.

وفي الوقت ذاته، ألغى جميع بنوداتفاق السلام التي تم ابرامها مع Du Quesne وتجددت الحرب بشراسة أكثر من ذي قبل.

استمر الأميرال الفرنسي في صب غضبه بوابل من القذائف، مما جعل الجزء الأكبر من المدينة يصبح رمادا في أقل من ثلاثة أيام من شدة النيران المشتعلة، التي أنارت البحر لمسافة تزيد عن ستة أميال دائرية. لم يتأثر Mezomorto تماما رغم هذه الكوارث وعدد القتلى، حيث تجري دماؤهم في جداول على طول الأنهج، وقد زاد ذلك غضبا ويأسا. ولم يكن يسعى سوى إلى كيفية الإنتقام من العدو، ولم يكن راضيا مما سببه الفرنسيون للمدينة وكيف يصبح قاسيَ القلب قتالا وأمر بإحضار قنصلهم مقيد اليدين والرجلين وثبت حياً في فوهة المدفع، ومنه أطلق المدفع ضد أسطولهم، وبهذا العمل غير الإنساني قرر Du Quesne ألاّ يترك المدينة إلا بعد تدمير كامل قلاعها، وسفنها، والجزء الأسفل من المدينة، وثلثين من الجزء العلوي للمدينة بمعنى أن تصبح المدينة عبارة عن كوم من الخراب.

اقتنع الجزائريون المتعجرفون، الآن، أنهم لم يكونوا في منأى بعدها وقاموا بإرسال بعثة إلى فرنسا، يطلبون شروطا معظمها مذلة، لغرض السلم، التي منحها إياهم لويس مباشرة، والتي كانت فرحتهم بها بصفة يعجز اللسان عن التعبير عنها.

بدأوا الآن يقدمون إحتراما لبعض الدول الأخرى. وأكثر حذرا في التعامل مع الغير. فالقصف الأول من الفرنسيين أذل الجزائريين كثيرا.

وقد تنازل الجزائريون في الدخول في معاهدة مع انجلترا، والتي جددت بناء على شروط جد مرضية للطرف الأخير وذلك في سنة 1661.

ولم يكن يفترض، على أي حال، ولم يكن من الطبيعي اختفاء غدر الجزائريين فجأة، على الرغم من أن هذه المعاهدة لم تترك فرصة للقيام بغنائم من سفن انجليزية عندما تتاح لهم الفرصة. وبناء على بعض التجاوزات من هذا القبيل، فإن القبطان Beach استطاع أن يبعدهم إلى الشاطئ ويحرق سبعة من فرغاطاتهم في عام 1695، مما أدى إلى تجديد المعاهدة بعد خمس سنوات : لكن لم يتم ذلك إلا بعد الاستيلاء على جبل طارق وميناء ماهون Mahon، وهو الشيئ الذي جعل بريطانيا تتحكم فيهما بما فيه الكفاية لتشديد رقابتها للمعاهدات، ويثبت ذلك مدى احترام الجزائر للإنجليز أكثر من أي قوة أوربية أخرى.

إن القرن الحالي، لا يقدم لنا سوى أحداثا قليلة الأهمية فيما يتعلق بالجزائر. ففي سنة 1708 تم استرداد مدينة وهران الشهيرة من الأسبان والتي إحتلوها من جديد في 1710، وأبعد الباشا التركي، وتضامن معه مجلسه، وهذا ما أدى إلى إدخال شكل تنظيم جديد واستمر في الجزائر.

وفي عام 1775 قام الأسبان بإنزال آخر على مدينة الجزائر. فقاموا بتجهيز أسطول ضخم في تلك السنة مكونا من ستة سفن قبق، واثني عشرة فرغاطة، وتسعة شباك، و24 من السفن الأخرى المسلحة بقيادة Don Pedro de Castijon، وعلى متنها جميعا 24.447 شخص بما فيهم المشاة، الخيالة، الفرسان، رجال المدفعية، والبحارة، و600 من الفارين كعمال، وجميعهم تحت قيادة الجنرال الكوند Conde de O'reilly الشخص المفضل لملك اسبانيا الأخير.

إضافة إلى 176 قطعة مدفعية، ومدافع هاون، ومدافع قوس (مدفع قصير لقذف القنابل بخط منحنى عال) مع كمية معتبرة من العتاد البحري، للحرب البرية.

تفاءل الأسبان بنجاح حملتهم، وأقيم احتفال حضره كبار المسؤولين في كنيسة القديس سان فرانسيسكو St Francisco، على شرف مفهوم الصفوية. راعية النعمة لكل الاسبان. متضرعين لها حمايتهم، وانتصار جيوش الملك، بعدها تقدم O'Reilly بخطاب.

وفي 23 من شهر جوان أقلع الأسطول من ميناء قرطاجنة في أسبانيا، وأرسى في خليج الجزائر في غرة جويلية. ولاحظوا معسكرا كبيرا، وضع وراء بطارية، شرق الوادي الصغير الحراش، الذي يقع شرقي المدينة، والعديد من الخيالة العرب على جانب الشاطئ. وفي اليوم الثاني من جويلية انعقد مجلس كبار الضباط، وأعطيت الأوامر للجنود ليكونوا على استعداد للنزول برا في صباح اليوم الموالي عند طلوع النهار. لكن بما أن الليلة الموالية شهدت رياحا وارتفاعا في الأمواج، أبطلت هذه الأوامر. وابتداء من هذا اليوم وإلى غاية السادس منه كانت نشاطات متقطعة. وعقدت جلسات متكررة مما أدى إلى بروز استياء وغضب، ونزاع حاد بين O'reilly واللواء رومانا Romana، اسباني ذو طبع طموح، والذي يبدو أنه أفشل إجراءات القيادة العامة.

وفي 6 اجتمع الضباط الرئيسيون ثانية لتلقى التعليمات النهائية وذلك عندما صدرت أوامر الثاني من جويلية والتي طلب تطبيقها بفعالية،

رغم أنها أساءت إلى الضباط بصفة عامة، وذلك بتوزيع عقوبات صارمة مقابل الإهمال الطفيف. وأوصى القائد العام في هذه الأوامر عدم مخالفة أوامره. وذلك قصد توحيد القوة والتنخليم اللذان يضمنان لهم النجاح ضد عدو ذا فعالية وخبرة في حرب متقطعة. وحذرهم بالخصوص بفعالية المور، الذين يفتعلون هجوما عنيفا، بعدها يفرون بسرعة مقابل مقاومة بسيطة. وذلك كله من أجل استدراج عدوهم إلى كمين.

غير أنه أشار إليهم، (أي الضباط) إلى الخطأ الكبير الذي ارتكبوه وإلى الفخ الذي وقعوا فيه.

وعند نزولهم إلى اليابسة، أمر كل لواء أن يشكل صفا من سرية في الامام مكونة من 6 ونصف السرية من الحراس، ووجههم باستيلاء على بعض المرتفعات التي يفترض أنها ضرورية لضمان النجاح ضد المدينة.

تم ترتيب المسيرة على أن تكون هناك أربعة صفوف، على أن يتقدم جنود المشاة ويجب أن يكون على مجنبّات الجيش وفي كل صف أربع قطع ميدانية في الأمام، ويزداد عددها كلما استدعت الضرورة ذلك : على أن يتشكل حصنان صغيران في موقع الإنزال، وأن يبقى الاتصال بين الجيش، وبين الحصون والأسطول. وفي ظهر 6 من الشهر، أعطيت أوامر لبعض السفن الحربية بإطلاق النار على ثلاث بطاريات شرقي العاصمة. غير أن هذه السفن كانت على مسافة بعيدة خوفا من رد فعل البطاريات الجزائرية، ومن ثم لم تصل قذائفها إلى الشاطئ، وأصيبت سفينتا سان جوزيف، وسفينة ذات 74 مدفعا، بعطب من العدو. ومع غروب الشمس توقف هذا الهجوم الحذر. وفي السابع من الشهر، ومع طلوع النهار

جهزت مراكب وعلى متنها بين 8.000-9.000 رجل للإنزال. واقتربوا جدا من الشاطئ. أي بحوالي ميل نحو غرب وادي الحراش، في ظل حماية سبع غليوطات، ومركبين طويلين يزن مدفع كل منهما 12 رطلا. ولم يظهر أي شخص من الأهالي للوقوف ضد إنزالهم. وعلى السابعة صباحا عادوا إلى مراكب النقل، ولم تطلق أية طلقة نارية من كلا الجانبين في طوال اليوم وعليه صدرت أوامر لسفن النقل الطويلة بنقل الجنود الأسبان والاستعداد عند طلوع النهار في الصباح الموالي. وفي الثامن من الشهر ومع طلوع الفجر تموقعت السفن لدك مختلف القلاع الواقعة يمينا ويسارا على موقع الإنزال، وشكل 8000 جندي الموجودين على ظهر السفن 6 صفوف، وفي مقدمة كل صف الرماة، تتقدمهم مراكب صغيرة مسلحة، وغليوطات... الخ. لحماية نزولهم. وبدأ إطلاق النار من السفن وتوجه الجنود إلى موقع الإنزال حيث نفذوا عملية الإنزال (حوالي فرسخ نحو شرق المدينة) وظهر أثناء فترة إطلاق النار لحماية عملية الانزال 80.000 من الأهالي، ثلثهم من الخيالة بقيادة باي قسنطينة، لكنهم لم يحاولوا صد إنزال القوات الاسبانية، وفي نفس الوقت بقي الأتراك للدفاع عن المدينة، ولم يظهر أحد منهم للدفاع عن الأرض المتنازع عليها. قيل أن العدد الاجمالي للأفارقة الذين جمعوا في هذه المناسبة لا يقل عن 150.000 ألف شخص، منهم 100.000 من الفرسان، في حين قام 8000 إسباني بنزول إلى الشاطئ بشكل جيد، وشكلوا 6 صفوف، وطبقا للأوامر، قسمت السفن العسكرية يمينا ويسارا، لتغطية أجنحة الجيش. عادت المراكب لنقل ما تبقى من الجيش على الشاطئ لكل الحملة. ولم يتمكن جيش

الإنزال الأول من تنظيم نفسه إلا بصعوبة، وذلك بسبب ظهور مفرزة العدو أمامهم. غير أنهم فروا وبفوضى عندما لاحظوا تحرك الاسبان نحوهم. وعندما تقدم الجنود إلى الأمام وذلك بدق الطبول، يتقدمهم المتطوعون من آراڨون وكاتالونيا. حتى اقتربوا من المدينة، التي يحتل العدو جزء منها، غير أنهم تمركزوا في خنادق وقلاع ممتازة، مما جعلهم يلحقون أضرارا فادحة بالإسبان، دون أن يتلقوا أي أذى بالمقابل.

عاد الجنود الاسبان الحاملين للرماة على أعقابهم خاسرين. وفي هذه الحالة الحرجة عززوا أنفسهم بقوات من جيش الإنزال الأول، وبعض المدافع الثقيلة التي نصبت لحماية تقدمهم، حاولوا التقدم مرة ثانية نحو مساحات وجهوا لها مدافعهم الثقيلة غير أنهم لم يتمكنوا من خلخلة العدو. وسقط عدد كبير من الاسبان من غير احراز أية نتيجة، مما أدى بكل الطاقم أن يقع في ارتباك.

لم يكن حماس وجرأة الضباط كافيان لاحتواء غضب الجنود،لقد تقدم البعض وتأخر الآخرون، بطريقة مشوشة، وفسروا ذلك بطريقة ملائمة، دون مراعاة أوامر ضباطهم. وبينما كانوا في هذه الحالة الصعبة، اندفعت الجمال لتنتشر من جهتهم اليسرى، يقوم بتوجيهها بعض الأهالي، مع إطلاق النار على عدوهم.

وقعت مجزرة كبيرة وسط الأسبان، وأثناء هذا الخطر العظيم سمعت صيحات الأسبان الذين قطعت رؤوسهم من طرف الفرسان الجزائريين، وتلتها فوضى عارمة، وفرّت الإسبان الجنود جميعا وذلك

باندفاع قوي، تاركين في ميدان المعركة عددا ضخما من الجرحى، واضطروا لترك جرحاهم تحت رحمة عدوهم.

وأثناء هذه الفترة شكل عمال وجنود الإنزال الثالث خنادق، التي سبق لهم وأن قاموا بتحصينها بثلاثة أرباع أرطال، والتي أدت إلى عدد كبير من الموتى، وفي نفس الوقت، قام ضباط توسكانا بسحب فرقاطتهم نحو الشاطئ، وقاموا بتوجيه نيران مدافعهم بشكل جيد، كما أن الإسبان استطاعوا أن يقوموا بعملية انسحاب ناجحة إلى خنادقهم، والتي لم تكن كافية لإخفاء جنودهم. وفي هذه الوضعية المكتظة كانوا قلقين جدا جراء 36 رطل الموجهة من بطاريات العدو، إضافة إلى النار التي تطلق من حصن الحراش والتي كانت مصدر الأذى.

لقد هاجموهم في خنادقهم، لكنهم ردوا على أعقابهم بخسارة كبرى، وأمام هذه الحالة بقي الإسبان حتى نزول الليل، حيث سارعوا إلى العودة إلى سفنهم باضطراب وارتباك شديدين. لكن ما تم اكتشافه هو جهل الأهالي، وعدم استغلالهم الفرصة التي اتيحت لهم لتحقيق نصر كامل.

ما يثبت خسارة الاسبان في هذه المناسبة. هو تأكيد قتل 27 ضابطا، و191 جريحا، وقتل 501 نفر، وجرح 2088. وقتل Romana Marquis على رأس لوائه عند بدء المعركة. وقيل أن عدد قتلى الأهالي يتراوح بين 5000–6000 قتيل، ونفس العدد مجروحين غير أن ذلك يبدو غير مرجح الحدوث أو غير صحيح*. لقد قدمت الحكومة الجزائرية

جائزة عشرة سكون لكل رأس إسباني، وكذلك الجرحى الاسبان، الذين تركوا في ميدان المعركة، فقد قتلوا جميعا.

لقد ترك الغزاة التعساء وراءهم عند انسحابهم، 15 قطعة مدفعية، ثلاثة مدافع قذافة، وكمية كبيرة من الأسلحة الصغيرة والذخيرة.

وفي 12 جويلية، أبحرت الجيوش والجزء الأكبر من الأسطول عائدين إلى أسبانيا. وهكذا تنتهي هذه الحملة الوهمية. إذ قدم عريف اسباني تفاصيل إلى زوجته، يقول ضاحكا «كنا نسيطر على شاطئ وكأننا نشرب القهوة مع الأهالي».

وعندما أعلنت المعلومات السوداء لفشل هذه الحملة، والتي شكلت منها الدولة الاسبانية مثل هذه الآمال الدموية الناجحة. أما الإحساس الوطني فلم يكن مباليا لما حصل.

أما O'reilly فكان بسبب تلك النتيجة ممقوتا من الإسبان، حيث احتشدت الجماهير على طول طريق أليكانت لإشفاء غليلها وانتقامها منه. فقد أوقفت العديد من المراكب حتى لا يختفي O'reilly الأعرج، وقد أخرجوا الناس وجعلوهم يمشون أمامهم لمعرفة O'reilly. وكان لحرية الصحافة المنتشرة في العالم جعلت تعرف الإحساس الوطني الاسباني في هذه المناسبة. وقد هدد الملك محسوبه برؤيته مرة ثانية في البلاط وهدأ من شغب السكان وسرعان ما أبعد O'reilly من منصب حاكم مدريد.

---

* إن العدد المشار إليه أعلاه مقبول لدى جرائد البلاط الاسباني (حيث نادرا ما يتوفر الحقيقة)، وإنما تتفق مع بيان Dalrymble، الذي صرح أن ذلك ينطبق مع ما جاء في رسالة من الجزائر. غير أن كتاب آخرين أشاروا أن الخسارة الاسبانية هي أكثر بكثير، وأنه يتضح على الأقل أن خسارة الطرفين متقاربة، خاصة أن الاسبان قتلوا من أهمية (الأهالي)

ومنذ فشل هذه الحملة لم يحاول الاسبان القيام بحملات أخرى ضد الجزائر. وقام الاسبان في سنتي ١٧٨٣ – ١٧٨٤ بحملتين مجددتين بحريتين للقضاء على المدينة والسفن الحربية، كبيرة ذات المجانيق، غير أنه بعد استخدامهم لكمية كبيرة من الذخيرة وخسائر جسيمة، تم الانسحاب من غير الاستيلاء عليها أو القضاء عليها.

الفصل الرابع

الجزائريون يشرعون بنهب على التجارة الأمريكية. إلقاء القبض على القبطان O'Brien و Stephens. هدنة مع البرتغال. الاستيلاء على إحدى عشرة سفينة أمريكية، وجعل طواقمها عبيدا. معاملاتهم ومعاناتهم. العقيد Humphreys والسيد Donaldson يوفدان للتفاوض مع الجزائريين. السيد Barlow يرسل إلى الدول البربارية. السيد Donaldson لإبرام معاهدة مع الجزائر. القبطان O'Brien يرسل ومعه 225.000 دولار للداي. يؤسر من قرصانه طرابلسية. يطلق سراحه ويصل الجزائر. يتفاوض مع طرابلس. غزو الأراضي التونسية. تحرير الأسرى الأمريكان، معركة يائسة بين قرصانة جزائرية وفرقاطتين نابوليتين. حوادث شتى. تقرير كاتب الدولة للخارجية.

بعد ترسيخ الاستقلال الأمريكي، وعندما تخلت تبعية تجربتها على الأمة الانجليزية، وكان ذلك نتيجة طبيعية أن التجارة الأمريكية يجب أن تضحي أمام نهب القرصنة الجزائرية، وكان بدون شك أن ذلك ناجم عن مكائد مجلس الوزراء البريطاني الذي لم يعجبه تحريرنا حديثا، ذلك أن مزاجهم العدائي سرعان ما ظهر. وقد تزامنت حالات عديدة لجعلهم أهدافا مرغوبة فيها من جشع القرصنة. فأمريكا تقع على مسافة تزيد عن ثلاثة آلاف ميل من مسرح قرصنتهم، وبما أن أمريكا لم تجد قوة بحرية تدعمها فقد استطاعوا الاستمرار في نهبهم والإفلات من لعقوبة.

إن تجارتها الواسعة مع أوربا تمثل إغراء كبير للقرصان، الذين يدركون جيدا أن منع اعتقاداتهم يتطلب تسلحا بحريا يفوق بكثير الفوائد الموجودة فعلا والتي يمكن الحصول عليها في محاولة منهم تقليص خضوعهم. ومهما يكن، وبدون وسائل عويصة، فإن القوة البحرية للولايات المتحدة، ومع القيادات الرشيدة، التي تثبت جدارتها بالإمكان القضاء على أسطولهم، إن لم يكن ذلك ممكنا بالقضاء على مدينتهم.

وطبقا للمعلومات الموثوق بها، فإن أسطولهم في الوقت الراهن لا قيمة له إطلاقا، وأن العديد من الأسرى الأمريكيين متفقون بالتأكيد، أن أسطول هذه الأيالة لا تتعدى سفنه في عام 1796 خمس فرقاطات، وإثنان من المراكب ذات ثلاث سوار ونصف الغليوطة ، إنها قوة ليس لها وسائل المنافسة للقوة الأمريكية التي يمكن اعدادها في الولايات المتحدة. لكن أن تأتي جميع سفن الحرب الأمريكية لمعركة واحدة فذلك لا يخدم الغرض المقصود منه، ومهما كان فإن هذه القوات المسلحة المعادية تجوب البحر المتوسط وسرعان ما تفر إلى مدافعها في قلاعهم.

وعندما نفكر مليا في التشجيع الخاص للقيام بالسلب والنهب على تجارتنا، فإنه يبدو أمرا غريبا أننا عانينا القليل من الكثير. ونحن مدينون لهذا الأمان، إلى حد كبير، إلى الحروب التي كانت بين الجزائريين، والبرتغاليين والهولنديين، وذلك عندما شرعوا في تدمير تجارتنا، وبالأحرى فإن أي من القوى الكبرى تفوق قوة القراصنة بإمكانها أن تحرس مدخل البحر المتوسط لحماية تجارتها الخاصة بها، ومن ثم فإن القراصنة لا يستطيعون النفاذ إلى المحيط الأطلسي إلا نادرا.

وقد كانت السفن الأمريكية آنذاك، تغامر من حين لآخر لاجتياز المضيقين وغالبا ما تمرّ بسلامة، وذلك إما عن طريق شراء جوازات متوسطية عادية أو مزورة. وعلى الرغم من الحذر الشديد الذي تضطلع به البرتغال عند المضيقين وأحيانا يتسلل الجزائريون إلى المحيط الأطلسي. وأثناء إحدى الجولات التي حدثت عندما أمر الأسطول البرتغالي، بعدئذ، بحملة سرية ضد الجزائريين، ثمّ إلقاء القبض على سفينة maria، بقيادة Stephens والتابعة إلى السيد Foster من بوسطن. من قبل قرصان جزائري قبالة خليج سان فانسان ST. Vincents. في 25 جويلية 11785، وبعد خمسة أيام، ألقي القبض على سفينة Dolphin. بقيادة O'Brien والتابعة للسادة Irvins من فيلادلفيا بحوالي 150 فرسخا غربي لشبونة. ويوجد على ظهر هاتين السفينتين 21 شخصا مع حمولتيهما، نقلوا كلهم إلى مدينة الجزائر. حيث أصبحوا عبيدا.

ومع نهاية سنة 1793، وقعت هدنة بين بلاط لشبونة وإيّالة الجزائر، لمدة سنة، ونتيجة لذلك، إجتازت 9 سفن جزائرية مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي.

واستمرت في الطوفان لتستقر بين خليج سان فانسان والجزر الغربية، حيث استمرت في الجولان للجزء الأكبر من فصل الشتاء، وهذا خلافا لعادتهم السابقة حيث كانوا يعودون من الأطلس في شهر نوفمبر.

ونتيجة لهذه الهدنة، قدّم البلاطين للشبونة ومدريد مجموعة سفن لتواكب السفن الأمريكية المتجهة نحو الوطن، وذلك إلى مناطق ما حيث تكون هذه السفن آمنة من القراصنة.

وفي 18 أكتوبر 1793، وعلى بعد خمسة فراسخ من جبل طارق كان القبطان John M'Slane على متن Minerva، وعلى مقربة منه شباك جزائري يحمل 20 مدفعا، بدأ يطلق النار باستمرار وبأسلحة بسيطة حتى اقترب من عارضة شراع السفينة الأمريكية عندها توقفت النيران، ونزل القرصان وبأيديهم سيوف. وأصبح الطاقم الأمريكي أسيرا، وانتزعت منهم ثيابهم ووضعوهم في شباكهم، التي حملتهم إلى الجزائر، حيث وصلوها يوم 30 أكتوبر. وحال وصولهم نقلوا وقدموا أمام الداي وبعد الفحص، صدر أمر بأخذهم إلى السجن، حيث يتواجد الأسرى وقضوا تلك الليلة هناك.

وفي اليوم الموالي قيدوا بسلاسل حديدية، ووزن كل سلسلة قرابة 40 رطلا. وتمتد هذه السلاسل من الأرجل إلى مفاصل الورك، بعدها أرسلوا إلى البحرية حيث يعملون في الأعمال الشاقة من طلوع الشمس إلى غروبها.

وفي 23 أكتوبر، إكتشف William Penrose قبطان السفينة President من فيلادلفيا، في حدود التاسعة صباحا، سفينة متجهة نحو مهب الريح تندفع نحوه، وظن من معه، أن السفينة إسبانية الجنسية، غير أنهم سرعان ما اكتشفوا الخديعة، وبأنها سفينة قرصانية جزائرية. ومباشرة بعد اكتشاف أن السفينة أمريكية الجنسية، بعد معرفة علمها، انقض على السفينة الأمريكية 30 مسلحا ببنادق وسيوف قصيرة استعملوها بقسوة عند نزولهم على متن السفينة، وكانت أول تحية

تلقاها القبطان ضربة عنيفة بالقطلس، بعد أن أجبر الجميع على القفز إلى مركبهم، دون السماح لهم بالنزول إلى الأسفل لأخذ ملابسهم والحاجات الضرورية. بعد أن ذلك نقل الطاقم في السفينة المطوفة، حيث جردوا من ملابسهم. وقدم لهم مقابل ذلك أسمال بالية. والتي لم تكن كافية لوقايتهم من حرارة الشمس ولا حمايتهم من البرد.

وأمام هذه الوضعية كانوا مجبرين على البقاء على ظهر المركب، حيث عانوا كثيرا من الحرمان والجور وقسوة فصل الشتاء. لقد أخبرنا القبطان Penrose أنه أجبر على البقاء في مؤخرة السفينة، حيث كان معرضا للهلاك بسبب شدة الرياح الشرقية الشمالية، مع العلم أنه رجل مسن، وهو أكثر عطفا وشفقة من غيره، وقد زود ببطانية، أما المؤن التي كانت تقدم لهم فكانت خبزا أسود وماء، وأحيانا حبات من الزيتون الفاسد، والتي كان ينظر إليها أنها لذيذة المذاق. واستمروا في هذه الوضعية شبه البائسة ثمانية أيام ليصلوا إلى الجزائر في 30 أكتوبر. وهناك تعرضوا لسلسة جديدة من التعاسة. فقد ظنوا أنهم تعرضوا لما فيه الكفاية من القسوة على ظهر السفينة، غير أنهم وجدوا من القسوة في اليابسة أكثر، وكانوا يشغلون على الشاطئ وفي أرجلهم سلاسل حديدية، مع الأعمال الشاقة وكأنهم مجرمين.

لقد بلغ عدد الأسرى الأمريكيين الآن 130، وكان من بينهم القبطانين Stephens وO'Brien، وانخفض عدد الطواقم بعشرة أشخاص بسبب وباء الطاعون، وقسوة معاملاتهم طيلة ثماني سنوات. وقد تلقوا من قبل

علاوة صغيرة من الولايات المتحدة ولم تكن كافية سوى ثلاثة أشهر.ولم يكن مورد رزقهم سوى خبز أسود وماء وأحيانا لاشيئ.

واستولى الجزائريون في خرجتهم في أكتوبر على 10 سفن أمريكية، وصلت تسعة منها إلى ميناء الجزائر بسلامة في 30 أكتوبر حيث رست تحت زغاريد السكان*.

تشجع القراصنة الجزائريون بنجاحهم في خرجتهم الأولى واستعدوا للإبحار لاستئناف نشاطهم، في حين كان الآخرون يقومون بإعداد سفنهم في الميناء بأقصى سرعة. غير أن هؤلاء اللؤماء ألقوا القبض على سفينة أمريكية واحدة، وذلك بعد شهر تقريبا، وكانت تخص Ingraham Joseph، وقد كان الأمريكيون شديدي الحذر من الاقتراب من مجال شراستهم، وبعد هذا الأسر، لم يلتقوا بأي سفينة أمريكية، لكن تلك السفن كانت محمية بمجموعة سفن ترافقها.

بعد هذه الأحداث، خضع الأسرى الأمريكيون إلى سلسلة من التعاسة التي تخجل الإنسانية من ذكرها. ومباشرة بعد وصولهم إلى الجزائر، تجهوا فورا إلى قصر الداي ووضعوا في طابور طويل، خلف القصر، لاجتياز اختبار قاس، حضر الداي ومعه طباخه (الطاهي) مر، وأعاد المرور أمامهم، وكان جد مسرور، لمثولهم أمامه. اختار منهم عددا

---

*أسماء ضباط السفن الأمريكية وإقامتهم في أمريكا:

Hampshire ;Tylor، Rhode Island؛ Newman، Boston؛ Captain Wallace، Virginia Bailey، Newburry ;Burnham، New york؛ Calder، Gloucester؛ Furnacc، New .Penrose, Philadelphia;M.Shane,Philadelphia ;Mose,ditto؛

من الغلمان والأصغر سناً لاستعمالهم في قصره في مختلف الوظائف، وبصفة عامة وظائف تليق بالعبيد.

أسند إلى بعضهم مهمة تنظيف الغرف، وإلى البعض الآخر غسيل الثياب، وإلى آخرين مهمة خدمة الداي والإعتناء بحجرة ملابسه.

انصرف بقية الأسرى، بينما كانوا ينصرفون من الحضرة الملكية، خاطبهم الداي قائلا، «اذهبوا الآن يا كلاب وكولوا الحجارة». بعدها تمت مرافقتهم إلى سجن البايليك حيث يقيمون في مختلف الغرف وسط الأسرى القدماء، وزود كل أسير ببطانيتين خشنة النسيج لسريره. ترك الأسرى في هذه المنطقة الكئيبة من التعاسة والقهر، وسط خشخشة السلاسل وصراخ آلام الإنسانية، فالمشهد الكئيب الذي يمثل نفسه يعصر القلب بإحساس مؤثرة للكرب والقنوط.

وفي حوالي منتصف الليل، استيقظ بصراخ الحارس ارفعوا ايديكم. دخل الحارس إلى جميع الغرف ووضع في كل رجل سلسلة تزن ما بين 30 و40 رطلا.

وفي اليوم الموالي ومع طلوع النهار أمروا بالتوجه إلى البحرية، وذلك تبعا للذين نادوا بأسمائهم، من أجل القيام بتفريغ حمولات سفنهم، التي تتضمن القمح، والطحين، والخمر والسكر ومواد أخرى. فكان عملهم في البحرية يخص بصفة عامة تجهيزات وتركيبات السفن المطوفة، كما أنهم ملزمون بحمل السلاسل عند إرساء سفن أجنبية

لتفريغ حمولاتها، وترك السلاسل يعني الفرار، غير أنه في حالات نادرة ما يسمح لهم بعدم استعمالها باستثناء أولئك المشاغبين أو لسوء السيرة.

ويطلقون على الساعة الرابعة بعد ظهر العصر، حيث يرفع علم أبيض في تلك الساعة على أعالي كل مساجد المدينة، كعلامة للمواطنين للإنصراف من عملهم ليذهبوا إلى الصلاة، وفي هذه الساعة يتوقف الأسرى عن العمل، ويسمح لهم بالذهاب إلى الشاطئ، غير أنه إذا استدعي طارئ هام فإنهم يظلون في هذه الحالة يعملون إلى غروب الشمس.

وحالما يؤمرون عند الشاطئ يزودون بأدوات لنقل الحجارة من المرفأ إلى الجامع الكبير. وتتشكل هذه الأدوات من قطع خشبية صلبة، تدعى Burrils بحيث ترفع فوقها الأحجار، والأخشاب والمدافع أو أي شيئ آخر ضروري لنقله حيث تعلق مؤقتا في الأسفل بحبال تحمل على أكتاف أربعة أشخاص، الذين يعينون على حمل Burrils. فالحملة الخاصة غالبا ما تخصص لهم، سواء كان الحامل ضعيفا أو قويا، فالأمر سيان. بل يجبرون على حمل كل ما هو ثقيل دون مراعاة لجسم الحامل. فالأشخاص الأقوياء في بنية أجسامهم يحتملون العبء الثقيل، أما أولئك الضعفاء فلا يستطيعون تحمل ذلك وعليه غالبا ما يحدث، أن العديد من الأشخاص يرهقون بذلك وتكون النتيجة فقدانهم للبصر أو يصابون بجروح خطيرة في أجسامهم.

وعندما تكون عملية ثقل Burrils جاهزة لنقلها، يقوم مراقب الداي، الذي يتواجد في ميناء البحر، يلوّح صولجانه بيديه كإشارة للعبيد للتقدم إلى الميناء، حيث يفحصون من قبل مراقبي البحرية، لغرض اكتشاف ما إذا كانوا قد سرقوا أية أدوات خاصة من السفن. بعد هذا الفحص يسمح لهم بالمرور مع حمولتهم، التي يضعونها في الجامع الجديد. بعدها ينسحبون بأدواتهم إلى مقراتهم الخاصة، فالبعض منهم يتجه نحو سجن البايلك، والآخرون إلى سجن الجذافين، حيث ينادي موظفي السجون على أسمائهم، كل واحد باسمه. ويتلقى كل أسير أثناء مروره بالمناداة رغيف خبز أسود لعشائه. وأحيانا يجبرون على النوم في الأرض، غير أنهم سرعان ما يقيمون لأنفسهم نوع من الهياكل الخشبية، تشبه الأرجوحة الشبكية المعلقة فوق بعضها البعض، ويضعون فوقها ثيابهم وبطاناتهم وذلك عند استراحتهم، غير أنها تضيف ذلك إلى تعاستهم، فنومهم كان متقطعا بشكل متواصل بسبب عدد غير محدود من الحشرات الضارة التي تمتلئ بها هذه السجون. وفي الصباح الباكر يذهبون ثانية مع Burills إلى البحرية، وعند وصولهم تتم المناداة باسم كل واحد، وبهذه الطريقة يشغلون بشكل دائم وذلك عندما يقتضي تجهيز القرصنة الجزائرية.

وعلى أي حال، فإن العديد من الأسرى تم توزيعهم في أقسام مختلفة فالبعض منهم أرسل إلى الريف، وعندما يكون البحر هادئا وتستدعي الحاجة إلى عملهم يرسلون إلى البحرية. ويعمل العدد الأكبر

منهم في نقل الحجارة من جبل يسمى باب الوادي، حوالي فرسخ من المدينة، وذلك لغرض الدفاع عن المرفأ من اندفاع الأمواج تجلب هذه الأحجار من قبل العبيد من صخور ضخمة والمتواجدة في هذا الجبل الصخري، حيث يصل قطر بعضها بين 12 و15 قدما ولنقلها بطريقة ملائمة نحو البحر، فإن العبيد يحتاجون في ذلك إلى زمن يفوق سنة كاملة، وهذا يحتاج إلى إيجاد ممر من خلال هضبة ضخمة، لجعلها تتحرك وتنقل إلى البحر، حيث يشكلون مرفأ كبيرا أو صغيرا لحماية مراكبهم الخاصة بالنقل Their Pantoons، من شدة الأمواج. ولإيجاد هذا الممر كان عليهم أن يحفروا ضمن مقبرة المسلمين، حيث أزالوا عددا ضخما من العظام البشرية. وغالبا ما تعتبر هذه المخازن من الأموات المقدسة عند المسلمين، وكل الجيران، حيث تتردد النساء لتدنيس هذه المقدسات ويطلقن العنان لحزن مفرط على هذا التخريب الذي أصاب المقبرة – على بقايا أصدقائهن. لكن ذلك تم بأمر من الداي وبعد إنشاء هذا الممر، تمّ جر تلك الأجزاء الصخرية الضخمة من قبل العبيد، بعمل شاق وصعوبة كبيرة، من الجبل، ويصل علوها قدمين، وبلغ عدد الأسرى اللذين قاموا بجرها مأتيي أسير لكل حاملة، وتم سحبها في البحر بمراكب حتى المرفأ أمام المدينة.

غير أنه عندما كان البحر شديد العواصف والمراكب غير قادرة أن تبحر، عندها استعمل الأسرى في حمل الأحجار الصغيرة برا. وبعد

التوقيف المؤقت للنقل إلى Burills، لمثل هذا الوزن إذ أصبح البعض يتمايل تحت هذا الضغط من الوزن، شرعوا في جماعات تختلف عددا، وبحضور طاقم من السائقين المتوحشين، الذي ينخسهم بمهماز نحو الأمام وكلما توقفوا، وزلت أقدامهم إلا ووقعوا تحت طائلة من الإرهاق. فشدة آلامهم في هذا العمل المضني يعتبر أفضل مماً هو معبر عنه. فمعظم العقوبات الوحشية تسلط بوحشية، وقسوة الشمس المحرقة، التي تصب أشعتها المتوهجة عليهم، تبدوانها تتمم حدود حقارة الانسان. ومع هذا الوزن الضخم للأحجار فقد تقدموا إلى الأمام، وفي انتظارهم مراقبين الذين سبقوهم من أجل إخلاء شوارع المدينة التي يمرون بها، حيث يتوجب على كل فرد أن يترك الطريق عند اقترابهم، وبعد تفريغ حمولتهم في المرفأ يعودون، وبهذه الطريقة يستخدمون خلال فصل الصيف، وذلك عندما تنعدم الحاجة إلى عملهم في البحرية. فهذا المرفأ، يحتاج إلى دعم دائم من الحجارة، في حالة تجاوز البحر خلال فصل الشتاء، وبهذه الطريقة وبصفة عامة يجتاز الداي إلى مقر إقامته الريفية حوالي مرتين في الأسبوع، حيث تقيم زوجته المفضلة في فصل الصيف، وعند مروره وعودته يقوم بتوزيع بعض الهدايا التافهة على الأسرى. فالمراقبون في معاملتهم نحو العبيد يبدو أنهم يشعرون بمبدأ القسوة الأكثر وحشية، وينزلون بهم أشد العقوبات من خلال نزوة واستهتار، من

أجل الاحتفال بفواحش ضارة وسكرات الارتعاش الحقيرة والذين هم مستعدون للموت تحت أيديهم. ويوجد وسط هذا الجند الحاقدين، أحد الأشراف، وهو اسم يعطى لجميع أولئك الأشخاص المولودين يوم الجمعة، وهو مشهور جدا، ذلك أن وحشية هذا المتطرف البربري (الوحشية) أثبتت وفاة العديد من الأسرى، وأن هذا الكافر ممقوت قلبيا حيث حل. وفي يوم ما وبينما كان يتابع عبيد من جنوة من أعلى غرف إحدى المغازات على جانب البحر، سقط، بحادث، من علا علو معتبر على كومة من الحجارة حيث وجد استقبالا صعبا ومات لحينه. ووجدت هذه الحادثة فرحا نابضا بالحياة إلى حد بعيد من قبل العبيد. والتي لم تكن سوى إدراك أن الوحشية ستكافأ، لكنهم سرعان ما اقتنعوا برؤيته ملتصقا بالأرض وربما من غير اللائق للنزول هنا إلى خصوصيات، ومن ثم علينا إحالة القارئ إلى بعض النوادر حدثت، ومواد أخرى التي تخص مواطنينا، إلى ملاحظاتنا المتعلقة بالعبيد. وفي نفس الوقت، بقيت آلام أصدقائنا المواطنين في الجزائر موضوع عالمي للتعاطف والأسى، وقد اتخذت في الحين إجراءات للقيام بتحريرهم من هذه المنطقة للمعاناة الغير المتوازية.

إذ غادر العقيد همفيرز Humphreys أمريكا في أفريل 1795، وعين قنصلا لدى الجزائر، يرافقه جوزيف دونالدسون Joseph Donaldson، من

فيلادلفيا، الذي عين بدوره قنصلا في تونس وطرابلس، والذي فوضه العقيد همفيرز للتفاوض على معاهدة سلام وصداقة مع الجزائر، في حين ذهب هوالي إلى فرنسا لغرض االحصول على تعاون تلك الحكومة في هذه المفاوضات.

وصلا إلى جبل طارق في 17 من ماي حيث استنتج العقيد همفريز أنه من الأفضل أن يذهب السيد دونالدسون أولا إلى أليكانت، شمال قرطاجنة في اسبانيا، بدلا من الذهاب مباشرة إلى الجزائر، ليقيم هناك وقتا ما، وذلك حتى يكون على مقربة من مسرح المفاوضات لكي يغتنم أي فرصة قد تحدث. وعليه وطبقا لذلك تلقى السيد دونالدسون تعليماته وانطلق فورا إلى ذلك المكان، وفي نفس الوقت أعطى العقيد همفيرز تعليمات أخرى إلى السيد سيمبسون Simpson، القنصل الأمريكي في جبل طارق، للتفاوض من جديد مع سلطان المغرب. حيث أبحر من جبل طارق في 24 ماي. وفي 26 من جوان الموالي حل Havre de – Grace بفرنسا، ومن هناك تجه فورا إلى باريس، حيث اتصل بالعقيد مونرو Manroe عن سبب مهمته لباريس وكذلك بلجنة الخلاص العام لتلك الجمهورية. تلقى العقيد همفرير في أول جويلية إشعارا شفهيا أن الجمهورية الفرنسية مستعدة لممارسة نفوذها لتعزيز المفاوضات المعنية، وفي 28 تلقى معلومات مفيدة مفادها أنه ستتخذ اجراءات عاجلة لإعطاء تعليمات خاصة إلى وكلاء الجمهورية لاستعمال نفوذهم في

تعزيز المعاهدة المنتظرة. غير أن تعدد الهموم الوطنية التي كان موظفوا الحكومة الفرنسية منشغلين بها، والوقت المطلوب للحصول على أموال من لندن (حيث أودعت الأموال) المعدة كهدايا للسلم، أخرت نتيجة الاستعدادات بباريس إلى وقت ما في سبتمبر.

وفي نفس الوقت يبدو أنه من الفائدة بالنسبة للعقيدين همفيرز ومونرو، استشارة المحترم بارلو، وإن حصلا على موافقة منه فإنه يستغل في التفاوض مع الدول البربارية، والتي وافق عليها بارلو. ومع حلول 11 سبتمبر كانت كل أوراق العقيد همفريز الخاصة بمهمة بارلو جاهزة، وفي نفس الوقت كانت هدايا السلام قد أعدت له، بدأ رحلته بتعليمات من جمهورية فرنسا لوكلائها في البلدان البربارية، لتنفيذ المهمة التي أسندت له.

وفي 12 من سبتمبر غادر العقيد همفريز باريس، ووصل Grace– de Harvre في 14 منه، حيث وجد القبطان ووكيل ربانة السفينة الأمريكية «صوفيا Sofia» مريضين بالحمى. وبينما كان ينتظر هنا بتطلع شديد إلى شفائهما، وإذا به يتلقى خبر من القنصل الأمريكي بمرسيليا، مفاده أن السيد دونادلسون قد أبرم معاهدة، سلام مع داي الجزائر. واعتبرها ملائمة، ومع ذلك، فإن على السيد بارلو أن يواصل عمله مع الهدايا، وإن لم تكن غير مطلوبة في الجزائر، فستكون ضرورية عند التفاوض مع تونس وطرابلس.

أبحر العقيد همفريز من Havre de -Grace في حدود الخامس من أكتوبر، وبعد رحلة بحرية تخللتها عواصف هوجاء، وصل إلى لشبونة في 17 من نوفمبر بعد أكثر من 40 يوما. حيث وجد القبطان O'Brien الذي حل في نفس المكان في حدود أول أكتوبر، ومعه معاهدة الجزائر. إذ وصل السيد دونالدسون إلى الجزائر في الثالث من سبتمبر، وابرمت المعاهدة في الخامس منه، وقدمت هدايا السلام مباشرة في شكل قرض بفائدة، لأن السيد دونالدسون على علم بأن الأموال توجد في لندن لاتمام شروط المعاهدة، وتعهد أن يدفع ذلك في ثلاثة أو أربعة أشهر.

تلقى العقيد همفيرز نصيحة قبل تاريخ 30 جويلية، من Barings بلندن، حيث وضعت الأموال عندهم، إذ حصلوا على تقدم معتبر في بيع الأسهم الأمريكية، وعليهم أن يضعوا كامل المبلغ 800.000 دولار تحت تصرفه. ويعني ذلك، أنه يتلقى ما تبقى من غير بيع، أي أنه ينفق المال قبل الحصول على استحقاقه. إن ذلك يتطلب مصلحة الولايات المتحدة.

أعد همفريز حساباته على ما يدفع بعد هذه الفترة، وعليه قام بإرسال القبطان O'Brien من لشبونة إلى لندن في شراعية بباريس «صوفيا Sofia» لاستلام الأموال. غير أنه ونظرا للرياح المضادة لم يغادر لشبونة إلا في 24 ديسمبر. ونتيجة لهذه الاحباطات في الأعداد المالي فإن المعاهدة كانت في خطر شديد لتفشل فشلا أكيدا ؛ فقد نفد صبر

الداي، وهدد بإلغائها، وحالت صعوبة أكبر في منع حدوث ذلك. لم يصل السيد بارلو إلى أليكانت إلا في فيفري 1796، ومن هنالك اقترح الانتظار حتى وصول الأموال، لكن وبعد فترة قصيرة من وصول معلومات إليه من الجزائر من أن المفاوضات الأوليّة في وضعية خطرة. قرر الذهاب إلى هنالك فورا مع آمال تهدئة الداي. وصل هناك في 5 من مارس. ومددت فترة الدفع إلى 8 أفريل. وفي 3 من ذلك الشهر أعلن الداي عن الأجل النهائي، وعليه فإن على كل من بارلو ودونالدسون أن يغادرا الجزائر في حدود ثمانية أيام، وإن لم تدفع الأموال في أجل 30 يوما، فإن المعاهدة تعتبر ملغاة. وسيسمح لقراصنته بإحضار سفن أمريكية.

وفي ظل هذه الظروف المستبدة، وكآخر أمل لإنقاذ المعاهدة، فإنهما استمالا الداي بدفع هدية له تتمثل في فرغاطة، والتي نجحت لحسن الحظ. غير أن العقيد همفريز اعتبر نفسه أنه غير مؤهل لإقرار هذا الوعد، ومن ثم قام بإرسال القبطان O'Brien في شراعية إلى أمريكا، والهدف من ذلك إحالة المسألة أمام السلطة التنفيذية للولايات المتحدة، والحصول على تعاونها. ويبدو أنه لا بديل لذلك، ومن ثم فإن السلطة التنفيذية كانت في حاجة ماسة لتأكيد الوعد. وقد بنيت هذه الفرغاطة في Portsmouth ,New- Hampshire، وتم اخبار الداي مباشرة بعد الموافقة*

* فهذه الفرغاطة تحمل 36 مدفعا. فهي مكسوة بالنحاس، وينتظر ان تكون سفينة ذات 538 طنا من الحمولة، وتفوق تكاليفها 90.0000 دولار، ابحرت في جويلية 1797، ويتوقع وصولها إلى الجزائر مع بداية سبتمبر المقبل.

وبينما كانت هذه المهمة في خطر شديد، وذلك راجع أساسا إلى اضطرابات عنيفة في أوربا، أبحر السيد دونالدسون إلى «القرنة Leghorn» حيث دبر قرضا بقيمة 400.000 دولار من السادة Fonnereau، وبما أن ذلك الميناء كان محاصرا من الأسطول البريطاني، فإن السيد دونالدسون حصل على ترخيص من بلاط بريطانيا العظمى يقضي بإمكانية تقدير تلك الأموال من هنالك دون أن تخضع لحجز، وأرسلت بعد ذلك فورا إلى الجزائر في سفينة بندقية.

أبحر القبطان O'Brien من فلاديلفيا بعد أن تحصل على تأكيد من السلطة التنفيذية، في جوان 1796، ووصل لشبونة في وقت ما في شهر جويلية. وفي نفس الوقت حصل العقيد همفريز على كمبيالة مفاوضات مساعدة على حساب لندن مقابل 225.000 دولار التي استلمها، وقد نقل هذا المبلغ على متن سفينة «صوفيا» أودعت تحت رعاية القبطان O'Brien. وقد تمّ تأمين هذا المبلغ بمكافأة صغيرة ضد أخطار البحار، أما ضد كل اخطار فهي غالية كمكافأة لأن العقيد همفيرز اعتبرها غير مناسبة لتقديمها، ويرى أن صوفيا هي سفينة أمريكية لها جواز سفر خاص من الرئيس، كما كان لها جواز آخر باللغة التركية بتوقيع من داي الجزائر.

وفي 4 من أوت أبحر القبطان O'Brien إلى الجزائر، وألقي عليه القبض في 18 وبعيد عن تلك المدينة من قبل قرصانة طرابلسية، التي نقلت سفينته، وأموالها وطاقمها بنجاح إلى طرابلس، «التي تقع على البحر المتوسط في حدود 130 ميلا نحو جنوب شرقي الجزائر» ترافقها

سفينة Betsy من بوسطن Boston. والتي أصبح طاقمها عبيدا، فهذا المبلغ الضخم نقدا، يفوق ما سبق وأن حجزوه مدة، وصل إلى اليابسة وسط نيران المدافع، ونشرت الرايات، وصراخ العامة. ومهما يكن، فإنه سرعان ما ألغي فرحهم المتطرف عندما أظهر لهم O'Bricn جواز سفر داي الجزائر، وبيّن لهم أنه لا يزال عبدا للداي، وبالتالي فإن الأموال سلمت له من الولايات المتحدة، ومع ذلك فإنه كان نفس الشئ في الواقع فيما إذا سلمت للداي نفسه، وبعد يومين من التحقيق أطلق سراح السفينة، وأبحر القبطان O'Brien فورا إلى الجزائر، التي وصلها في أول أكتوبر، وسلم المبلغ للقنصل الأمريكي المقيم هنالك، الذي طلب في السابق قرضا من المال الضروري من السادة Buckras، شركة يهودية في الجزائر، والذي تلقى معلومات كفيلة بالتأكيد على استرجاع الأموال. ومع هذا القرض الذي جاء في وقته، أوفى بارلو بشروطه مع الداي، الذي كان في غاية من الفرح بالهدية، ونتيجة لذلك أعاد مثل هذه الثقة في الولايات المتحدة، وأدى ذلك بالداي أن يقرض بارلو مبلغا ماليا لتمكينه من التفاوض على معاهدة السلام مع الدولتين التونسية والطرابلسية، والتي يعتقد تماما أن تقبلا بذلك.

وبفضل الترتيبات الحكيمة لبارلو مع الداي، عين القبطان O'Brien مفاوضا من قبل الولايات المتحدة لإبرام معاهدة مع الإيالتين تونس وطرابلس. وأبحر بناء على هذه المهمة في 10 من أكتوبر، ووصل إلى

تونس في 16، حيث أجرى مقابلة مع الباي، والذي قدم له رسالة من داي الجزائر، تتضمن تلك الرسالة أمر القيام بسلام مع المفاوض الأمريكي بناء على الشروط المفروضة والواردة في تلك الرسالة. غير أن الباي رفض كل الشروط، وطلب بدفع مبلغ يساوي ثلاثة أضعاف ذلك المبلغ.

بعد لقاءات واجتماعات عديدة، وجد القبطان O'Brien أن الباي، لا يقبل بمبلغ أقل، ولا الموافقة على شروط الداي، فنقل العرض التونسي إلى السيد بارلو بالجزائر، الذي بلّغه للداي، الذي استاء كثيرا على النتيجة، وأن ذلك لا يؤلمه بالإذعان للعرض المغالى فيه من قبل الباي.

وأمام هذه الوضعية، ترك O'Brien المهمة التونسية، واتجه نحو طرابلس، التي وصلها بعد صعوبة كبيرة، وتوصل إلى سلام مع تلك الدولة في 4 نوفمبر، وطلب بإطلاق سراح أسرى سفينة Betsy. ترك القبطان Joseph Ingraham، مكلفا بالشؤون القنصلية الأمريكية، هناك، وأبحر في 27 نوفمبر،رفقة الجزء الباقي من طاقم السفينة Betsy.

وفي 7 ديسمبر، وأثناء عودته إلى الجزائر، نزل بتونس، حيث تلقى أوامر من السيد بارلو والداي، ومنح سلطات استثنائية للقيام بالمفاوضات، والحصول على جواب نهائي من باي تونس، فيما إذا كان يريد التفاوض على معاهدة سلام مع الولايات المتحدة بناء على شروط سبق للداي أن حددها ؟غير أنه وجد أن الباي لا زال مصرّا على مطالبه الباهضة، وبعد عدة لقاءات ومساعي فاشلة أبحر من تونس، ووصل إلى

Bacri ، لا يفرق الكاتب بين الداي، للجزائر، والباي لتونس، والباشا لطرابلس. «المترجم»

الجزائر في 3 من جانفي 1797، حيث اتصل بالسيد بارلو والداي واخبرهما بمهمته الفاشلة. فغضب الداي غضبا شديدا للإهانة التي الحقت بشرفه لهذا الرفض، لتوسطه في شؤون الولايات المتحدة، وتحرك الحقد الدفين السابق بينهما، وأصدر أوامر فورا لمعسكره الشرقي والذي يتواجد فيه 60.000 شخص للدخول إلى الأراضي التونسية. وسرعان ما تحرك هذا الجيش لإجبار الباي على الولاء والطاعة. وأثناء مرورهم في الأراضي التونسية قطعوا بعض المئات من الرؤوس والأذن، وعادوا إلى الجزائر بعد أن قاموا بنهب وإتلاف كبيرين للسكان واتخذ هذا العمل الخشن من أجل أن يؤكدوا للسياسة التونسية المتبعة فيما إذا كان الباي سيخضع لرقابة الداي، أما فيما يخص بالسلطات المتعلقة بالتهدئة الأمريكية، فإن الداي أعلن بصراحة، أنه الضامن.

وبأمر من الداي، غادر القبطان O'Brien الجزائر في 14 فيفري 1797، ووصل فيلادلفيا في 1 أفريل 1797. انقضت الهدنة التي وقعها بارلو مع الإيالة التونسية، في 15 جوان 1796، والمحددة بستة أشهر في 15 ديسمبر الموالي. وقد تم الحصول على هذه الهدنة من غير الهدايا، وذلك بواسطة السيد Famin، الوكيل الفرنسي بتونس، والذي تم تقديمه لبارلو من القنصل الفرنسي Herculais (مبعوث الجمهورية).

ومنذ انقضاء هذه الهدنة أصبحت السفن الأمريكية هدفا للقراصنة التونسيين، وهذا بناء على ما نشره السيد O'Brien في 5 أفريل 1797،

حيث يقول : «أخبركم الآن صراحة، أنه على السفن الأمريكية ألا تدخل البحر المتوسط إلا إذا أقيم سلام كامل مع الدول البربارية، ونشر بأمر من سلطة الولايات المتحدة.»

أما فيما يتعلق بالمفاوضات التونسية، حصل تفهم بسيط، وفيه احتمال كبير أن السيد بارلو، قد أبرم سابقا معاهدة مع تلك الحكومة، من خلال وساطة قوية للداي.

ومع إبرام المعاهدة الجزائرية عم فرح عالمي وشمل الأسرى الأمريكان، الذين ابتهجوا بهذا النجاح لزيارة شواطئهم مرة أخرى.

لقد كانوا ضحايا مدة طويلة لكوارث عسيرة، واعتادوا على رؤية المشهد الكئيب للموت، وأصبحت تنتابهم أفكارا مخيفة عن العبودية والحياة والأمل، فالوهم السار يموّه المناطق السوداء للمحنة. يبدو أن كل ذلك قد ولى. وللإضافة إلى قائمة مأساتهم، فإن الطاعون بدأ بزيارته المخيفة، فالعديد من رفاقهم قد سقطوا ضحية لهذا المرض المعدى والمفزع. والآخرون يتضرعون لأصدقائهم ويتمنون لهم أن ينتهوا من آلامهم وقنوطهم.

وعندما نشر خبر المعاهدة أطلقوا العنان لأنفسهم وراحوا يتحركون ويتوقعون أن الفرج آت عما قريب، غير أن ذلك لم يتم وفجأة حدث تحول من الوضعية القاتمة إلى حالة تفوق الوصف. غير أن التأخير القدري حدث بسبب تحويل المبالغ المالية الضرورية. التي عرضت المعاهدة للخطر. ونتيجة لهذا التأجيل التعيس، والذي يعود في الأساس

إلى النزاعات في أوربا، بقي الأسرى تحت الأعمال الشاقة، وفي الواقع فإن مأساتهم بدأ تأجيلها من يوم 5 سبتمبر 1795، حيث أبرمت هذه المعاهدة في ذلك التاريخ، وبقوا في ظل اليأس حتى 9 جويلية الموالي.

وعندما دفعت الأموال المستحقة، قام السيد بارلو بزيارتهم وهم في تلك الحالة الصعبة. ولم يثق أحد منهم عندما أعلمهم بارلو بأنه سيطلق سراحهم.

غير أن شكوكهم ذهبت عنهم، عندما صدرت لهم أوامر بالحضور فورا أمام الداي، قاموا بالوداع الأبدي للصخور الضخمة في باب الوادي، والتحقوا فورا بالقصر مع كل مظاهر الحفاوة، حيث تم استدعاؤهم بحضور الداي، الذي جلس في أبهة، حضرها الوزير الأول، والآغا وضباط آخرون للحكومة. وبعد استراحة قصيرة، قام مسؤول الموظفين بتقديم كل أسير مع جواز سفر واخبرهم أنهم أحرار مع الاستعداد فورا للعودة إلى وطنهم. وبهذه المناسبة تم تحرير 48 أسيرا من نابولي، وكان من ضمنهم أسير استخفه الابتهاج وانبطح على الأرض أمام الداي وقبّليديه ورجليه، غير أن الأمريكيين، لم يكونوا عبيدا بمعنى الكلمة، فقد استعدوا واتجهوا نحو ميناء البحرية، وصعدوا على متن سفينة «الحظ السعيد Fortune Thc» التي أجرها لهم السادة : بكرى، لغرض نقلهم إلى مرسيليا.

فالعدد الأصلي للأمريكيين انخفض الآن إلى 85. فالعديد منهم مات بالطاعون، والبعض الآخر بالجدري، وآخرون بقسوة العمل الذي فرض عليهم.

فالقبطان wallace من Richmonds أنهى حياته بينما كان يطل من على شرفة لعمارة قديمة، إذ سقط من ارتفاع كبير إلى الشارع حيث مات على الفور. كما أن الطاعون تفشى بشكل واسع وذلك عندما شرع الأسرى في مغادرة الجزائر إذ مات خمسة منهم قبل أسابيع قليلة من رحيلهم، كما أن هناك أسير آخر هاجمه المرض القاتل، وتركناه وراءنا فالعدد الآخر منهم أصيبت أجسامهم بجروح، وقد فقد أحدهم بصره تماما، وآخر اقترب منه في نفس الوضعية. وحمل ثلاثة منهم علامات معالجة عديمة الرحمة، والكثير منهم أصبح لا يستطيع كسب قوته، وعليه فقد أصبحوا موضع الصدقات من أبناء وطنهم.

كان بارلو يشعر ويحسّ بضرورة إبعادهم فورا من هذا البؤس وإزاحة ما يمكن تصوره في أذهانهم. وكان على حق، لأنه كان يخشى أن يلحقهم ضرر عند ركوبهم السفينة وبعد وصوله ثابر على إتمام تحريرهم، وبعمله الخيّر، الذي يشمل كل الأسرى، وأصبحت ظروفهم حسنة إلى غاية تحريرهم رغم ما كان يتعرض له من أخطار صحية، وقدموا له شكرهم على ما بذله في سبيلهم والابتعاد من منطقة الرعب.

بعد تحضير أشياء ضرورية لسفرهم، أبحر الأمريكيون ومعهم 48 أسيرا من نابولي في سفينة، الحظ السعيد، تحت قيادة القبطان Calder، وسرعان ما قاموا بوداع أبدي لأرض العبودية.

وبينما كانت هذه الأمور تسير، وإذا بالجزائريين يقومون بالقرصنة ضد العديد من القوى البحرية في أوربا. إذ جرت محاولة مفاوضة بين

المليشيا التي لا تقهر والبرتغال في نوفمبر 1793، وأرسلت سفينة برتغالية إلى الجزائر في إطار هذه المهمة. وكانت الشروط التي قدمها الداي تقتضي بدفع :

1.200.000 دولار مكسيكي للخزينة

600.000 دولار للداي، وكبار ضباط الإيالة، وهدايا ممثل مفوض وقناصل، يعادل ما قدمته اسبانيا، ودفع 150.000 دولار لتحرير 75 قبطانا برتغاليا. ومع هذه الاقتراحات أبحرت السفينة البرتغالية من الجزائر في 7 من نوفمبر، وسرعان ما وصلت لشبونة.

غير أنه بناء على اعتبارات أخرى فإن الداي لم يكن راضياً بهذا المبلغ، وفي اليوم الموالي طلب حضور القبطان Logie، وهو وكيل انجليزي، بأن يكتب له رسالة إلى البرتغال يطلب فيها مبلغ 600.000 دولار لأسرته وأصدقائه، إضافة إلى ما قدمه سابقا.

بالطبع لم تتم الاستجابة لهذه المطالب وظل الجزائريون والبرتغاليون في حالة من الحرب.

انقضى أجل الهدنة الهولندية في 10 من ديسمبر 1793. غير أن السلم جدّد في أفربل الموالي، وأطلق سراح جميع الأسرى الهولنديين. فالقوى الكبرى التي هي في حرب الآن مع الجزائر هي : البرتغال، والبابا.

أعلنت الجزائر حربا ضد جمهورية البندقية في 26 من أكتوبر 1796، فالمسألة التي لم نسمعها لكن مع فرنسا، اسبانيا، وانجلترا وأمريكا، فهذه كلها في سلام الآن.

ومع بداية 1796، تعقدت شؤون الدنمارك تعقيدا عسيرا. ذلك أن إحدى سفن نابولي القت القبض على سفينة دنماركية، تحمل 300 تركي، قادمون من المشرق إلى الجزائر، فهؤلاء الأتراك نقلوا إلى نابولي، حيث أصبحوا عبيدا، وهذا أغضب الداي كثيرا، وأصدر أوامر فورية بإلقاء القبض على السفن الدنماركية، وسرعان ما تم القبض على 13 سفينة دنماركية ونقلت إلى الجزائر، حيث أجبرت على البقاء في الجزائرمدة أربعة أشهر، حتى استجابت الحكومة الدنماركية للتفاوض حول فدية 300 تركي، بعدها تم تحرير السفن الدنماركية. أما حمولاتها، والتي تتكون أساسا من مواد قابلة للتلف فقد فسدت جميعها.

ومع بداية 1795، ألقي القبض على ما يقرب من 200 كورسيكي كانوا يبحثون عن المرجان على السواحل البربارية. وبينما كانوا منشغلين مع عدد من سفن الصيد، تحت حراسة سفينة بريطانية، وإذا بسفينتين فرنسيتين تظهران في الأفق، وتدخلان في معركة شديدة مع السفينة البريطانية، أما المراكب الكورسيكية فقد فرت لتلتجأ إلى الشاطئ البربري قرب قسنطينة حيث اختطفوا جميعا من الأهالي ونقلوا إلى الجزائر، حيث أصبحوا عبيدا، وبعد أن سلوا أنفسهم بين صخور باب الوادي مدة سنة، أرسل السيد North كوكيل بريطاني للتفاوض حول تحريرهم، وتحصل على حريتهم بعد أن دفع قرابة 120.000 دولار إلى جانب وعد بسفينة مسلحة.

وفي وقت ما من سبتمبر 1796، أرسل الإنجليز في شراعية فرنسية مبلغا معتبرا، وأصبحت هذه السفينة في النهاية غنيمة، مما أغضب الداي كثيرا، وأمر السفينة بالخروج فورا من الميناء. واستاء قائدا السفينتين

البريطانيتين المتواجدتين على مقربة من الميناء بسلوك الداي، مما جعلهم يقتربون من المرفأ، واستعدا لإطلاق النار على المدينة. وعندما لاحظ الداي ذلك، غضب الداي وأمر بوضع الأسرى في مقدمة المواجهة وأعطى أوامر بنصب مدافع المدينة للدفاع. وفي نفس الوقت، كان أسطول الأميرال Jervis يتكون من 25 سفينة تقترب من الميناء، ولما رأى الداي هذه القوة لم يتوقع أي شيئ سوى دمار المدينة. وأمام هذه المرحلة الحاسمة أجرى اتصالا مع السيد بارلو لاستعمال نفوذه مع القادةالبريطانيين ينصحهم بالعدول عن خططهم، وبعد توزيع بعض الهدايا المادية المعتبرة بين ضباط الفرقاطات، انسحبوا إلى الوراء، ولم ينفذوا خطتهم. وفي بداية جوان 1796، وقعت معركة دموية وعنيدة قرب كورسيكا، بين سفينة قرصان جزائرية ذات 34 مدفعا وفرقاطتين نابوليتين تحمل كل منها 20 مدفعا، وانضمت إليهما سفينة البابا الخاصة بحراسة السواحل، ذات 10 مدافع وعدد من المرود. استمرت المعركة من 10 صباحا حتى الرابعة بعد الظهر دون انقطاع، واستعمل المتقاتلون في الجزء الأكبر من المعركة مسدسات، قاتل الكورسيكيون بعنف وبشكل متواصل مما أدى إلى قطع حبال الأشرعة للسفينة، وعم ذعر كبير بين أفراد طاقمها، أما الروس فقد قاتلوا بدون هوادة مع يأس مفض إلى التهور. حاولوا مرات عديدة الصعود إلى ظهر سفينة عدوهم، غير أنهم ردوا على أعقابهم بخسارة كبيرة. وقتل جميع ضباط في ذروة المعركة، أما قائد السفينة فقد قطعت ساقاه بالنيران، وبينما كان يطلق النار من بندقية صغيرة، لإذلال البرابرة يرفضون أخذه من ظهر المركب، مات هذا الضابط أثناء اعطائه الأوامر. وأمام هذه الخسارة لم يخفهم غيظ الطاقم،

الذين وأقسموا ألا يستسلموا ولم يبق منهم واحد إلا أبدى المسيحيون غضبا مماثلا طوال المعركة. وقرروا إما الانتصار أو الموت. وسرعان ما لحق فإن إحدى الفرقاطات التي كانت تبحث عن الأمريكيين نسفت بانفجار مروع.

وبعد وقت قصير حدثت كارثة أخرى، إذ غرقت طوافة ليبية بعد مقاومة شجاعة.بقذائف العدو، ثم قطعت الفرقاطة المتبقية التي أجبرت عندئذ على الإنسحاب. في حين بقيت القرصنة مثل زند الخشب على سطح الماء.

وأصبح مقدم المركب والصاري الرئيسي تجرفه المياه بجانب السفينة، وأصبح جسم السفينة مبعثرا ولم يمر وقت حتى غرقت بعد المعركة.

وفي 13 من جويلية الموالي أبحر الأسرى الأمريكيون من الجزائر. ووصلوا إلى مرسيليا في 19 منه، حيث أجبروا على عزلة الزاوية (الحجر الصحي) مدة 80 يوما، بعدها سمح لهم بالذهاب إلى شاطئ المدينة، حيث جهز لهم Stephen Catalan ، القنصل الأمريكي، مركب سويدي بثلاث صوار لنقلهم إلى أمريكا، وقدم لكل واحد منهم طاقم ملابس، إضافة إلى علاوة 35 سنتا في اليوم مقابل قوتهم. التحق 14 منهم سفينة أمريكية في مرسيليا في رحلة تجارية عبر البحر الأبيض المتوسط، وحجز الباقي بسبب المرض، ذهب القبطان Penrose، الذي جاء معهم من الجزائر، إلى أليكانت، نزولا عند رغبة السيد Montgomery، القنصل الأمريكي المقيم هناك، للقيام بمهمة سفينةمرتقبة لتسافر باستمرار بين

ذلك المكان وفيلاديلفيا، غير أنها لم تكن جاهزة، وعليه عاد Penrose من هنالك في سفينة أخرى، ونزل ببوسطن.

وأقلع باقي الأسرى، إلى ميناء فيلاديلفيا، بعد إقامة دامت 20 يوما في مرسيليا. وقد أبحروا يوم 12 نوفمبر بمرافقة ولدي الدوق of Orleans The Duke، واستغرقت رحلتهم قرابة ثلاثة أشهر، وحلوا بميناء Hook Markus، حيث حجزت السفينة بسبب الجليد المتواجد آنذاك في Delaware. وفي 8 فيفري 1797، نقلوا إلى فيلادلفيا في حافلات، بمرافقة المئات من أصدقائهم المواطنين الذين هرعوا لإستقبالهم.

وعند وصولهم حانة Indian Queen، كانت الشوارع تعج بالناس بحيث لم يستطيعوا المرور، ودخلوا الدار وسط تصفيقات حارة، تعبيرا عن فرحة المواطنين بعودتهم، استراحوا لتلقي تهانيهم، غير أن بعض الأسرى أوردوا أن هناك من لم يكن محظوظا ومعوزا، تركوا يهومون في شوارع المدينة في فصل قاس، من غير أصدقاء، أو بسنتيم واحد لسداد عن قوتهم. وإذا كان ذلك واقع، فإن ذلك يعكس خزي وعار حكومتنا، وبالتالي فإن هؤلاء التعساء انقذوا من مناطق البؤس وجيء بهم إلى مناطق الموت والجوع في أرض الحرية.

كان من الواجب إثارة قلوب الأمريكيين بالحزن العميق والشعور بالخزي، عند العودة بعد ما أنفق من أموال باهضة في المعاهدة الجزائرية، إلى جانب المبلغ السنوي الذي يقدم للداي 12.000 سكوين جزائري*. في شكل

* قيمة سكوين جزائري تساوي 1.963 دولار او 1 دولار و 96 سنتا و 3 مل.

عتاد بحري، طبقا للمادة الأخيرة من المعاهدة، وأن عارهم لا يقل عندما يتأملون أنهم أصبحوا دافعي الجزية للجندي التركي سابقا، فهذه إضافة ثقيلة للضريبة الأمريكية، التي زادت بسرعة، فهذا ليس بتفكير جيد وملائم. وغالبا ما يقنع شخص ما أن يتّهم المفاوضات بحماقة إلى حد ما، ألا يوجد خطر التعرض لتهمة انعدام الانسانية ؟ ومهما يكن، فإن مشكلة الفوائد الناجمة عن تجارة البحر المتوسط فيما إذا كان بالإمكان أن تعوّض هذه المصاريف الضخمة. ويبدو غير ذلك، لأن العبء الأكبر يتحمله الشعب، في حين تعود فوائدها على قلة من الأفراد، الذين ربما يريدون دعم هذا الفرع التجاري باسم قانون التأمين.

لقد فكرت أنه من اللائق، ومن أجل تقديم المفاوضات الجزائرية في شكل أكبر تكاملا من وجهة نظري، أن ألحق تقييما للمال المنفق، وعدد من المراسلات التي حصلت في هذا الموضوع، طبقا للتقريرين المواليين :

تقرير كاتب الدولة للخارجية وكاتب الدولة للخزانة، المتعلقان بالمفاوضات الأخيرة مع الداي وأيالة الجزائر.

لقد قدم كل من رئيس الولايات المتحدة، وكاتب الدولة الخارجية على العرض المختصر التالي حول شؤون الولايات المتحدة، في ما يتعلق بالجزائر*.

إن مثل هذه الترتيبات، قد أنجزها كلا من السيدين. بارلو ودونالدسون بالجزائر والقرنة، وذلك بتأكيدهما دفع مبلغ 400.000 دولار، والذي كان يتوقع دفعه في المكان الأخير، وتعهدت نفس الدار

* ليس من الضرورة تقديم الجزء الأول من هذا التقرير الخاص بتاريخ المفاوضات، لأنه تم التطرق إلى ذلك بشكل واف.

دولار، والذي كان يتوقع دفعه في المكان الأخير، وتعهدت نفس الدار للداي والإيالة بدفع المال المتخلف كثمن للسلام. وبدون ذلك لم يكن الداي أن يوافق على تحرير الأسرى. وقد كاتب الدولة للخزانة مبلغا أكثر يجب توفيره لينفذ شروط المعاهدة، على الشكل التالي : 255.759$

96.246 دولار مقابل سنتين من السناهية للداي.

والتي يضاف إليها 10.000 سكوين بوعد من بارلو ودونالدسون ورد ذلك في رسالتيهما والمقدر ب 18.000 دولار.

6.500 دولار مصاريف الأسرى عند قضائهم فترة الحجر الصحي الإلزامي في مرسيليا، ونقلهم إلى أمريكا، وذلك بتقدير من القنصل في مرسيليا.

المبلغ الإجمالي : 376.505.

التوقيع : Timothy Pickering كاتب الدولة للخارجية.

كتابة الدولة للخارجية 6 جانفي 1797.

وقدم كاتب الدولة للخزانة، إذعانا لتوجيهات رئيس الولايات المتحدة المحترم، التقرير الموالي الخاص بتطبيق دفع المال المتعلق بتنفيذ المعاهدة مع الجزائر.

وتطبيقا للقانون المصادق عليه في 21 من فيفري 1795، فإنه تم إقتراض 800.000 دولار من بنك الولايات المتحدة، وبفائدة 6% .

فاقتناع وإلحاحية القضية، والميل إلى تزويد الحكومة. جعلت البنك يوافق على القرض، وبما أن الأسهم كانت قابلة للبيع بكمية كبيرة

بسعر التكافأ، بما في ذلك فوائد السفتجة والتي لم تكن جاهزة، وفجأة تم تصدير مبلغ مالي عيني معتبر كانت له نتائج غير ملائمة. في الواقع ليس هناك بديل يقدم، سوى التنديد بالمفاوضات، أو تؤجل الأسهم كاعتماد مالي.

هناك أسباب عديدة أدت إلى انخفاض أسعار جميع الأسهم العمومية، وذلك بعد القيام مباشرة بتحويل هذه الأسهم إلى عملية نقدية. وهذه هي نسبة المبيعات التي تم انجازها.

560.000 دولار مقابل 111.053.150 جنيه استرليني.

240.000 دولار بقيت من غير أن تباع في تاريخ آخر استشارة والتي أمكن تقديرها ب 80%/43.200.000 أو 800.000 دولار باقية كأسهم يمكن تحويلها إلى الجنيه الاسترليني بقيمة 154.253.150 جنيه استرليني، أو 685.572.22 دولار من مجموع 305.911.100.37 دولار المخصص للمعاهدات مع بلدان البحر الأبيض المتوسط حسب قانون 31 ماي 1796، وقدّر العجز المالي فيما يخص معاهدة الجزائر بقيمة 51.132 دولار.

ويمكن اعتبار جميع المبالغ المالية لمعاهدة الجزائر حسب الأموال الموجودة بلندن : 736.704.22 دولار

وقد بلغت نفقات تنفيذ المعاهدة كما يلي :

المبلغ المتعاقد عليه عند التوقيع على المعاهدة مع الداي، وضباطه وكذلك مع الخزينة من أجل تحرير الأسرى : 525.500 دولار.

يضاف إلى ذلك ما أنفق من حسابات دونالدسون، أي نسبة مئوية تضاف إلى تحرير الأسرى :

27.000 دولار

90.000 مصاريف أخرى، كهدايا سلم وقنصلية (60.000 دولار) وعمولة السمسار اليهودي وهدايا المدراء (30.000 دولار)

وهذا هو المبلغ المالي الذي يدفع للجزائر نقدا 642.000.00 دولار.

مصاريف تحويل المبلغ المشار إليه أخيرا من لندن إلى الجزائر، حسب تقديرات موثوق بها. ويمكن أن يكون على الشكل التالي :

140.000 دولار تحسب في القرنة بشيكات على حساب لندن وتكلف : 55.100 45.10 استرليني أو بالدولار

بالإسترليني : 34.110.000 جنيه

وبالدولار 260.000

ينوقع الحصول عليها بنسبة 65.000.000 أي 440.488.88 دولار أو 99.110.00 جنيه استرليني

40.000 دولار تحول إلى هامبورغ وتكلف بالاسترليني 9.002.18.8 أو بالدولار : 40.013.04 وتحول 225.000 دولار في لشبونة والتي تعطي بالاسترليني 50.007.160 أو بالدولار 222.256.89

وتوحد قيمة 665.000 دولار في القرنة. وهامبورغ ولشبونة، ويعتقد أنها كافية للإعفاء من الالتزامات المالية الخاصة بالمعاهدة، وربما تكلف 81.702.758 دولار.

وقدم المبلغ التالي إلى العقيد همفريز : 3.471.00 جنيه استرليني، وإلى القبطان أوبراين 3100

بالدولار : 15.564.44

وبالاسترليني : 3.502.00 بالاسترليني

قدرت قيمة العتاد البحري التي تعهد بها دونالدسون بقيمة 57.000 دولار.

غير أن الممول البحري قدرها أولا بقيمة 124.413

وقدرت أجرة الشحن ب 50.000 دولار.

أما قيمة بناء السفينة المقدمة كهدية إلى الداي، فقد قدرها كاتب الدولة للدفاع ب 99.727 دولار

وعلى هذا الأساس، يمكن القول أن المصاريف الاجمالية للمعاهدة قد وصلت، حسب هذه التقديرات إلى : 992.446.25 دولار

في حين قدرت في السابق ب : 736.704.22 دولار.

وعليه لا بد من إضافة الفرق الموجود : 255.759.03 دولار

التزمت الولايات المتحدة في المادة الأخيرة من المعاهدة بدفع سناهية سنوية قيمتها 12.000 سكوين جزائري في شكل عتاد بحري. وهذا ما يعادل 21.600 دولار. وقدرت قيمة وشحن المواد المطلوبة من الداي في السنتين الأوليتين، حسب تقديرات الممول البحري بقيمة 144.246.63 دولار.

في حين خصص قانون 6 ماي 1796، للسنتين ب 48.000 وعليه لا بد من إيجاد الفرق المقدر ب : 96.246.63 دولار.

قدم التقرير المالي : أوليفر وولكوت Oliver Wolcott، كاتب الدولة للخزانة. التوقيع كاتب الدولة للخزانة أوليفر وولكوت. كتابة الدولة للخزانة : 4 جانفي 1797.

هذه هي التقديرات المحتملة للمواد المطلوبة في معاهدة الجزائر، بتاريخ 29 ديسمبر 1796.

500 برميل من البارود بقيمة 15 جنيه= 7.500.00 استرليني.

66 طنا من الرصاص بسعر 40 جنيه= 2.640.00 استرليني

200.000 رصاصة مدفع بسعر 276 جنيه= 2.760.00 استرليني

5.000 قذيفة ذات رأسين ب 590.00 استرليني

200 قطعة قماش القنب بـ 1.100.00 استرليني

2.000 برميل مدفع بـ 2.000.00 استرليني

50 من الصواري بسعر 100 جنيه= 5.000.00 استرليني

100 سارية بسعر 40 جنيه= 4.000.00 استرليني

10 كوابل و45 طن من الحبال بسعر 135 جنيه = 10.575.00 استرليني

300 من لوح خشب الصنوبر ذات 6 إنش من النوع السميك و50 قدما في الطول ب 9.000.00 استرليني

2.000 برميل من القطران بـ 200.00 استرليني

200 قطعة من أبعاد الخشب بـ 540.00 استرليني

100 برميل من الزيت بـ 150.00

10 مدافع...الخ بـ 500.00

يساوي بالاسترليني : 46.655.00

بالدولار 124.413.00

توقيع الممول : Tench Francis

29 ديسمبر 1796.

تقدير المبلغ الضروري لبناء وتجهيز فرقاطة، تحمل 36 مدفعا لداي الجزائر، والتي أضيف إليها تقدير عملية إبحار نفس السفينة إلى الجزائر.

بالدولار السنْت

فاتورة النجار لبناء بدن السفينة، انزال السفينة، إضافة إلى صوارى المركب وعوارض الشراع، وسعرها بالطن 45 دولارا. 24.210.00

ملاعق البناء، المشتغلون بالمعادن، كالحدادين، والرصاصين، وبنائي المراكب، والنقاشين، وصانعي البراميل، وصانعي الكتل الخشبية والحديدية وصانعي السفن، مزودي المراكب بالأشرعة وحبال الأشرعة، وصانعي الشموع.

بالدولار 55 = 29.590.00

سفينة جاهزة ذات 538 طن بسعر 100 دولار للطن يساوي 53.800.00

تغليف بالنحاس 4.118.40

المدافع 8.428.60

النحاس، محاور ارتكاز رأسي والمثاقب 1.240.00

بارود، كرة الرمي، وعتاد عسكري آخر 13.551.00

40 شخصا بما في ذلك ضباط وأجورهم وقوتهم مدة خمسة أشهر 8.589.00

طوارئ 10.000.00

المجموع : 99.727.00 دولار

التوقيع : James M, Henry

وزارة الحرب 26 ديسمبر 1796.

وتنفيذا للمهمة التي أسندت إلى Baring وشركائه، فقد كانوا على إتصال بالسيد Pinckney من حين لآخر، يخبرونه لكل صغيرة وكبيرة تحدث، ذلك أن هذه المهمة جد خطيرة، وهامة، فقد حاولوا أن يعطوه كل التفاصيل عن بداية المهمة، وذلك مراعاة لتصميم السيد King.

في 7 مارس 1795، حول رئيس البنك إلى Baring وشركائه مبلغ 800.000 دولار بنسبة 6% من الأسهم. مع أوامر لبيع نفس المبلغ من غير أن تحدث انخفاضا في الأسعار، وهذا يؤدي إلى إساءة سمعة الودائع المصرفية الأمريكية، على أن تكون هذه المبالغ تحت تصرف العقيد دافيد همفريز، وسنكون على اتصال بالعقيد همفريز لاعلامه بالتقدم الذي قد

نقوم به من وقت لآخر، وذلك ببيع الأسهم، وكذلك الشروط التي بموجبها ستحول هذه الأموال إلى قادس Cadiz القرنة Leghorn.

فهذا ما تتضمنه كل أوامرنا، أو على الأقل كل ما نستطيع تصوره بأنه ضروري لإخبار السيد King في الوقت الراهن، أيضا فالرسائل الآتية من أمريكا جميعها تجيب عن رسائلنا العديدة، ولا تحتوي أية اشارة رفض، فيما يخص تصرفنا، بل بالعكس.

في 31 مارس كتب العقيد همفريز من فيلادلفيا، أنّه يجب علينا أن نزوده بمعلومات ومساعدة ...الخ توجه إليه في لشبونة.

وفي 28 أفريل، كتبنا بتفاصيل إلى العقيد همفريز، فقدمنا له كل معلومة تتعلق باحتمال بيع الأسهم، وبالطرق العديدة التي يمكنه تنفيذ مهمته عن طريق لندن، وقادش ولشبونة، وإيطاليا بصفة عامة.

وفي 19 ماي، قمنا بمراسلات أخرى للإجابة عن رسالته المؤرخة في 31 مارس والتي من خلالها قدمنا له مسبقا مبلغا معتبرا، بناء على ما في أيدينا من قيمة الممتلكات المنقولة. لأنه لا يوجد طلب في الوقت الراهن. وشرحت له قيمة العملة الإيطالية، أما العملة الاسبانية فهي معروفة جدا، وأشرنا له أنه من الأفضل أن يقوم بعملية السحب من القرنة، حيث ينعدم التقييد، كما هو عليه في قادش حيث يتواجد الدولار بوفرة، لكن التصدير ينحصر في بنك سان شارل St Charles، ويصعب الحصول على ترخيص منه، وعليه فإنه بإمكاننا أن نحصل على أية كمية

من لندن : وبها يمكننا إضافة أسماء مراسلينا في مختلف الأماكن، وتقدم كل خدمة في متناولنا، مباشرة أو غير مباشرة.

في 18 ماي أعلم بخبر وصول العقيد همفريز إلى جبل طارق.

وفي 21 جويلية أخبر العقيد همفريز أننا قمنا ببيع 300.000 دولار، أي أننا كنا على استعداد لدفع 100.000 دولار عند الإشارة منه، وإن أراد مبلغا أكثر، فإننا نرغب في اعلامنا بذلك.

وفي 27 جويلية أعطانا العقيد همفريز توجيهات بدفع 40.000 دولار إلى السيد Deas، وإلى السيد Andrews، والتي سرعان ما نفذت، على رصيد حساب في هامبورغ Hamburgh، مقابل تلك القيمة.

وفي 30 جويلية، أعلمنا العقيد همفريز أننا حصلنا على تقدم في مبيعاتنا، وبإمكاننا وضع كامل المبلغ 800.000 دولار تحت تصرفه، ونعني بذلك، دفعا مسبّقا، بقيمة الجزء المتبقي من غير بيع آنذاك، إذا كانت مصلحة الولايات المتحدة تقتضي ذلك.

في يوم 28 نوفمبر وفي رسالة موالية من العقيد همفريز، وبداية لصعوبتنا، أبلغنا أنه سيرسل سفينة «صوفيا Sofia» لغرض استلام الذهب البرتغالي والدولارات الاسبانية، في لندن، بقيمة 650.000 دولار اسباني. أضف إلى ذلك أنه فتح رصيدا لفائدة السيد Dohrman، من لشبونة. وبسبب ندرة الورق في ذلك الوقت ضاعت مبالغ مالية تافهة.

لكن هذه الرسالة أكدتها رسائل أخرى من العقيد همفريز، مؤرخة في 16، و22 و24 ديسمبر ذات فحوى مماثل، أو قريب منه، ووصول شراعية صوفيا من لشبونة.

وعلى الرغم من أن العقيد همفريز لم يقدم لنا أسباب هذه الصفقة وربما نسبها إلى النصيحة الواردة في رسالتنا المؤرخة في 19 ماي، وفي الواقع يعود ذلك إلى التسهيلات المعروفة جدا بنقل الأموال في لندن، وعن الدولار الاسباني فإنه ليست لدينا إطلاقا تجربة فاشلة في تحويل مبالغ ضخمة.

وفي 22 ديسمبر، قمنا بالرد على هذه الرسائل، ناصحين العقيد همفريز باستحالة جلب الذهب البرتغالي، والذي لم نتلقاه منذ سنوات، وحدث تحول مفاجئ في ظهور السبيكة (ذهبية أو فضية) نتيجة استنزاف كبير على هذه البلاد، حيث الحرب القائمة، والذي أجبر في نهاية المطاف الوزير أن يتخلى عن مشروعه المفضل لقرض ثان من الامبراطور، لكن وبما أن الصعوبة قد بدأت تظهر فقط، فإننا نأمل مع بعض الوقت، أنه بإمكاننا جمع الدولارات الخاصة بغرض تنفيذ أوامر العقيد همفريز.

وفي 17 جانفي 1796، وجدنا أنه من المستحيل القيام بجمع الذهب، ولم تصلنا الفضة، وعليه أجلنا كل الأوامر والمراسلات إلى السيد Pinckney، عندما قرر شراء هذه الفضة مهما كان ثمنها، لكنه، وفي كل الحالات، فإن قام بحجز السفينة صوفيا، فهذا ليس بخطأ، مادامت الرياح الغربية تمنعها من الإبحار.

وفي نفس الوقت راسلنا السيد : Parish وشركه Hamburgh، لمعرفة ما إذا كان بالإمكان الحصول على الذهب البرتغالي أو الدولار الاسباني في عين المكان.

وفي 19 جانفي و26فيفري، 2، 12 حررّنا رسائل إلى العقيد همفريز، حيث عرفناه بتقدمنا، من حين لآخر. وأن Parish والشركة قدما لنا أمل

الحصول على جزء من الأمر، أما ما يخص الفضة فلم تصل بعد إلى لندن.وفي 16 فيفري، عزمنا أن نرسل صوفيا إلى هامبورغ وبموافقة السيد Pinckney.

نتيجة تشجيع السادة Parish والشركة، استدعينا القبطان Crandon، ورأى أن ذلك يتناقض مع تعليماته، والتي تقضي بالعودة إلى لندن : وبما أن هناك شكوكا كبيرة حول اتجاهه إلى هامبورغ، فإن السيد Pinckney تنازل وأعطى أمرا إيجابيا للقبطان Crandon، والذي أثبت فائدته، ومباشرة وبعد وصول النصيحة من السادة Parish والشركة، تحصلوا على الدولارات في فترة قصيرة.

وبهذه المناسبة، وفي هذا التاريخ، راسلنا العقيد همفريز، عن طريق شراعية صوفيا وعن طريق مجموعة رسائل عرفناه بخيبة أملنا جملة وتفصيلا، والتي الحقناها بطلب من O'Brien برسائل اعتماد في مدريد وقادش، ومن أجل إنهاء الجزء الأول من هذا الموضوع، وتبريرا للسماح بعودة صوفيا ، وقد لاحظنا أنه لو حجزت السفينة لمدة ستة أشهر لأنجزنا نصف كمية الدولار الاسباني المطلوب، وفي 1مارس، نصحنا العقيد همفريز، أننا استلمنا قسطا كبيرا من السبائك، التي سحبت من القرنة، على حساب الحكومة البريطانية، وبما أن هذه الأموال سترسل إلى الجزائر، وظهرت فيما بعد على أنها موجهة لتحرير الأسرى الكورسكيين وفي 21 مارس، 29 أجوبة لرسائل همفريز الخاصة لحساباتنا، خاصة المؤرخة منها في 27 فيفري، و9 مارس، التي لم نشر إليها. والتي تشير أنه كان مرتاحا، ولم يظهر أي شيئ للرد علينا، وبما أن هناك سببا للتخوف من عدم تنفيذ المهمة في اسبانيا، إذ رفضت الحكومة

هنالك بالترخيص، ومع ذلك، ساعدت مساعي السادة جويس والأبناء Joyes and Sons وذلك من قبل الوزير الأمريكي أو المقيم.

في 1 أفريل راسلنا السادة بـ Fonnereau، في القرنة، ليس من أجل قرض ضروري، بل لنشرح لهم بطريقة كاملة وثقة، وطبيعة ومدى خيبتنا، مطالبين (بموافقة السيد Pinckney والعقيد همفريز) أن يرسلوا إلى الجزائر مثل هذه المعلومات حتى يقتنع الداي، إن التأخير في دفع الأموال غير ناتج عن نقص الإعتماد المالي، والرصيد، أو المساعي من طرف الولايات المتحدة، بل يعود ذلك أصلا إلى النزاعات السياسية في أوربا، التي قضت على القنوات المعتادة أو طرائق التعامل نقدا لهذا الغرض.

ليس من الضروري الإشارة إلى تواريخ الرسائل مادام هناك رأي واحد في الموضوع، وخاصة : « أنه لا بد من أن تنتهي المهمة في القرنة، وأن كلا من همفريز وPinckney يوصيان بإرسال الأموال إلى الجزائر في أقرب وقت ممكن .»

وفي 19 أفريل أجاب Fonnereau على رسالتنا الأولى ووعدنا باتباع أوامر العقيد همفريز، وبأنه سينقل إلى الجزائر كلما نود.

وفي 17 جوان أبلغهم Fonnereau أنه سيسلم لهم في ذلك اليوم، وبناء على أوامر صدرت من العقيد همفريز أن يدفع حوالة للسيد دونالدسون بقيمة 400.000 دولار أسباني، وقد أخبروا دونالدسون أنه سيتسلمها فورا.

وفي 19 جوان أطلع السيد دونالدسون السادة Fonnereau أن سيبقى المبلغ، وأنه عند لقائهم و... فإن سعر الدولار، قد سوي بشكل مرض مقارنة بسعر Agio.

وفي 20 جوان، سحب Fonnereau المبلغ المطلوب وفي 14 كتب يقول أنه دفع إلى السيد دونالدسون مبلغ 140.000 دولار. وبأمر من العقيد همفريز: يجب أن ينتهي هذا الأمر. وذلك بإعطاء السيد دونالدسون كمبيالة على حسابكم على حساب هامبورغ بما تبقى من 260.000 دولار والتي ... قدمت ليتفاوض وأن يقدم له وصل استلام لكامل 400.000 دولار، الذي تعهد بنقله إلى الجزائر، لكن هناك خلاف ما من جانبه. لا يسمح له بتوقيع الوصول إلينا، والتي تلقاها بالتأكيد نقدا.

وفي 22 جوان دخل الفرنسيون القرنة. وأبحر Fonnereau على متن فرقاطة انجليزية.

وفي 15 جويلية سحب السيد دونالدسون على حسابنا مبلغ 10.000 دولار

- وفي نفس التاريخ تم التحقيق حول ما سحبه السيد دونالدسون على حسابنا. وهل أعطينا أوامر سحب أكثر من 400.000 دولار.

فهذا التساؤل يؤدي بنا إلى المبلغ مع تقدير الممتلكات المنقولة التي بين أيدينا. وعن المبلغ الأصلي الذي أرسل إلينا. فإننا قد بعثنا 560 م دولار. إذ سقط سعر البيع في وقت ما إلى أدنى 82. واعتقدنا أن الحكومة سترفض البيع بسعر 90، وقررنا أن ندفع الدين قبل استحقاقه على قيمة ما تبقى. في انتظار تعويضاتنا في الوقت المحدد.

[illegible]

لقد وفرت [illegible] دولار على [illegible] حسب [illegible]
[illegible] بفارق [illegible] دولار [illegible] السعر [illegible] حسب الاسترليني
والسعر الحدي هو [illegible] حسب [illegible] دولار حسب
الجنيه الاسترليني ليكون [illegible]

المبلغ الكلي للمبيعات والمحولات [illegible]

فالإختلاس الكبير في الدولار الإسمي ناتج عن تحويل نقود من الودائع المصرفية التي بيعت بـ [illegible] سعر التكافؤ عن عمليات [illegible] المدفوعات تمت بالعملة الأجنبية [illegible] تحويل سعر [illegible] خاصة ما هو معمول به في القرنة والذي [illegible] في [illegible] لم يكن جاري العمل به منذ مدة.

فدفعاتنا هي كالتالي بالجنيه الاسترليني

قرض على هامبورغ 40 م دولار	[illegible]
حوالات Dohrman	[illegible]
تحويلات إلى العقيد همفريز	3.036
حوالته في 12 ديسمبر	455
دفع إلى O'Brien	31
دفع عدة الأشخاص الخاصة بالحصص المبيعة	2.49[illegible]

40 م دولار دفعها السيد دونلسون وحسب السعر 10.55.100 للكل واحد

34.110 +

99.118 =

القرض المتبقي من الدولارات هو 260 م والتي تشمل حوالات السيد دونالدسون والتي تم حسابها بنفس الرتبة، ليكون المبلغ على نسبس 5 جنيهات 65.000

المبلغ الكلي للدفعات 164.118

نفس المبيعات والمنقولات 156.653

دفع إليه مبلغ 2.497 جنيه استرليني عن طريق الحصص سيستعيد ثانية من أمريكا. وبالطبع، يبدو جوهري بالنسبة لوزير الولايات المتحدة

وفي ظل هذه الظروف المذكورة أعلاه، فإن الأمر أحيل إلى السيد King وما يجب أن يقوم به في هذه اللحظة.

فالسيد Fonnereau يقول أنه يمكن الاعتماد على ... قد أرسل إلى الجزائر المعلومات المطلوبة. إضافة إلى ذلك، أنه سيكون راضيا تماما في تلك الأماكن.

فالوضعية الراهنة في القرنة تظهر في الواقع عدم التبادل وأن حوالات السيد دونالدسون يجب التفاوض عليها في مكان آخر، فالإيطاليون يعرفون أكثر أن سحب الأوراق النقدية من القرنة بعد دخول الفرنسيين لا يمكن دفعها في لندن من غير ترخيص من هناك.

و Bonnie وشركاؤه ليس لديهم صعوبة فيما يتعلق بهذا [illegible] تعليمات بأخذ العلامات أو القيمة التي [illegible] (الولايات المتحدة) موجودة تحت تصرف العقيد [illegible] [illegible] دولار مقابل [illegible] [illegible] وفي التبعات الموسعة وقيمة [illegible] [illegible] غير أن [illegible] [illegible] فيما يتعلق بموضوع [illegible]

[illegible] كل من [illegible] ومستقلة [illegible] الاحتمالات التي [illegible] عصرية [illegible]

Kee

التبعات والقيمة المفترضة [illegible]

الحصص [illegible]

المجموع [illegible]

العجز [illegible]

يفترض أن [illegible] الولايات [illegible] [illegible]

[illegible]

وهذه تقديرات قدمت حول تكاليف وشحن العتاد البحري الواجب تقديمه للجزائر في السنة الأولى والثانية من السناهيه لداي وإيالة الجزائر، وذلك بتاريخ 19 ديسمبر 1796.

1000 برميل من البارود	15.000.000 استرليني
2000 من ألواح خشب الصنوبر	6.000.000 استرليني
3000 من خشب الصنوبر	4.500.000 استرليني
2000 عصا صنوبرية	50.000 استرليني
100 دزينة من فرشاة القطران	100.000 استرليني
34 كوابلا، 80 طنا	10.800.000 استرليني
10 حبال من النوع الأبيض تزن 11.200 رطلا	500.000 استرليني
05 أطنان من الخيط	975.000 استرليني
100 لسان القفل	550.000 استرليني
03 أطنان من الرصاص	120.000 استرليني
05 أطنان من المسامير	3.957.100 استرليني
2000 قذيفة مدفع	650.000 استرليني
....	
المجموع :	114.246.63 دولار
يضاف إليها قيمة الشحن بالجزائر	3.000.000
....	
المجموع :	144.246.63 دولار

توقيع المموّل : Tench Francis

19 ديسمبر 1796.

هذه هي كل التقديرات الرسمية والمراسلات التي ضبرت حول المسألة الجزائرية، غير أن هذه المصاريف الضخمة ليست الخسارة الوحيدة التي تحملها الأمريكيون. فقد قدموا بمصاريف إضافية في تجهيز عدد من السفن، طبقا لقانون الكونجرس الذي وافق عليه مباشرة بعد الأسر الجزائري، فقد خول الكونجرس للرئيس سلطة شراء وبناء مجموعة سفن، لحماية تجارة الولايات المتحدة ضد الجزائريين. وهناك موضوع آخر يستحق إضافته في الحسبان هو فقدان إحدى عشرة سفينة أمريكية، وحمولتها، والتي في غالبها ذات قيمة.

فقد باع الداي العديد من هذه السفن بثمن معتبر إلى القنصل السويدي بالجزائر. والذي يستعملها الآن في تجارة المشرق. فقيمة هذه السفن وحمولتها، مع المصاريف الكبيرة المحتملة التي لم تعد. تصل قيمتها على الأقل إلى 180.00 دولار. والتي تضاف إلى المبلغ الكلي، كما أشار إلى ذلك كاتب الدولة للخزانة، أنها بلغت 1.172.446 دولار و25 سنتا، إنه المبلغ الذي فقده شعب الولايات المتحدة بسبب الاعتداءات القرصانية للدولة اللئيمة.

الفصل الخامس

المعاهدة الجزائرية والطرابلسية

جورج واشنطن

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

إلى جميع أولئك الحاضرين، أو القادمين أن يكونوا على علم.

حيث أن معاهدة سلام وصداقة قد عقدت بالطريقة المشار إليها في ما يلي، من قبل الوزير المفوض كامل الصلاحية للولايات المتحدة الأمريكية، وداي وإيالة الجزائر، وكتبت هذه المعاهدة باللغة العربية، وأنها ترجمت إلى لغة الولايات المتحدة، فهي حسب الكلمات التالية، للعلم:

وقعت معاهدة سلام وصداقة في اليوم الحالي، في الواحد والعشرين من شهر صفر للسنة الهجرية 1210، الموافق ليوم السبت، الخامس من سبتمبر، ألف وسبعمائة وخمسة وتسعون، بين حسن باشا، داي الجزائر، وديوانه ورعاياه، وجورج واشنطن، رئيس الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية، ومواطني الولايات المتحدة المذكورة.

هذه ترجمة لمواد المعاهدة مأخوذة من النص الإنجليزي للترجمة الأولى 1795.

المادة الأولى :

تبيّن المادة الأولى أنه في هذه السنة 1210هـ تم التوصل إلى اتفاق بين حاكم أمريكا، جورج واشنطن، الرئيس، صديقنا والحاكم الحالي لولايات جزر أمريكا، وسيد حاميتنا بمحروسة الجزائر، سمود النبيل حسن الباشا، الداي يمنحه اللّه ما يريد ، علاوة على الآغاوجيثه المنتصر، ووزيره، وكل أعضاء الديوان، وكافة جنوده المنتصرة، وعلى حد سواء رعايا كلا الطرفين، وطبقا لهذا الاتفاق فإن سلامتنا وصداقتنا ستبقى وطيدة وتم تأكيدها. وأنه بعد هذا التاريخ لم يترك شيئ يزعج سلامنا أو يمكن تشويهه.

المادة الثانية :

تبين المادة الثانية أنه عندما تصل سفن صغيرة أو كبيرة خاصة لصديقنا حاكم أمريكا، وبالمثل سفن تابعة لرعاياه، إلى ميناء الجزائر، أو أي ميناء آخر تابع للجزائر، وتبيع من سلعها طبقا للعرف السابق، فإنه يؤخذ منها 5 بياستير من كل مئة بياستير، وبنفس الطريقة التي تدفع فيها، طبقا للمعاهدات المبرمة مع الإنجليز، والهولنديين، والسويديين، ولا يؤخذ أكثر من ذلك. وإن أرادت أخذ بضاعتها التي لم تباع وإعادة شحنها. ولا أحد يطلب منهم شيئ وكذلك لا يقوم أحد في الموانئ المذكورة بإيذائهم أو يلقي القبض عليهم.

المادة الثالثة :

تبين بيانات المادة الثالثة أنه إذا التقت سفن حربية أو تجارية تابعة لصديقنا الحاكم الأمريكي في عرض البحر مع سفن حربية أو تجارية تابعة للجزائر، وعرف بعضهم البعض. لا يسمح لها أن تفتش أو تؤذي الآخر، ولا أحد يعوق الآخر من مواصلة سبيله بكل اجلال واحترام. أيضا، ومهما كان نوع المسافرين على ظهر السفينة. وحيثما اتجهوا مع سلعهم، وأشيائهم الثمينة وممتلكاتهم الأخرى، فإنه لا يؤذي أحدهما الآخر أو يأخذ أي شيئ من الآخر، ولا يأخذهم إلى مكان ما ويلقي القبض عليهم، ولا يجرح أحد الآخر بأية طريقة.

المادة الرابعة :

تبين المادة الرابعة أنه إذا التقت سفن حربية للجزائر مع سفن تجارية أمريكية صغيرة أو كبيرة، وحدث هذا خارج الأماكن الواقعة تحت سلطة أمريكا، فإنها ترسل شالوب فقط، الذي يحمل جانب الجذافين، شخصين يأخذان موقعهما، عند وصولهما ولا يصعد إلى ظهر السفينة سوى شخصين يأخذان موقعهما، بعد أن يأذن لهما قائد المذكورة، وبعد استظهار جواز الحكومة، فإن هذين الشخصين يقومان بالرسميات بسرعة فيما يخص السفينة، ثم يعودان، عندها تتابع السفينة التجارية سبيلها. أيضا، إذا التقت سفن حربية للحاكم الأمريكي مع سفن حربية أو سفن تجارية جزائرية، وأن هذه السفن لها جواز مرور سلم من حاكم الجزائر أو من القنصل الأمريكي مقيم بالجزائر، لا يمكن لأحد أن يمس

باي شيئ ما يتعلق بالسفينة المذكورة، بل أنها ستواصل طريقها بسلام. ايضا، أن السفن الحربية الجزائرية، كبيرة أو صغيرة، لا تمس السفن الأمريكية التي ليس لها جوازات مرور أمريكية خلال فترة ثمانية عشرة شهرا بعد تاريخ تقديم الجوازات بسبب معاهدة السلم وبعد تاريخ معاهدة السلم، وأنها لا تعوقهم من مواصلة سيرهم، وعلى حد سواء، إذا التقت سفن حرب للحاكم الأمريكي مع السفن الجزائرية، فإنها لن تمنعها من مواصلة رحلتها في نفس الطريق، وذلك خلال فترة ثمانية عشرة شهرا، غير أنها تتابع طريقها بشكل آمن. ايضا، أن صديقنا الحاكم الأمريكي لن يسلم جوازا لأي طاقم ليس تحت سلطته ولا هو تابع لشعبه. وإذا وجد جواز أمريكي في أيدي طاقم لا ينتمي لشعبه، فإننا سنلقي القبض عليه كغنيمة، لأن ذلك لم يكن ضمن شروط معاهدة السلم هذه.

وقد تم شرح هذا في هذه المادة من أجل قطع علاقات السلام.

المادة الخامسة :

تبين بيانات المادة الخامسة أنه لا أحد من قادة السفن الجزائرية أو ضباطهم أو قادتهم أن يأخذوا أي شخص عنوة من السفن الأمريكية إلى سفنهم أو بإحضار مثل هذا الشخص إلى أماكن أخرى، وأنَه لن يستوجبهم على أساس أي شيئ أو القيام بإيذائهم، ومهما كانت نوعية الناس، ومادام هؤلاء متواجدون على السفن الأمريكية، فإنه لا يمكن إيذاؤهم.

المادة السادسة :

تبين بيانات المادة السادسة أنه إذا جنحت سفينة للحاكم الأمريكي أو تابعة لرعاياه في إحدى سواحل الإقليم الخاضع لحكم الجزائر وتحطمت، فإنه لا يمكن لأي شخص أن يأخذ أي شيئ من ممتلكاتهم أو سلعهم أو نهبهم، أيضا، وإذا حدث مثل ذلك، فإن سلعهم لا تؤخذ إلى إدارة الجمرك، ولا القيام بأي ضرر لأصحابها، وإن حدث نفس الشيئ في الأماكن الواقعة تحت سلطة الجزائر، فإنه على السكان أن يقوموا بما في وسعهم لتقديم مساعدة وعون ممكنين ومساعدتهم لجلب سلعهم إلى اليابسة.

المادة السابعة :

تبين بيانات المادة السابعة أنه لا يمكن لأي سفينة جزائرية، صغيرة أو كبيرة، والتي لها ترخيص وسلطة من حاكم الجزائر، أن تجهز من بلدان هي في حرب مع حاكم أمريكا وأنها ارتكبت أعمالا حربية ضد الأمريكيين. 21 صفر 1210.

المادة الثامنة :

تبين المادة الثامنة أنه إذا اشترى تاجر أمريكي غنيمة في الجزائر أو أن قبطان سفينة جزائرية هو الذي استولى على غنيمة في عرض البحر وباعها لتاجر أمريكي، إما في الجزائر أو في البحر، ومن ثم تشتري

مباشرة من القبطان، بعدها تصاغ وثيقة بهذا البيع، وإن التقى بعدئذ بسفينة حربية أخرى من الجزائر، فلا أحد سيضايق هذا التاجر الذي اشترى هذه الغنيمة، ولن يمنعه من متابعة طريقه سلميا.

المادة التاسعة :

تبين المادة التاسعة أنه إذا قام سكان تونس وطرابلس، وسلا، أو آخرون بطريقة غير سليمة لإحضار أناس أو سلع لسفن أمريكية، كبيرة أو صغيرة، إلى الإقليم الواقع تحت سلطة الجزائر، فإن الجزائر لن ترخص لهم ببيعها ولا بالسماح بأن تباع .21 صفر 1210.

المادة العاشرة :

تبين بيانات المادة العاشرة أنه إذا أحضرت السفن الحربية لحاكم أمريكا إلى الجزائر، أو إلى موانئ تحت سلطة جزائرية، غنائم أو سلع قبضت عليها، فإنه لا أحد يعيقها من العمل مع غنائمها كما تريد، أي، بيعها أو أخذها معا. أيضا، فإن السفن الحربيةالأمريكية لا تدفع أي عشر أو ضريبة، مهما كانت أيضا، إذا أرادت شراء شيئ ما . علاوة على ذلك، إن أرادت شراء شيئ من المؤن، على السكان أن يقدموا لهم ذلك بنفس السعر الذي يبيعون به لغيرهم ولا يطلبون الزيادة.

وفوق ذلك، إن أراد هؤلاء الناس أن يؤجروا سفنا لنقل البضائع إلى أي منطقة، أو مقاطعة، أو ميناء، فليكن من سميرنا أو من القسطنطينية إلى هذه المنطقة، أو لنقل المسافرين من سميرنا أو مقاطعات أخرى، أو من أجل نقل الحجاج إلى مصر، يمكنهم أن يؤجروا تلك السفن بسعر

معقول، بنفس الطريقة مثل غيرهم، ومن جانبنا لا يعارضون بحجة أن ذلك يعد تهرّب، أو أن ذلك غير مسموح بيننا. ومن ثم لا نسمح لتلك السفن بالإقلاع.

المادة الحادية عشر :

تبيّن بيانات المادة الحادية عشر أن السفن الحربية التابعة لصديقنا الحاكم الأمريكي تأتي لترسو قبالة الجزائر، وأن عبدا يمكن أن يكون أمريكيا، أو من جنسية أخرى يلجأ إلى ظهر سفينة حربية من هذه السفن، فإن حاكم الجزائر يمكن أن يطالب بهذا العبد، وبموجب هذا الطلب فإنه على قائد السفينة الحربية أن يجبر العبد الهارب على مغادرة سفينته ويسلمه إلى حاكم الجزائر، وإن لم يجد هذا العبد ووصل إلى بلد الكفار، فإنه على قائد السفينة أن يتعهد بإعادته وتسليمه للجزائر.

المادة الثانية عشر :

تبين بيانات المادة الثانية عشر أنه منذ الآن فصاعدا فإن رعايا الحاكم الأمريكي لا يشترون ولا يباعون، ولا يؤخذون كعبيد، في الأماكن الخاضعة لسلطان الجزائر، أيضا، بما أن هناك صداقة مع الحاكم الأمريكي، فإنه لن يلزم تحرير عبيد ضد إرادتهم والتابعين له، لكن ذلك سيتم في الوقت الذي يشاء فيه ذلك وأن ذلك يعتمد على سخاء الأصدقاء وأقارب العبيد.

وفوق ذلك، فإنه لا تحدد فترة زمنية أو شرط لتحرير الأسرى، وأن المبلغ الذي يتفق عليه يدفع في الوقت المستحق الآداء، وأنه لن تجرى

مفاوضات بشأن قيمة مسؤولي العبيد : ولا أحد يجبر القادة على بيع عبيدهم بسعر اعتباطي، سواء كانوا عبيد الدولة، أو غيرهم، أو عبيد الباشا، غير أنه إذا ما كان الأشخاص الذين حرروا رعايا أمريكيين، فإن معاملتهم تكون في هذه الظروف مثل غيرهم.

أيضا، أنه إذا ما أسرت سفن حربية جزائرية سفنا تابعة لدولة ما، وهي في حرب معها، ووجد ضمن الطاقم أمريكيون، فإنهم لا يعتبرون عبيدا إذا ما كان عندهم جواز ولا يتعرضون لأذى في شخصهم وممتلكاتهم، غير أنه إذا لم يكن في حوزتهم جواز، فإنهم سيصبحون عبيدا وتؤخذ ممتلكاتهم وسلعهم.

المادة الثالثة عشر :

تبيّن بيانات المادة الثالثة عشر أنه في حالة وفاة أحد من تجار الحاكم الأمريكي أو أحد من رعاياه في الجزائر أو في إحدى البلدان التابعة للجزائر، فإن حاكم الجزائر أو أشخاص آخرين لن يمسّوا بأي طريقة أموال المتوفى، وممتلكاته أو سلعه، وإن اختار قبل وفاته منفذ الوصية، فإنه لا أحد يمس أي جزء من ممتلكاته أو سلعه. أيضا، إذا كان منفذ الوصية حاضرا في الجزائر أو لم يكن هناك. طبقا لذلك، فإن الشخص المعين كمنفذ من المتوفى سيأخذ الممتلكات والسلع، ولا أحد آخر يلمس أصغر جزء منها، وعند إتمام ذلك، يقوم المنفذ أو الشخص المفوّض من قبله كممثل له يجرد ممتلكاته ويأخذها، ويقوم بإرسالها في

الوقت المناسب للوريث. أيضا، وإذا لم يحضر أحد رعايا الحاكم الأمريكي، فإن القنصل الأمريكي سيقوم بالجرد لأموال وسلع المتوفى المذكور ويأخذها ويحافظ عليها حتى يصل أحد أقاربه الذين يعيشون في بلدهم.

المادة الرابعة عشر:

تبيّن بيانات المادة الرابعة عشر أنه لا يلزم التجار الأمريكيون المتواجدون سواء في الجزائر أو في إحدى البلدات التابعة لها على شراء السلع التي لا يرغبون فيها، بل هم أحرار في شراء ما يرغبونه. أيضا، أنه لا تضايق السفن القاصدة موانئ الجزائر بهذه الطريقة أي أنهم لا يجبرون على حمل ما لا يريدون. وفوق ذلك، فإنه لا القنصل الأمريكي ولا غيره يتحمل مسؤولية في حالة عدم دفع رعية أمريكية لدين غير قادر على تسديده، ما عدا بعض الأشخاص، وهم أحرار في ذلك مقيدون أمام الدائن.

المادة الخامسة عشر:

تبين بيانات المادة الخامسة عشر أنه إذا ما كان لرعية من رعايا الحاكم الأمريكي دعوى قضائية مع مسلم أو أحد خاضع لسلطة الجزائر فإن الدعوى القضائية المذكورة يجب تسويتها بحضور فخامة الداي والديوان الموقّر، ومن غير تدخل أي شخص آخر. وإن حصلت هذه

الدعوى بين مواطنين أمريكيين، فإن القنصل الأمريكي سيفصل في نزاعهما.

المادة السادسة عشر :

تبيّن بيانات المادة السادسة عشر أنه إذا تشاجر أحد رعايا الحاكم الأمريكي مع مسلم، وجرح أحدهما الآخر أو قتله، فإن كل واحد منهما سيعاقب طبقا للقواعد القانونية لبلديهما، يعني، طبقا للعرف الجاري في كل الأماكن الأخرى من ناحية ثانية، إذا قتل أمريكي مسلما وفر وهرب بعد القتل، فإنه لا القنصل الأمريكي بالجزائر ولا الأمريكيون الآخرون ملزمون على الإجابة عنه.

المادة السابعة عشر :

تبين بيانات المادة السابعة عشر أن القنصل الأمريكي الآن ومستقبلا، من غير اعتبار من هو، سيكون حراً في التنقل من غير خوف، كما أنه لا يضايقه أحد في شخصه أو في سلعه. أيضا، أنه بإمكانه أن يعين أي شخص يفضله كترجمان أو سمسار. أيضا، أنه متى رغب أن يذهب في سفينة أو القيام بالتنزه خارج المدينة، فإنه لا يعترضه أحد. وفوق ذلك، يجب تحديد مكان لممارسة طقوسهم الدينية المفقودة، وعلى أن يقم فيه راهب يحتاجونه للوعظ الديني. ومن ثم فإنه يمكن للعبيد الأمريكيين الموجودين في الجزائر، سواء تابعين للحكومة أو لأشخاص

آخرين، أن يقصدوا دار القنصل ويمارسوا طقوسهم الدينية العقيمة. من غير عائق من مسؤول حراسة العبيد أو من ربانهم.

المادة الثامنة عشر :

تبيّن بيانات المادة الثامنة عشر أنه يربطنا الآن سلام وصداقة، لكنه إذا حدث مستقبلا قطع حالة سلامنا وصداقتنا الحالية، وأن هناك سبب من كلا الجانبين، فإن القنصل الأمريكي ومن معه من رعايا الحاكم الأمريكي سواء بالجزائر أوفي المناطق التابعة لها لا يمكن إيذاؤهم سواء في السلم أو في الإضطراب، وأنه عندما يرغبون في الرحيل، لن يمنعهم أحد من المغادرة مع سلعهم، وممتلكاتهم وأمتعتهم وخدمهم، حتى ولو أن مثل هذا الشخص ولد في الجزائر.

المادة التاسعة عشر :

تبيّن بيانات المادة التاسعة عشر أن رعية من رعايا الحاكم الأمريكي حيث اتجه أو قدم وإلى أي نوع من الناس ينتمي لا يضايق في شخصه، وسلعه وممتلكاته، وأمتعته، أو خدمه، في حالة لقائه مع سفن جزائرية، كبيرة أو صغيرة. وبالمثل، إذا وجد جزائريون على ظهر سفينة تابعة لأعداء الحاكم الأمريكي فإنهم لا يضايقون بأي حال في أشخاصهم، وممتلكاتهم، وسلعهم، وأموالهم أو خدمهم، غير أن ممتلكات هؤلاء الأشخاص لا ينظر إليها بازدراء، وسيعاملون دائما بطريقة ودية.

المادة العشرون :

تبين بيانات المادة العشرون أنه في كل وقت، يصل فيه قائد البحرية للملك الأمريكي، صديقنا، بعيدا عن الجزائر، فإن القنصل الأمريكي يخبر القائد كلما اقتربت السفينة من الرؤية، وبعد إرساء القبطان المذكور أمام الميناء، فإن قائد الجزائر، وتكريما للحاكم الأمريكي، يأمر بالتحية بإطلاق 21 طلقة نارية من القلعة، وبعد ذلك يرد قبطان الحاكم الأمريكي طلقة بطلقة، وبما أن هذه السفينة هي سفينة الملك، ستقدم لها مؤن طبقا للعرف وتشريفا للملك.

المادة الواحد والعشرون :

تبيّن بيانات المادة الواحد والعشرون أنه لا يطلب رسم أو ضريبة على السلع الموجهة إلى بيت القنصل الأمريكي، والمكونة أساسا من المأكولات والمشروبات، ومستلزمات أخرى.

المادة الثانية والعشرون :

تبين بيانات المادة الثانية والعشرون أنه إذا حدث اضطراب من هذا الوقت وما بعده فإن علاقاتنا السلمية، مهما كان ذلك من أحد الجانبين، فإن هذا لن يقطع سلامنا، بل أن السلام يجب أن يستمر وأن صداقتنا لن تعكر، فالشخص المجروح، مهما كان انتماؤه إلى طرف، سيطلب العدل، ومهما يكن، فإن الخطأ والإثم يقعان على كلا الطرفين، أو من جهة رعيةّ، ويبقى الأمر سراً، فإيماننا في صداقتنا سيبقى وكلمتنا ستبقى كما كانت عملياً.

في الواحد والعشرين من الشهر القمري صفر 1210، الموافق للخامس من سبتمبر 1795. وافق جوزيف دونالدسون Donaldson Joseph من جانب الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية مع الباشا حسن، داي الجزائر للوفاء بالمواد الواردة في هذه المعاهدة المقدسة والتي لا تنتهك، والتي تخص الداي والديوان عاهدنا على التقيد بها على اعتبار أن الولايات المتحدة ستدفع سنويا قيمة إثني عشر ألف سكوين جزائري في العتاد البحري، وإن شحنت كمية أكبر، فإن الزيادة ستدفع قيمتها بالمال، من قبل داي الجزائر، وأن أي سفينة يلقي عليها القبض من تاريخ معاهدة السلم والصداقة هذه سيطلق سراحها فورا حال وصولها إلى الجزائر.

التوقيع : الوزير حسن باشا

جوزيف دونالدسون

«وُضِعَ ختم الجزائر في أدنى المعاهدة بالعربية».





إلى جميع أولئك الحاضرين، أو القادمين أن يكونوا على علم

مقدمة، أنا الموقع أدناه دافيد همفريز، قد عينت في حينه كوزير مفوض برسائل براءة وبتوقيع الرئيس وختم الولايات المتحدة الأمريكية، بتاريخ 30 مارس 1795، للتفاوض وإبرام معاهدة سلام مع داي وولاة الجزائر، بحيث زودت بتعليمات من قبل السلطة التنفيذية بتاريخ 28 مارس و4 أفريل 1795. علاوة على ذلك أنه قد زودت بسلطة استعمال جوزيف دونالدسون، الأصغر، في وكالة، في المهمة المذكورة، وذلك بخط يده وختمه، بتاريخ 21 ماي 1795. منح سلطة وعين جوزيف دونالسون، الأصغر، وكيل في المهمة المذكورة، قام السيد جوزيف دونالسون، الأصغر بمهمته في 5 من سبتمبر 1795، بالاتفاق مع حسن باشا، داي الجزائر والوفاء بمواد المعاهدة السابقة من حيث التكريس والمناعة.

فلتعلمو الآن أنني دافيد همفريز، الوزير المفوض المذكور أعلاه أوافق وأبرم المعاهدة المذكورة، وكل مادة وفقرة واردة فيها، وعلى الرغم من ذلك احتفظ في ذات الوقت بالتصديق النهائي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وبنصيحة وموافقة مجلس شيوخ الولايات المتحدة.

وبشهادة مني أوقع المعاهدة بيدي وختمي، في مدينة لشبونة، في يوم 28 نوفمبر 1795.

الختم والتوقيع : دافيد همفريز

للعلم، أنا جورج واشنطن، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قد اطلعت ودرست المعاهدة المذكورة آنفا، يعمل بنصيحة وموافقة مجلس

الشيوخ، على قبول، وتصديق، وتأكيد المعاهدة، لكل فقرة ومادة وردت فيها، وفي الأخير يمكن القول أن هذه المعاهدة يمكن الحفاظ عليها والوفاء بها بأمانة من جانب الولايات المتحدة، لقد أمرت بنشر المقدمة لتكون عامة. وسأعمل بموجب هذه الوثيقة على فرض وطلب جميع الأشخاص الذين لهم سلطة مدنية أو عسكرية داخل الولايات المتحدة، وكل المواطنين الآخرين أو الساكنين، أن يحترموا وينفذوا هذه المعاهدة، وكذا كل المواد والفقرات الواردة فيها. وبشهادة مني، أضع ختم الولايات المتحدة الأمريكية على هذه الوثائق، وأوقع نفس الوثيقة بيدي.

حررت في مدينة فيلادلفيا، في السابع من مارس، ألف وسبعمائة وستة وتسعون، وفي الذكرى العشرون من استقلال الولايات المتحدة.

جورج واشنطن

عن الرئيس

«Pickering Timothy»

كاتب الدولة للخارجية

عقد معاهدة سلام وصداقة، في 4 نوفمبر 1796. بين الولايات المتحدة الأمريكية وباي ورعايا طرابلس البربارية، مع بيان وإعلان تصديقها.

جون آدامس

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية،

إلى جميع أولئك الحاضرين والقادمين، تحية ، حيث أن معاهدة سلام وصداقة قد وقعت بالطريقة المذكورة آنفا، من قبل الوزير المفوض للولايات المتحدة وباي ورعايا طرابلس البربارية، والتي كتبت باللغة العربية وترجمت إلى لغة الولايات المتحدة، وهي بالكلمات التالية وللعلم:

معاهدة سلام وصداقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وباي ورعايا طرابلس البربارية.

الشرط الأول

على أنه اتفقنا صلحا تاما صحيحا بالدوام لا تبديل فيه ولا تغيير أولا وأخيرا، على الدوام مع المركان ومع سيدنا المحترم السيد يوسف باشا بمحروسة طرابلس أيده الله وديوانه كذلك والذي فعلناه بيننا بقلب صافي من جانبنا ومن جانبهم وهذا الصلح مفضوض ومفصل على يدي سيدنا ومولانا المحترم المعظم مولانا الدولاتني السيد حسن باشا بمحمية الجزائر أيده الله آمين.

الشرط الثاني

قد اتفقنا على أن جميع السلعة التي تكون في مراكب المركان لا يقدر يكسر عليهم الحرم وفي مراكب طرابلس وكذلك مراكب طرابلس حين يكون بالسلعة لا يتعدى عليهم أحد في مراكب المركان من القرصان وهكذا لا من عندنا ولا من عندكم من جهتين اثنين.

الشرط الثالث

إن وجد أي مواطن، رعايا، ممتلكات منقولة تعود لأحد الطرفين على ظهر سفينة غنيمة وأخذت من عدو، من الطرف الآخر، فإن مثل هؤلاء الرعايا والمواطنين يطلق سراحهم، وتعاد الأملاك المنقولة لما لكيها.

الشرط الرابع

تسلم جوازات خاصة إلى جميع سفن كلا الطرفين، حتى يتعرفا على بعضهما البعض، واعتبارا للمسافة بين البلدين، يسمح بثمانية عشرة شهرا من تاريخ المعاهدة لإنجاز مثل هذه الجوازات. وخلال هذه الفترة فإن الأوراق الأخرى الخاصة لمثل هذه السفن ستكون كافية لحمايتها.

الشرط الخامس

إن اشترى مواطن أو رعية من أحد الجانبين غنيمة مدانة من طرف، أو من أي دولة أخرى، فشهادة الإدانة ، ووثيقة البيع كافيتان كجواز لمثل هذه السفينة لسنة واحدة، فذلك وقت معقول لها لإنجاز جواز خاص بها.

الشرط السادس

فسفن أي من الطرفين ترسو في موانئ الآخر، وتحتاج إلى مؤن أو زاد آخر،ستزود وبسعر السوق، وإن تعرضت أية سفينة لكارثة في البحر، ولها فرصة إصلاح، يسمح لها بإنزال وإعادة شحن حمولتها، دون أن تدفع أية رسوم. وأنها لا ترغم بإنزال حمولتها.

الشرط السابع

إذا وقع مركب من مراكب أحد الطرفين على الشاطئ الآخر، فإنه لابد من تقديم كل الدعم لها ولأفرادها، ولا يسمح بالنهب، وتبقى الملكية تحت تصرف أصحابها، وحماية الطاقم وإسعافه حتى يتمكنوا من العودة إلى وطنهم.

الشرط الثامن

إن هوجمت سفينة أحد الطرفين من عدو بطلقة مدفعية من داخل قلاع الطرف الآخر، ستدافع عن نفسها قدر الإمكان، وإن كانت في الميناء فلا تحجر أو تهاجم عند ما يكون بإمكان الطرف الآخر حمايتها، ولا يسمح لعدو بملاحقتها عند ما تبحر من نفس الميناء إلا بعد أربعة وعشرون ساعة من إقلاعها.

الشرط التاسع

يجب حماية التجارة بين الولايات المتحدة وطرابلس، وقادة السفن، والبحارة، الحق المتبادل في إقامة قناصل في كل بلد، والامتيازات، والحصانات، والسلطان القضائي الذي يتمتع به مثل هؤلاء القناصل، يصرح بها لتكون على قدم المساواة مع الدول الأكثر حظوة على التوالي.

الشرط العاشر

دفعت الأموال والهدايا المطلوبة من باي طرابلس، وكان لها ارتياح معتبر من جانبه، ومن جانب رعاياه لمعاهدة السلم والصداقة الأبدية، فقد أقروا باستلامها قبل توقيع المعاهدة، وذلك طبقا للوصل الملحق هنا، باستثناء جزء وعدت به الولايات المتحدة ليسلم ويدفع من قبلهم عند وصول القنصل إلى طرابلس، وبطريقة مماثلة تلحق مدونة بهذه الوثيقة، ولا ذريعة لأي جزية دورية أو مبالغ إضافية يقدمها أي طرف.

الشرط الحادي عشر

بما أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ليست بأي معنى من المعاني قائمة على الدين المسيحي وبما أنها لا تحمل عداوة ضد الشرائع والدين أو سكينة المسلمين ، كما أن هذه الولايات لم تدخل إطلاقا في أي حرب أو عمل عدائي ضد أية دولة إسلامية، فقد أعلن الطرفان إذن لاذريعة تنشأ من الأفكار الدينية تسبب إعاقة التوافق الموجود بين البلدين.

الشرط الثاني عشر

في حالة أي نزاع ناجم عن خرق أي مادة من هذه المعاهدة فلا يمكن اللجوء إلى الأسلحة، ولا تعلن حرب مهما كانت الذريعة ، غير أنه إذا حصل خلاف في المكان الذي يقيم فيه القنصل وإن تعذر حل ذلك الخلاف، يرجع إلى سند سلمي، أي اللجوء إلى الصديق المشترك للطرفين، داي الجزائر، عندها يلتزم الطرفان إلى الإذعان لقراره. واستنادا إلى توقيعه لهذه المعاهدة، يلزم نفسه ومن يأتي بعده. يعلن بإنصاف القضية طبقا لتفسير حقيقي للمعاهدة، ويستعمل كل الوسائل في سلطته لتعزيز الرقابة على المعاهدة.

وقعت وختمت في طرابلس البربارية، في الثامن من جمادى، من السنة الهجرية 1211هـ الموافق للرابع من نوفمبر 1796.

مامت أمين الصندوق

أمت (أحمد) وزير البحرية

أمت (أحمد) الحاجب

علي رئيس الديوان

سليمان كايا ....

قاليل– قائد الجيوش

محمد – قائد المدينة

مامت – خوجة

وقعت وختمت بالجزائر في 4 من أمر «Argil» 1211، الموافق للثالث من جانفي 1797.

وقعها الداي **حسن باشا**

والوكيل المفوض للولايات المتحدة الأمريكية

جويل بارلو

أنا جويل بارلو، وكيل وقنصل الولايات المتحدة الأمريكية لمدينة ومملكة الجزائر، أصدق وأشهد أن ما سبق هو نسخة أصلية للمعاهدة، وقعت بين الولايات المتحدة، وباي ورعايا طرابلس البربارية، وأن الأصل حول من قبلي إلى وزير الولايات المتحدة المقيم بلشبونة.

وقعت هذه الوثيقة بيدي ووضعت بعدها ختم الولايات المتحدة بالجزائر، في الرابع من جانفي 1797.

جويل بارلو

ليكن في علم الجميع ما يلي:

حيث أنا الموقع أدناه «دافيد همفريز Humphreys David» الذي عينت كما ينبغي مفاوض كامل الصلاحية وبظهير، بتوقيع وختم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، بتاريخ 30 مارس 1795، لتفاوض وعقد معاهدة سلام مع الأكثر شهرة، الباشا، وأشراف وولاة مدينة ومملكة طرابلس: وذلك بخط يده وتوقيعه، بتاريخ 10 فيفري 1796، قام - طبقا للسلطة الممنوحة لي فيما بعد- بتنصيب وتعيين جويل بارلو، و«جوزيف دونالدسون Donaldson Joseph» كوكيلين، معا، أو كل واحد على حدة، في المهمة المذكورة سابقا: حيث أن معاهدة السلام والصداقة الملحقة، وقع الاتفاق عليها، وقعت وختمت في طرابلس البربارية في 4 من نوفمبر 1797، مع توقيع وختم حسن باشا، الداي، وجويل بارلو، أحد الوكيلين المذكورين آنفا.

ولتعلموا الآن ، أنا دافيد همفريز، المفاوض وكامل الصلاحية المذكور سابقا، أوافق وأعقد المعاهدة المذكورة ، وكل ما ورد فيها من مواد وفقرات، على الرغم أنني أحتفظ بالتصديق النهائي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية، مع مشورة وموافقة مجلس الشيوخ للولايات المتحدة الأمريكية.

إثباتا مني ، أنا الموقع للوثيقة ذاتها باسمي وختمي في مدينة لشبونة في 10 من فيفري 1797.

دافيد همفريز

أنا «جون آدامس Adams John»، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، قد اطلعت ووافقت على المعاهدة المذكورة، وباستشارة وموافقة مجلس الشيوخ، أقبل وأصادق، وأؤكد على نفس الوثيقة، بكل

المواد والفقرات الواردة فيها، وفي النهاية فإن المعاهدة المذكورة يمكن الحفاظ عليها والوفاء بها بحسن النية من جانب الولايات المتحدة، وقد أمرت بطبعها وتوزيعها، وبهذا أوصي وأطلب من الجميع الذين لهم مسئولية مدنية أو عسكرية ، داخل الولايات المتحدة، وكل المواطنين الآخرين أو السكان أن يحافظوا وينفذوا بكل إخلاص المعاهدة المذكورة وكل ما ورد فيها من مادة أو فقرة.

وإثباتا مني، فقد وضعت ختم الولايات المتحدة الأمريكية وثبته على هذه الوثائق ووقعتها بيدي.

حرر في مدينة فيلادلفيا، في اليوم العاشر من جوان، من عام ألف وسبعمائة وسبعة وتسعون، الموافق للواحد والعشرين من استقلال الولايات المتحدة.

جون آدامس

نيابة عن الرئيس ، «تيموثي بيكيرينق Pickering Timothy»

كاتب الدولة للخارجية

انتهى قسم التاريخ



وصف مملكة الجزائر

أرضها وسكانها

الفصل 1

تقسيمها، الأودية، التربة، المناخ والإنتاج، الحيوانات، آثار العصور القديمة والأشياء الغريبة، السكان، العادات والسلوك، الملابس، اللغة، القراصنة والتجارة، الدخل الحكومي، الحكومة، العقوبات والدين.

تقع مملكة الجزائر بين درجتي 32 و 37 شمال خط العرض، الذي يوافق خط الولايات المتحدة قرب الحدود الجنوبية لفرجينيا نحو قرب نهر «Savannah» في جورجيا، وبين درجتي 76 و84، 20 دقيقة شرق خط العرض من فيلادلفيا.

ويمتد على 480 ميلا طولا من الشرق إلى الغرب على طول الساحل الشمالي لأفريقيا، و 320 ميلا اتساعا من الشمال نحو الجنوب. يحيطها من الشمال البحر المتوسط، ومملكة تونس نحو الشرق، وبسلسلة جبال الأطلس في الجنوب، وبوادي ملوية، الذي يفصلها عن المملكة المغربية، غربا. وعلى مسافة 120 ميلا من ساحل البحر، ذلك الجزء الإفريقي الذي يصبح صحراء قاحلة، وغير مأهول بشريا أو حيوانيا.

يشتق اسم هذا البلد من حاضرته، وينقسم حاليا إلى ثلاث مقاطعات، أو دوائر، أي، الشرقية والغربية والجنوبية. فالشرقية ،أو الحكومة المشرقية والتي تعد أكثر أهمية في الثلاثة، وتسمى أيضا البايلك، وتضم مدن عنابة، قسنطينة، جيجل، بجاية، سطيف، تبسة،

زمورة، بسكرة ونقاوس، حيث يتواجد في الكل حاميات تركية، إضافة إلى ذلك، تشمل مملكتين قديمتين، مملكة كوكو، «Lab éz»، ولو أنها مستقلة عن الحكومة الجزائرية، حيث تعجز قوات الحكومة عن الدخول إلى أراضيها، وعليه فإنها لا زالت تعيش تحت أوامر شيوخها، الذين تختارهم قبائلهم. ويمكن إضافة إلى ذلك المحطة التجارية الفرنسية في القالة، التي تسيرها شركة الباستيون الفرنسية.

وتضم الحكومة الغربية مدن وهران، تلمسان، مستغانم، تنس وبقلعتها وحاميتها« Sercelli».

اما الحكومة الجنوبية فليس لها لا مدينة ولا قرية، ولا حتى دار، والتي تلزم الباي وقواته بأن يكونوا دوما في معسكر متنقل.

الأودية

هذه هي معظم أودية الجزائر.

1- وادي زها أو زيز، الذي يعبر مقاطعة تلمسان وصحراء أنجيد، على امتداد حدود فاس، ويصب في البحر المتوسط قرب مدينة «Tabecrite»، ومن هناك أخذ اسم «Sirut»، فمياهه صافية ومليئة بالسمك.

2- وادي «Hued Habra»، الذي يصب في وادي زيز قرب سهول سيرك- ويعيش على ضفته العديد من العرب المحتاجين، الذين يزعجون نوعا ما جيران مقاطعة وهران.

3- وادي «Haregol»، او التافنة، وأطلق عليه السيقا من قبل بطليموس، ينحدر من الأطلس الكبير، ويقطع صحراء أنجيد، ليصب في البحر على بعد نحو خمسة فراسخ من وهران.

4- وادي «مينا Mina» ويفترض أن يكون وادي «Chylematis» لبطليموس، وهو واد أكبر، يتجه نحو الشمال من خلال سهول «Bathala» وتسقط مياه تلك المدينة ومينا في البحر قرب بلدة آرزيو. وقد أطلق على هذا الوادي مؤخرا اسم «Cena»، وهو اسم مأخوذ من المؤابيين الذين أعادوا إسكان بلدة باثالا التي هدمت من قبل «Berimerines».

5- وادي الشلف، زليف أو زيليفا، وهو واد كبير ينحدر من جبل «Gnanecexis»، يجري من خلال مطفة واسعة وخالية، بحيرة التيطري، في الحدود الواقعة بين تلمسان وتنس ليصب في البحر ليس ببعيد عن مدينة مستغانم.

6- وادي ، الشلف، المفترض أن يكون وادي «Carthena»، للقدامى، يصب في البحر على بعد ثلاثة فراسخ غرب الجزائر العاصمة 18 أو 20 فرسخا.

7- وادي الكبير يفترض أن يكون وادي «Nalabata»، أو «Nafaba»، للقدامى، ويطلق عليه الأوربيون «Zinganir»، يصب إلى الأسفل مع مجرى سريع، عن طريق جبال كوكو المرتفعة، ليصب في

البحر قرب بجاية. وهو مليء بالسمك الذي يفترض اصطياده بكميات كبيرة غير أنه أهمل. وعند ما كانت مدينة بجاية في أيدي المسيحيين، كان مدخل هذا الوادي مليء بالرمال، حسب ما يرويه لنا «Marmol»، ذلك أنه لا يمكن للسفن أن ترسو فيه: غير أنه في عام 1555، وذلك بعد استرداده مباشرة من السكان سقطت أمطار كبيرة ونقلت الرمال والوحل. ومنذ ذلك التاريخ أصبح بإمكان السفن التجارية والمراكب الشراعية أن تدخله بكل أمن.حيث تكون بعيدة عن العواصف وكل أنواع الرياح الآتية من الشمال.

8- وادي سوف قمار أو سوف قمار الرمثيل، يفترض أن يكون وادي «Ampfaga»، لبطليموس. منبعه من جبال الأوراس وعلى حدود الأطلس، يجري من ثم ليمر بسهول قاحلة وأجزاء خصبة من قسنطينة. حيث يجري تدفقه بشكل أكبر وأوسع وذلك بتدفق أودية أخرى، ومن ثم يجري نحو الشمال وذلك على طول بعض السلاسل الجبلية العالية، ليصب في النهاية في البحر على مقربة من جيجل.

9- وادي «Ladag»، أو «Ludeg»، يجري نزولا من قمة الأطلس عبر جزء من قسنطينة ليصب في البحر على مقربة من شرقي عنابة.

10- وادي «Guadi»، أو «Barbar Guadel»، يفترض أن يكون وادي «Tuska»، أو«Rabricatus»، القدامي ، ينبع من رأس «Orbus» ، أو «Urbs»، في طرابلس، يجري من خلال بجاية ليصب في البحر قرب طبرقة.

التربة، المناخ والإنتاج

تتشكل هذه البلاد من ثمانية عشرة مقاطعة، فالمناخ جميل جدا على امتداد الساحل البحري، فالهواء نقي وصاف.

ليكن في علم الجميع،

أن بلاد الجزائر، والدول البربارية الأخرى بصفة عامة . كانت تسمى في ظل الإمبراطورية الرومانية بحدائق العالم. ولكي تحصل على إقامة هنالك كان يعتبر منزلة رفيعة من الأبهة. فإنتاج تربتها يتشكل من مخزون تلك السلع والمؤن التي تزود كامل إيطاليا والجزء الأكبر من الإمبراطورية الرومانية بالقمح والنبيذ والزيت. فالأرض مغطاة في أكثر الأوقات بخضرة النبات، ومنتجاتها بوفرة، خاصة منها المناطق الجبلية، غرب تنس، وبجاية والجزائر بصفة أخص، التي تنتج القمح والفواكه في أكبر صورة كاملة، وتزخر بأراض رعوية هائلة. غير أنه كلما تقدمنا إلى داخل البلاد وجدناها جافة وقاحلة. ومع ذلك، فالأرض غير محروثة، وذلك بسبب وحشية وقمع حكومتهم. وفوق ذلك، لا ينتجون فقط القمح والنبيذ، بوفرة أكثر، بل ينتجون أيضا التمور، والعنب، واللوز، والتفاح والإجاص، والكرز، والبرقوق، والخوخ، والكباد القارص والليمون، والبرتقال، والرمان...الخ وكميات كبيرة من الجذر والأعشاب، وبساتينهم لزراعة الخضر، كما ينبت القنب والكتان في سهولهم، واستنادا إلى تقارير أولئك الذين زاروا هذه البلاد، فإن البلاد تتوفر على كل ما ذكر إضافة أنه بالإمكان تمكين زرع كل ما تحتاجه الحياة السعيدة.

فلا توجد حرارة مرتفعة، فالمناخ جد معتدل وعليه فإن حرارة الصيف لا تجفف أوراق الأشجار، ولا برد الشتاء يجعلها تسقط، وهكذا فإن هذه الأرض تبقى خضراء.

تبدأ تخضر في فيفري وتثمر في ماي وتصبح ناضجة في جوان. أما أشجار الكرمة فهي كبيرة وتنتج بوفرة، ويمتد عنقود العنب نحو قياس طول قدم ونصف القدم. وتصبح ناضجة هي الأخرى في جوان، وتنضج في أوت ثمرة التين، والخوخ، والرحيقاني «ضرب من الخوخ» والزيتون والجوزة.

يجد الناس وسائل للتهرب لتناول الشراب الذي تمنعه الشريعة الإسلامية، حيث يصبحون أحرارا في تناول ما ينتجونه. فسهول متيجة تنتج القمح، والشعير والخرطال مرتين أو ثلاث مرات في السنة. فبطيخهم له طعم رائع، فالبعض منه ينضج في الصيف والآخر في الشتاء. وتنتج الجزائر أيضا، الملح الصخري، وكميات جد كبيرة من النوع الممتاز للملح، كما وجدت كميات كبيرة من الرصاص والحديد في العديد من الأماكن.

فالأراضي المحيطة بمدينة الجزائر جد خصبة، المقر الريفي، حدائق وبساتين أشجار عديدة. فالجزائريون غير ملمين بفن تشذيب الأشجار وتطعيم النبات، فحدائقهم غير محاطة بأسوار، بل بفصائل خاصة من الأشجار الشائكة، التي من خلال وخزتها وتركيبها مع فروعها المتحابة تمنع الغرباء من الدخول إليها، وقد أعدت خصيصا لذلك الغرض.

ومن بين الأراضي الغنية الأخرى لمقاطعة الجزائر الخاصة، نجد سهل متيجة الكبير والمدهش بخصوبته، فهو يمتد طولا مسافة 50 ميلا وعرضا 20، ويشمل العديد من الفيلات وبساتين ذات عبير، وحدائق سارة جدا .فالتربة تنتج مثل هذه الوفرة من معظم الفواكه اللذيذة، والأرز والنباتات، وكل أنواع الحبوب التي يستمتع بها السكان مرتين في السنة، وكثير ما تكرر ثلاث مرات في السنة.

الحيوانات

لا يوجد لا الفيل ولا الكركدن في الدول البربارية، غير أن أراضيهم مليئة بالأسود، والنمور، والضبع، والأفاعي الضخمة. كانت الخيول البربرية ذات قيمة سابقا، تضاهي العربية. فالجمال والجمال العربية، والحمير، والبغال، وحيواناتهم ذات الحمل الثقيل، فخرفانهم لها قدرة على الإنتاج وأصوافها ليست بالجيدة ولا بالرديئة. وعددها كبير، وكذلك الأمر بالنسبة للماعز. فالدب، والجاموس، والخنزير المتوحش، والنيص، والثعلب، والقردة، والأرنب الوحشية والأرنب الأهلي، وابن عرس، وابن مقرض، والزرافة، وكل أنواع الزحافات توجد هنا.

هناك نوع خاص من الحيوانات يدعى «Gapard»، والذي يمكن ترويضه بسهولة، ويستخدم للصيد مثل الكلب، ويشبه رأسه رأس هر، فرجلاه الخلفية أطول من الأمامية، فذنبه له شكل أنيق، فهو ملائم ويضني نفسه عند الجري، مما يجبر الصيادين على حمله من حين لآخر على خيولهم، حتى يستعيد قواه. هناك حيوان آخر غريب بين كلب وثعلب.

وإلى جانب طيور أو حيوانات ضارة بالحيوانات الأخرى، حسب الدكتور «Shaw»، عند حديثه في رحلته عبر البلدان البربارية أننا كنا في بعض أجزاء هذا البلد نخشى من لدغ أو لسع العقارب، فالأفعى السامة، أو شدة العنكبوت نادرا ما يخفقان في إزعاج راحتنا.

لكن معظم الحيوانات الغريبة أو الشاذة هي الجراد، الذي يصفه الدكتور شو في رحلاته بالطريقة التالية : إنها أكثر بكثير من الجندب، مرقطة باللون الأسمر في جناحيها، مع أرجل وأجسام صفراء نيرة. وكان ظهورها الأول نحو نهاية مارس، وكانت الرياح في أكثر الأوقات جنوبية، وازداد عددها بشكل أوسع في منتصف أفريل مع حرارة النهار، فهي تشكل نفسها في أفواج كبيرة، وتبدو وكأنها تعاقب السحب، وتحجب الشمس. ومع منتصف ماي، تبدأ هذه الأجسام تختفي تدريجيا، لتستقر في المتيجة، وفي السهول المجاورة لتضع بيضاتها، ووفقا لذلك، تبدأ نتاج الفقسة تظهر في الشهر الموالي تدريجيا. ومن الغريب أن يلاحظ المرء أنها تبدأ في الفقس بسرعة، ثم تجمع نفسها معا، وكل واحد منها يشكل جسم متضام لعدة مائة من الياردات في مربع، والتي تسير بعدئذ في اتجاه مباشر نحو الأمام، لتتسلق الأشجار، والأسوار، والمنازل، تأكل كل نبتة تجدها في طريقها، ولا تترك شيء يفر منها. ويقوم السكان بحفر كل ما هو موجود في حقولهم وبساتينهم، وتملأ بالمياه حتى يقف تقدمها، أو وضع كميات كبيرة من الخلنج، والجذامة ، وما يشبه مادة قابلة للاحتراق، وتحرق هذه الأشياء عند اقتراب الجراد. غير أن هذه الخنادق لا تفي بالغرض الذي أعدت من أجلها إذ سرعان ما تملأ بالجراد وتشعل النار في أسراب الجراد من غير انقطاع، سرب بعد آخر، ويبدو

لهذه الأسراب عدم وجود خطر حتى تقع فيه، وبالتالي لا تستطيع الأسراب الخلفية الانسحاب.

فالحجل والشماني، والعقاب، والصقر، وكل أنواع الطيور البرية وجدت على هذا الساحل، وكذا الطيور الصغيرة . وعصفور«Capsa»، الذي له منظر رائع، مع حلاوة تغريده، والتي يعتقد أنها تتجاوز كل أنواع الطيور الأخرى، غير أنه لا يستطيع العيش خارج مناخه.ويمتاز هذا البحر وخلجانه بوفرة السمك الجيد بكل أنواعه، ويفضل لدى قدماء أوربا.

آثار العصور القديمة والأشياء النادرة

جميع هذه الأمور تستحق اهتماما جدا من دارسي الآثار، لكن يصعب الوصول إليها. فعلى القارئ أن يستنتج بالطبع أن هذه البلدان والتي كانت في يوم ما تحت هيمنة القرطاجنيين والفينيقيين، والإغريق، وعمال الرومان متخمون ببقايا الأشياء الغريبة القديمة، لكنها تقع في أماكن متفرقة وسط الجهلة والسكان المتوحشين. فبعض البقايا تعود إلى العهدين الموريتاني والنوميدي الشهيرين ، لازالت واضحة ، والكثير من هذه الآثار تحمل بشكل واضح عظمة قدمائها وسكانها.فهذا يوضح ما تركه يوليوس قيصر للرومان، والذي لم يكن أقل روعة لقرطاج في حد ذاتها. ويقال بأنه لا زالت بعض قنوات المياه لقرطاج قائمة، ولكن لا أثر لأسوارها. ونفس الشيء لمصير «Uttica»، والعديد من المدن الأخرى المعروفة بقدمها وآثارها، وهكذا تسير البلاد بالوحشية، والعديد من آثار مدنهم غير معروفة، ومدرجاتهم، وبنايات عمومية أخرى، والتي لا زالت تتطلب الوقاية والحماية. وإلى جانب هذه الآثار القديمة، هنالك العديد من

معالم المسلمين. ومعظمها عجيب الدهشة، لازالت أيضا موجودة في مكان ما من هذه البلاد.

وقد نحتت هذه الآثار في ظل خلفاء بغداد والملوك القدامى لهذه البلاد. قبل أن تخضع للأتراك أو قبل أن تتحول إلى شكل الحكومة الحالية. فأسوارها تشكل القلاع الرئيسية في المدينة، سواء في الداخل أو في البحر. وبالطبع نحن لا نعرف إلا القليل فيما يتعلق بالدول البربارية. باستثناء حفرة الملح، التي تتربع على مساحة ستة أميال. ويقول عنها الدكتور شو، أن ينابيع حارة وجدت هنا ، يمكنها أن تغلي قطعة من لحم الضأن في ربع ساعة.

فالحمامات الساخنة للمريجة بجوار مدينة الجزائر، تعد أيضا من الأشياء الطبيعية. فطول إحدى هذه الحمامات إثنى عشر قدما مربعا وأربعة أقدام عمقا فالماء جد ساخن، وعند ما يملأ الخزان الأكبر ، تجري المياه إلى خزان آخر أقل حجما. حيث يغتسل اليهود، لأنه غير مسموح لهم باستعمال الأول. مع المسلمين. فهذه الينابيع الساخنة تتحد لتشكل كمية كبيرة من الكبريت ونترات البوتاسيوم، ومواد أخرى سريعة الا لتهاب في أحشاء الأرض، وإلى هذا السبب أيضا تحدث تلك الزلازل، وهو ما تخضع له البلاد بكاملها بالدوام. خاصة منها مدينة الجزائر.

ولا تضم مدينة الجزائر من الآثار القديمة سوى قلة قليلة، وتستحق تلك القلة الإشارة إليها. فهناك ، على أي حال، بعض الكتابات المهشمة فوق مئذنة الجامع الكبير، ولو أن الحروف يمكن رؤيتها بسهولة وذلك

على مسافة، ولا زالت هذه الحروف مملوءة بالكلس ومبيضة بماء الحبر ومن ثم لا يمكن التمييز بينها.

السكان

فسكان إقليم الجزائر، خاصة أولئك المتواجدين على سواحل البحر، هم مزيج من أمم مختلفة، مثل الأهالي وعرب الأندلس المطرودين من كا تالونيا، وآراغون، وأجزاء أخرى من إسبانيا في نهاية القرن السادس عشر، واليهود والانكشاريين، وعدد كبير من الأتراك القادمين من المشرق طلبا للثروة، وكذا العدد الوافر من العبيد المسيحيين الخ

يعد البربر أقدم سكان البلاد، ويعتقد أنهم ينحدرون من السبئيين القدامى الذين قدموا إلى هنا من العربية، بزعامة أحد أمرائهم. كما يعتقد أن البعض الآخر يكونون قد انحدروا من الكنعانيين، المطرودين من فلسطين من قبل «Joshua». وقد تفرق جميعهم على البلدان البربارية. وانقسموا إلى العديد من القبائل تحت قيادة شيوخهم على التوالي. وأقام الجزء الأكبر منهم في أجزاء من الجبال. والبعض منهم طاف من مكان لآخر وعاش في خيم، أو سقف قابلة للنقل. والبعض الآخر عاش في قرى منعزلة. ومع ذلك فقد حافظوا على أنفسهم من التمازج مع الأمم الأخرى. ويعترف بأنهم أكثر ثراء من الجميع، ويلبسون جيدا. وهم أكثر من غيرهم في تجارة الأنعام. والجلود، والشمع، والعسل. والحديد. وسلع أخرى ولهم بعض الصناعات الحديدية. وكذلك صناعات في النسيج ويعتقد أن اسم بربر يعود في الأصل أنه قد أطلق عليهم على أساس أنهم أول من استقر في

بعض الأماكن الجرداء. ومع تزايد عددهم، مع الوقت، قسموا أنفسهم إلى خمس قبائل، وربما يعود ذلك إلى دياناتهم المختلفة، وتسمى هذه القبائل: صنهاجة، زناته، هوارة ، كتامه ومصمودة. ونتج عن هذه القبائل 600 عائلة، قسمت نفسها ثانية على عدد أكبر من القبائل الصغيرة.

يمكن أن نضيف إلى هذه القبائل الزواوة، ويطلق عليها الكتاب الأوربيون«Azuagues»، أو «Assagues»، والذين هم تفرقوا أيضا في معظم أجزاء الدول البربارية والنوميدية.

فالعدد الأكبر من هؤلاء السكان يقطنون أطراف جبال كولو و «éz Lab» يعيشون حياة رعوية متنقلين. ويؤكد لنا المؤرخون الأفارقة أن البعض منهم ينحدر من الفينيقيين أو الكنعانيين، الذين فروا من «Jushua» والإسرائليين. وذلك طبقا لكتابة منقوشة باللسان البوني على صخرة عند منبع هكذا، هربنا إلى هنا من حضرة اللص الأكبر«Jushua» إبن «نون Nun» فهم من صنف المسيحيين الذين لا يحلقون لحاهم ولا يقطعون شعرهم، وينزعون إلى حمل صليب أزرق مرسوم أو يكوى على خدهم، أو يدهم بطريقة تمييز.

غير أن معظم السكان هم من البربر والعرب، الذين ينحدرون هم بدورهم من أتباع الرسول، الذين خضعوا هذه البلاد، سابقا. فالسكان الأوائل، البربر، هم الذين يشكلون الهيئة الكبرى لسكان المدن. ولكن يعتقد مسبقا أن من بين هؤلاء توجد عرقيات متنوعة، فلا يمكن للعدد الضخم أن يعيد نسبه إلى أي قبيلة خاصة أو أمة ما.

يوجد في هذه البلاد عدد واسع من الزمر لهؤلاء العرب. الذين يعيشون معا في المخيمات، ويتنقلون من مكان إلى آخر كلما دعت حاجة قطيعهم ومواشيهم، أو لأي حادث عرضي يستلزم رحيلهم. ويدفعون أحيانا أجرة لأصحاب الأرض بالذرة، والفاكهة، والعسل، والشمع ومنتجات أخرى.

كما أن الداي يطلب منهم دفع ضريبة ثقيلة. فالمناخ الجيد يجعل حياتهم بسيطة ومقبولة، ولو أن خيم هؤلاء القوم عادية. ووعاؤها قليل الفائدة وأسباب الراحة فيها قذرة. تنام الأسرة وحيواناتها الأليفة بشكل مختلط في نفس الخيام معا، ما عدا كلابهم، التي تترك كحراس في الخارج.

يقومون بتربية عدد معتبر من النحل، ودودة الحرير، يعيشون أساسا على الخبز، والأرز، والفاكهة، أما الخمر والمشروبات الروحية فهي في معظمها غير معروفة لديهم.

فرداء هؤلاء القوم الذين تتكون منهم هذه القبائل هو عبارة عن قطعة قماش خشنة وطويلة تلفف حول أكتافهم، حتى القدمين مع كمة من نفس المادة. فشيخ القبيلة يلبس طافية من لباس جيد. فالنساء أكثر اهتماما بالزينة فيما يخص ملابسهن، أما أطفالهن فهم يعانون من المشي حفاة حتى السابعة أو الثامنة من عمرهم.

فتقاليد، ولغة ودين هؤلاء الرعاة تحمل في طياتها تراحم شديد لهؤلاء العرب.

أقوياء البنية ولون بشرتهم داكن. فالرجال كثيرو الحركة والنساء وفيرة الإنتاج، والأطفال معافون صحيا.فهم لا يواجهون لا حوادث عسيرة ، مقارنة بحياة شخص همجي في أمريكا الشمالية، ولا تشكيل بنيتهم الضعيفة ، كما هو الحال في بناء بلدات ، بسواعد المستقرين وأعمال غير صحية.

وعند ما يرغب شخص من هذه القبائل أن يتزوج فإنه يسوق عدد من القطعان إلى كوخ حيث يقيم والدي عشيقته. وتوضع على ظهر فرس متجهة إلى المنزل وسط هتافات جمع غفير من الناس المدعوين إلى حفل الزفاف، وبعد وصولها إلى كوخ عشيقها، يقدم لها خليط من الحليب والعسل وتقدم أغنية بهذه المناسبة. بعدها تترجل، ويقدم لها عود، الذي تضربه بالأرض، وتعيد بعض الكلمات التالية بهذه المناسبة: بما أن هذا العود هو أسرع إلى الأرض، وعليه فإني مرتبط بزوجي، ولا يمكن لأي سبب أن يفارقني منه، سوى الموت وحده ومن حبه.

بعدها تسوق قطيعه إلى الماء مرات عديدة، لتظهر استعدادها أنها قادرة على القيام بأي واجب يسند إليها. عند انتهاء هذه الاحتفالات الأولى ، يدخل الجميع إلى الكوخ، وتقام في المساء سهرة كبيرة على شرف الحضور. بعد الزواج على الزوجة أن تضع خمارا، ولا تخرج من كوخها إلا بعد مدة شهر.

فالعرب شديدو القتال ومحاربين وفرسان مهرة، وأسلحتهم الرئيسية هي رمح قصير وسيف ضلع، وهم على دراية أيضا بالقوس

والبندقية، غير أنهم مدمنين على السلب ، ذلك أنه لا يمكن لأحد ان يسافر عبر البلاد في أمن وسلامة بين البلدان من غير حارس، لأنهم يرون في انفسهم أنهم أهل البلد، ذلك أنهم فقدوا أراضيهم من بقية السكان، بل نزلوا إلى أدنى مستويات الفقر، ونتيجة لذلك، فإنهم لا يتحرجون في سلب كل من وجدوه في طريقهم.

فسكان هذه البلاد، خاصة أولئك الذين هم على مقربة من سواحل البحر، يعيشون على القرصنة، بصفة عامة، ويسمح لهم بأن يكونوا بحارة شجعان، وأنهم سيقاتلون بشجاعة عند ما يلتقون بغنيمة. فهم على الرغم من ذلك، دون مستوى الانجليز، أو دول أوربية أخرى، من حيث بناء وتسيير سفنهم.

فسكان العاصمة فاسقون جدا، وهذه ملاحظة عامة أنه كلما كانت المسافة أبعد عن العاصمة إلا وتجد أصالة في سلوكهم، وعلى الرغم من فقرهم فهم يعيشون في مرح وانشراح ، خاصة أولئك المنحدرين من أصل عربي، وهذا يعطيهم قناعة البال. وهم لا يفقدون إلا القليل، فهم مسالمين فيما بينهم. فالأتراك الذين تتشكل منهم القوة العسكرية ، لهم امتيازات كبيرة، فهم لا يدفعون الضرائب، ومعفون من العقوبة العمومية، فأبسط جندي يهيمن على معظم أعيان الأهالي لإشباع رغبته.

فالسكان خاضعون لحكم الطاغية المطلق، ويمارس قمع وحشي من فئة قليلة من الأتراك الوقحين. الذين رفضتهم شوارع القسطنطينية. وإن وجد تركي أهلي راكب على حصان أفضل من الحصان التركي، فإن

الأخير يأخذه من الأول عنوة. سيأخذ هذا التركي، أيضا، التفاح، والبرتقال، والجوزة ومواد أخرى التي يأتي بها الأهلي إلى السوق لبيعها، من غير اكتراث كما لو أنها ملكه الخاص.

فالأتراك هم الوحيدون الذين لهم امتياز حمل الأسلحة النارية، فهذا مثل لاستبداد الجنود الأتراك، فهم لا يبعدون الأهالي عن طريقهم في الشوارع، بل يذهبون إلى بيوت المزرعة في الريف للبقاء هنالك مدة عشرون يوما، يعيشون أحرارا بدون دفع أي مقابل، ويقومون بأي شيء يريدون باستثناء الاعتداء على النساء. يقيمون في مساحات واسعة يتولى رعايتها وتنظيفها العبيد، وعلى نفقة الدولة. فجيش الداي يتكون أساسا من جنود الأتراك، الذين يطلق عليهم اسم–الانكشاريين– ومع أن عددهم قليل، فهم يستبدون ويحتقرون الأهالي على امتداد كامل البلاد. وقليل منهم أناس طيبون، وبرغم طغيانهم فهم لا يقمرون، بل حتى سفاسف الأمور، وما لا يمكن قوله من قبل المسيحيين، هو عدم ذكر اسم الداي بلغة تجديفية، فسرعان ما ينسون خلافاتهم، وبعد الهيجة الأولى من تمالك الاستياء، فإنه من الرذالة لتركي أن يتذكر الجراح التي تلقاها. وفي هذا المجال فهم أقل وحشية من الأمم الأخرى التي تتفاخر بحضارتها.

وعند ما يحصل عجز بشري في الجيش يرسل قراصنتهم إلى المشرق للقيام بتكتيب للخدمة العسكرية، والذين يتكونون، في الغالب، من فلاحين. فمحمد باشا ، الذي كان دايا في حدود 1732، كان من هذا

الصنف، وعند احتفاله تنازع مع نائب لبلد مجاور وقال: كانت أمي تبيع أقدام خروف ووالدي ألسنة بقر، كانا يخجلان عرضهما للبيع مثل أقدامكم وألسنتكم.

لقد تلقى هؤلاء الجنود الجدد تعليما بسيطا من رفاقهم الجند.زودوا بقبعات لوضعها على رؤوسهم، وأحذية لأرجلهم، وزوج من السكاكين لأحزمتهم، وسرعان ما شرعوا في استنشاق هواء نقي، وتصرفوا مع أعيان المدينة وكأنهم عبيدهم.

فالجزائريون يأكلون مثل الأتراك ، يجلسون على مائدة ذات أرجل مقوسة وذات علة أربعة إنش، ولا يستعملون سكاكين ولا فرشاة في الأكل.وقبل أن يشرعوا في الأكل ، يقول كل واحد منهم،:باسم الله.وعند القيام بذلك، يتقدم عبد يصب الماء على أيديهم بشكل لائق. بعده يغسلون أفواههم. فشرابهم الماء، والشربات والقهوة. أما النبيذ فغير مسموح به، غير أن البعض منهم يشرب باعتدال. ويقضي كل من الرجال والنساء الجزء الأكبر من أوقاتهم في الكسل، فالرجال يشربون القهوة ويدخنون، والنساء في اللباس والحمام، ويتحدثون في السفسطة، ويزرن مقابر أقاربهن، ويتنزهن في حدائقهن.

وبصفة عامة، فالجزائريون، خاصة منهم أولئك المتواجدين على سواحل البحر لهم بشرة جميلة، أما أولئك الذين في الداخل، خاصة منهم العرب، فهم سمر، وأقوياء البنية، وأجسامهم معتدلة.ولهم خبرة في استعمال الأسلحة النارية.

فالجزائريات جميلات في شخصهن، ولهن اهتمام بأجسامهن، أما الرجال فهم معرضون للشمس، تقوم الجزائريات بتجميل عيونهن بفن، خاصة مسحوق خام الرصاص،ونفس المادة الصبغية التي استعملتها «Jezebel»، عند ما صبغت وجهها، حسب ما ذكره العلامة الدكتور شو.

فالكلمات الأصلية التي شبت في عينيها بمسحوق خام الرصاص.

فالجزائريون، وحسب شريعتهم يمكنهم الزواج بأربع زوجات، لكنهم في الغالب يكتفون بزوجتين، أو ثلاثة في أكثر الحالات، ونادرا ما يدفع الزوج مهر زوجته قبل الزواج، غير أنه يقبلها بناء على وصف امرأة يثق فيها. وعند ما يتم الاتفاق على الزواج، يقوم العريس بإرسال هدية حلوى سكرية إلى العروسة، ويقوم بضيافة أقاربها وإقامة حفل موسيقى. وبعد وفاة رجل فإن أصدقاءه من الرجال يحضرون جنازته، وإن كان المتوفى امرأة فإنه تحضر لجنازتها صديقاتها. يغسل جسم الميت بماء ساخن وبرغوة الصابون، ويلف في كتان نظيف، ثم يوضع بعدئذ في تابوت مغطى بثوب أخضر، يلف بعمامة، وينقل ورأسه إلى الأمام في تجاه القبر. تحضره النساء اللواتي يؤجرن للندب والعويل. وتقوم هذه النساء بخدش أنفسهن حتى يخرج الدم من هن. يعوجن وجوههن، ويقمن بضجيج شنيع.

بعد إتمام عملية الدفن يقوم بعض المرابطين بتلاوة هذه الكلمات من غير انقطاع.

لا إله إلا الله محمد رسول الله.بعدها تكون وضعية الجسم في القبر كالتالي، يحدد وجه الميت نحو الجنوب، وإن كان المتوفى شخصية

مرموقة يكتب على قبره، عند رأسه وقدماه بكتابة تأبينية مكتوبة على القبر، تختار آيات من القرآن.

يتكون أثاث المنازل أساسا من بساط زربية ومطرحة، حيث يجلسون وينامون. وعند الأكل يظهرون في ملابس رثة.ويمنع استعمال الأدوات المكونة من الذهب والفضة في أكلهم. وطعامهم التقليدي هو الأرز والطحين الرقيق الذي يعد في حبات صغيرة مثل رصاصة، ويطلقون عليه الكسكس ، حيث يحضر باللحم ولحم الديك أو الدجاج، وغالبا ما يأكلون معه الفواكه والأعشاب. فالناس عند سفرهم يمشون على أقدامهم، في الغالب. أو يستعملون الحمير، ثم أنه نادرا ما يركبون الحصان، ما عدا حكام المقاطعات وشخصيات أخرى، أما النساء فنادرا ما يمشون على أرجلهن، لكنهن يركبن الحمير. داخل صندوق مربع مغطى بسدة. وهكذا فهن في ستر كامل، وعند ما يخرجن من هذه السدة عند نهاية الرحلة ينتظرهن سائق.

اللباس

فلباس الناس هو قميص كتان، بصفة عامة، حيث يربطون كساء حرير بحزام، وفوقه رداء فضفاض.فسراويلهم مصنوعة من الكتان، فأيدي وأرجل الحامل عارية، لهم قبقاب في أرجلهم، أما الشخصيات فتلبس نعل الكراع، ولا يخلعون إطلاقا عمامتهم، لكنهم يخلعون قبقابهم عند أداء الصلاة أو أمام حاكمهم.

فالحاكم والشخصيات الكبرى يتركون لحاهم تكبر، أما الناس

العاديون فيحلقون لحاهم، ولا يتركون سوى زوج من شعرات اللحية على الخدين وخصلة من الشعر فوق الرأس، وبها يتخيلون أنهم ذاهبون إلى الجنة. فلباس العامة بسيط جدا، فهم يلبسون زوج من سروالين من الكتان على قمصانهم، وسترة من الصوف الأبيض طليقة، مع برنس في الخلف، أو رداء واسع بلا كمين والتي غالبا ما تكون سوداء اللون، وتصل إلى الركبة، وبهذه الطريقة يلبسون أنفسهم، أما في الصيف فلا يلبسون سوى سترتين.

فرجال الزي ملابسهم فاخرة وثمينة، فجلبابهم مصنوعة من الفرو، والحرير أو من القماش. فملابسهم بورود من ذهب، وقبعاتهم في غاية من الأبهة ومزينة بأناقة مرصعة بالجوهر، وأرجلهم مغطاة بحزمة ذات جلد لامع.

فالنساء تهتم أكثر بالحلي في ملابسهن أكثر من الرجال . فليس هناك في الواقع، فرق كبير بين ملابس الجنسين، فسراويل النساء أطول، وبدل اللفة ، يلبسن بشنوق-منديل- على رؤوسهن. ويربطن شعرهن للخلف، ويحمل بالحلى وزينة أخرى رخيصة الثمن. يلبسن طوق حول عنقهن، وسوار في معصمهن، وقلادة كبيرة في أذنهن، وقبعات غريبة على رؤوسهن. وعند ما يخرجن خارج منازلهن، فعادة ما يضعن على وجوهن خمار، والذي يمتد إلى صدورهن، ويضعن فوق لباسهن جبة فوقانية، ومن ثم لا يعرفن من هن، إلا بواسطة العبيد الذين ينتظروهن.

اللغة

الجزائريون ليس لهم آداب، يبدو أن اللغة الأصلية لهذه البلاد كانت اللغة الفينيقية، وقد أجبرهم الرومان على تبديلها-كما فعلوا في كل البلدان التي احتلوها- بلغتهم، ثم أدخل العرب فيما بعد لغتهم، وبعدهم الأتراك. أما الأهالي فيستعملون الموريسكية. أما سكان الجزائر فهم يتحدثون بصفة عامة لغة مركبة من العربية والموريسكية، وما تبقى من اللغة الفينيقية القديمة. أما في العاصمة فيستعمل المسلمون والمسيحيون لغة «Lingua Fanca»، وهي خليط من الاسبانية، والبرتغالية، والإيطالية والفرنسية. أما أهالي كل الأصناف فهم يفهمون هذه اللهجة في معظمهم.، والتي هي ليست بلغة خاصة لأي بلد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، لها عملة عالمية، وهي بمثابة قناة إعلامية للناس الذين لا يفهمون بعضهم البعض إلا من خلال وساطة أخرى. فالأعمال التجارية العامة للبلاد تتم إما بالعربية، أو بالتركية، لكن تتم بالأولى بصفة عامة، والتي حررت بها معاهداتهم الأخيرة مع الولايات المتحدة. (بل بالعثمانية المترجم) إنه من الغرابة في النطق، يبادل حرف بحرف في أسمائهم وأفعالهم، بنفس الطريقة التي كان يتعامل بها كتاب باللغتين الإغريقيية. فاللغة التركية لغة شامخة، وعند ما يتحدث الأتراك يضغطون على نغمة العظمة للغتهم، وكأن ذلك تعبير لتفوقهم، والذي هو في الحقيقة لا شيء، سوى كسلهم، لأنهم ليسوا برجال المعرفة ولا محاربين، وللتاريخ أن الروس هم الذين علموهم ذلك منذ أمد.

الحكومة

على الرغم من أن الجزائر لها سمات جمهورية عسكرية، إلا أنها في الواقع إرهابا في كل الممالك بالعالم، وبما أنها تعتبر في مبادئها مثل مزاج ونزعة أولئك الذين يختلفون عند وصولهم الإدارة.

فالجزائر كانت فيما مضى خاضعة للباب العالي، ولا زالت تحت حمايته، لكن الداي لا يدفع حتى اليوم ضريبة له، سوى عدد معين من الخيول العربية الأصيلة، وبعض الهدايا الأخرى التي ترسل إلى هنالك سنويا. فالباب العالي كان يرسل سابقا الباشا، أو نائبا إلى الجزائر حيث توكل إليه مهمة السيادة، غير أن أولئك الضباط كثيرا ما يمارسون سلطة استبدادية، ويبتزون من الشعب ضرائب فادحة، خاصة إذا حدث تمرد شعبي. بقي الأمر كذلك لمدة طويلة حتى ازدادت قوة الانكشاريين.عندها يعزلونه وينتخبون آخر بدله عندها يجبر الباب العالي أن يتغاضى عن ذلك.وإن اعترض عليهم فإنهم يعلنون حربا مفتوحة، وبالتالي القضاء نهائيا على التعاون التركي، وابتداء من هذا التاريخ بدأت سلطة الباب العالي تقل تدريجيا ولا يستطيع فعل أي شيء دون تعاون مع الداي. خولت السلطة العليا للدولة إلى الداي، الذي يعتبر ملكا مختارا، ولا يحق لأطفاله إطلاقا أن يرثوا السلطة عن طريق الانحدار العائلي.

ينتخب الداي من الديوان، ويلزم بقبول تولي الحكم تحت عقوبة الموت. ونادرا ما يؤمن منصبه دون شغب وإراقة الدماء، وكثيرا ما يسقط بخنجر السفاك: وعليه فإنه من ضمن الستة الذين حكموا منذ 1700، فإنه

قتل منهم أربعة، والخامس استقال لإنقاذ حياته. غالبا ما يفشل الباشوات بتشكيل فرق وسط الجنود ضده. ولا يترددون في اغتياله حتى ولو كان ذلك في المجلس. بعدها يحل محله الأقوى منهم. فحملة فاشلة، أو تصرف هادئ نادرا ما يفشل لوضع حد لحياته ولحكومته، أيضا.

فالطريقة التي يمارس بها سلطته، تتوافق مع تلك الطريقة التي حصل بها على السلطة. وقد روى السيد «Bruce»، وهو مقيم بريطاني في مدينة الجزائر، أنه كانت له فرص لزيارة الداي، ووجده ذات مرة في قاعة استقباله، بلباسه ملطخة بالدماء وكأنها ذبيحة الجزار. وكثير ما يحدث هذا، وذلك بقطع رؤوس رعاياه. قال السيد، بروس، أنه أحد الأشخاص الذين نفذ فيهم الحكم لا لذنب ارتكبه سوى أنه وجد عنده الوارية.فاتهامه والحكم عليه كان مختصرا جدا. قائلا له: أيها الوغد، ما شأنك بهذه الوارية اللهم إلا إذا كنت تدبر مكيدة ضد الدولة.

تم انتخاب الدايات الأوائل من قبل الميليشيات، التي كانت تسمى آنذاك بالديوان، المجلس العمومي، والذي تكون في البداية من 800 ضابط ميليشيا، ومن غير موافقتهم لا يقدر أن يقوم بأي شيء، وفي بعض الحالات المستعجلة يصل عدد الضباط المقيمين في الجزائر إلى 1500، يتم استدعاؤهم للحضور، لكن في الوقت الراهن ربما يعتبر أكبر أمير مستبد في العالم. فالديوان حرم من كل سلطة إدارية، فقد تولى الضباط اللقب المتسم بالأبهة فقط، وبقي للديوان التصديق على مراسمه.

تشكل الديوان من أشخاص هو الذي اختارهم، وهو الذي أبعدهم بناء على رغبته. يجتمع الديوان ، أحيانا، في أوقات مهمة ليتلقى نصائحهم لكن حجته الوحيدة في هذا هي حماية نفسه ضد الغليان الشعبي، أما فيما يخص سلطته فهي غير محدودة، وأنه بإمكانه أن يصادق أو يرفض قراراتهم وذلك حسب ما يحلو له.

وعند ما كان الباب العالي في حرب مع قوى مسيحية، طلب مساعدته، لكنه استجاب لذلك لأن الداي فكر أن ذلك أمر خاص.

فالداي له فرقة من الحرس تسمى سولاك وهي ضرورية، على الرغم من أنه في بعض الحالات يصبح الحذر لا فائدة منه.، ذلك أنه بإمكان جندي تركي له شجاعة أن يقتل الداي، وتكون له فرصة لأن يتولى مكانه. وقد وقعت مثل هذه المحاولات، إذ أنه منذ بداية القرن الحالي دخل ستة جنود من هذه الفرقة في مؤامرة لقتل داي إحدى الدول البربارية. إذ تلقى ضربة قاتلة في قصره، وسط صراخ شعبي.وقبل انقضاء حياته صاح بقوله: ليس هناك شجاع يقتل هذا الخنسير؟ وكان أحد المتآمرين يأمل أن يخلف الداي المقتول،وسرعان ما جلس على العرش الفارغ وأظهر سيفه العاري معلنا أنه سيكون عادلا للجميع. خرج الجنود الخمسة المشاركين معه في المؤامرة إلى القاعة لتثبيت ملكهم الجديد، وظهر أنه لا أحد من الحاضرين اهتم بما حدث.

حافظ الداي الجديد على وضعيته من غير أذى، مدة عشر دقائق، بعدها تقدم إليه جندي محنك وبيده بندقية، فأرداه قتيلا.بعدها قتل الجنود

الخمسة مباشرة. لكن ما يلا حظ على طبيعة النظام الحالي، هو أن الداي الجديد المستخلف، صرح أنه يمكن له أن يصبح دايا بعد عشر دقائق.

يأتي في درجة ما بعد الداي كاسان آغا الوزير الأول للدولة، والذي يقوم بحفظ مفاتيح خزانة المال، ويأتي بعده الداي ثم الآغا، حيث يحضر الثلاثة مرة في الشهر لدفع رواتب الجنود.

الموظف السامي الآخر ، هو الآغا، أو قائد الانكشاريين، والذي يعتبر أقدم الضباط في الجيش، ويشرف على منصبه ككل الضباط، نزولا عند رغبة الداي. حافظ على كرامته أثناء هذه الفترة، وسلمت له مفاتيح المدينة، فكل الأوامر العسكرية تصدر باسمه، وعقوبة الداي عن أي جنحة تصدر من الجندي ، سواء بالإعدام أولا، يتم تنفيذها في محكمة قصره.

ويأتي في الأهمية بعد الآغا، كاتب الدولة، الذي يسجل كل القوانين العامة، ثم يليه مسئول العدالة الذي يسوي الخلافات بين الأهالي. فهذا المسئول و الشخصين الأخيرين المذكورين أعلاه، يحضرون أمام باب قصر الداي كل صباح عند طلوع النهار، من أجل أن يقبلوا يده.

ثم يأتي في الأهمية وكيل الحرج، المسئول عن البحرية، والذي تصدر منه جميع الأوامر البحرية. يجلس تحت قوس بجانب البحر يدعى السقيفة، ومنها يرى كل ما يجري في البحرية. يأتي بعده بايلك باشا، وهو بدرجة وكيل الأراضي لتنفيذ أوامره، يعتبر مسئولا عن مخازن البحرية، وكل العتاد البحري يقع تحت مسئوليته ورقابته، وأسندت إليه جميع مفاتيح المخازن في المدينة.

أما خوجة الراب فهو مكلف بمخازن القمح في المدينة، ويقع تحـ
إمرته مجموعة من الخوجات كتاب ولا يمكن لأي عبد أن يتولى هـ
المنصب.

ويأتي فيما بعد. قيم السجن، وهو المسئول عن مراقبة العبـ
وذلك بمراقبة أعمالهم المنوطة بهم، فهو مكلف بسجن ڤالارو المجذ
وتسلم له مفاتيح ذلك السجن كل ليلة من قبل حراس تحت أوامره. الذ
يحرسون الأبواب. كما له عدة حراس، الذين يحضرون أثناء قيام هؤلاء
العبيد بالأشغال.

وإلى جانب هذا، هناك 30 شرطيا ، الذين يأتون بعد الآغا في
المرتبة، في الديوان ، وفي نفس السدة معه.

يأتي بعد هذه الشخصيات، طبقة أخرى غالبا ما يتم اختيارهـ
كسفراء يرسلون إلى البلاطات الأجنبية، أو الذين يكلفون بنشر أوامر
الداي في عموم المملكة. يأتي بعدهم عدد من كبار الضباط سنا الذين تمـ
ترقيتهم إلى أولاك باشا، أي قائم مقام. والذين يصل عددهم إلى 400 نفر
وعادة ما يرفعون إلى منصب قبطان بدورهم. وإلى موظفين آخرين في
الدولة، وذلك طبقا لمؤهلاتهم. وبطريقة اختيارهم هذه يلبسون قـ
ضيقة من الجلد، تعلق عند منتصف ظهرهم.

لاحظ أحد المسئولين بدقة ، عملية تناوب هؤلاء الجنود من أحـ
النواب إلى المسئول الأعلى. بمعنى حق العراقة في العمل، أن أي تجاوز فـ
يتسبب في تمرد. وربما يكلف ذلك حياة الداي. وهناك ضباط آخرون لهم

شعيرة، وهم موردو المؤن للجيش، والبايات، وهم الجنود الأربعة القدامى الأقرب للترقية، والسولاك، الذين يأتون بعد الجنود في الأقدمية. وجميعهم حراس الداي، وهم الذين يسبقونه في السير عند خروجه إلى الميدان

ويميزون ببنادقهم القصيرة والسدة المذهبة، ومع بندقية نحاسية الشكل على قبعاتهم، وجنود أتراك، وكل مجموعة لها حكومة أو دوار أكثر، أو قرى متنقلة، يجمعون الضرائب للداي، و100 من الرماحين، الذين يرافقون الجيش بشكل دائم، ويتولون حراسة مصادر مياه الشرب

ويمكن إضافة البايات لهؤلاء، أو حكام المقاطعات الثلاث الكبرى للمملكة. فجميع هؤلاء الضباط المذكورين أعلاه يشكلون الديوان. لكن لا حق لهؤلاء الجلوس في السدة إلا 30 فقط منهم، بجانب الداي.

وما تبقى عليه أن يقف في دور القاعة، أو غرفة المجلس، قبالة أسلحتهم، وعدم التحرك بقدر الإمكان، ولا يسمح لهم بإدخال سيوفهم معهم أما بالنسبة للبعض الذين لهم أشغال مع الديوان، عليهم الانتظار، ولو كان الطقس رديئا، على أن تقدم لهم القهوة من ضباط أقل رتبة حتى ينصرفوا

ويطلق على حراس الداي اسم «Lisberos»، الذين يحرسون مختلف أقسام المدينة . لغرض الحصول على معلومات حول ما قيل أو ما تم العمل به.

هناك مرتزقة . وهضم لحقوق الإنسان وعبودية أمام حاكمهم لربما يقومون بالغش حتى مع والديهم، وعند ما يتلقون معلومات ضد

شخص ما، ترسل الكلاب لتوقف الشرير الذي يعاقب حسب طبيعة جنايته.

فالديوان هو مجلس عمومي للدولة، فهو هيأة منتخبة، ويتشكل أساسا من 30 شياه باشا، الآن وبعده ينظم المفتي والقاضي، بناء على بعض المستجدات، وعند انتخاب الداي، يسمح لجميع الجنود بالحضور ليدلوا بأصواتهم. فجميع قوانين الدولة يجب أن تحدد من قبل هذا المجلس، قبل أن تصبح قانونا، أو أن الداي له سلطة لوضعها موضع التنفيذ. ولكن لسنوات مضت، فإن الديوان لم يعقد جلساته الرسمية، سوى الشكلية منها. ليعطي الموافقة لكل ما قام به الداي والمقربين منه صفة الرسمية.فنسبوا لأنفسهم ما ليس لهم فيه حق ، ويصدرون فرامانات، مراسيم أو قوانين وطنية ومنحوا لأنفسهم لقبا مختالا : نحن الأعضاء الكبار والصغار للسلطة وميليشيا الجزائر التي لا تقهر وكل المملكة، نصدر القوانين . فكل القضايا المدنية والجنائية التي تخص الجيش تحاكم في هذا المجلس، أما التي تحدث بين المواطنين فينظر فيها أمام أحد شيوخ الباشوات. فكل مدع في قضية ما تحال إلى هؤلاء الشيوخ من غير موكل، و شهادة شاهدين ضرورية.

والشخص الذي يحاكم في أية قضية يتلقى عددا من الضربات بالهراوة، ويجبر أيضا أن يمتثل للعقوبة التي صدرت في حقه.

وعند ما يجتمع الديوان يمسك الداي بيده مروحة ريش، ويجلس جلسة القرفصاء، وهي على شكل جلسة الخياطين، وأمامه طاولة كبيرة،

يصل علوها حوالي قدمين، مغطاة بسجادة ذات قماش خشن، بعدها يجلس ستة من كبار الشيوخ إلى جانبه بنفس الطريقة على يمينه، وستة على يساره. ويقف بقية الأعضاء على جانبي الطاولة، لتشكيل شبه حلقة.

فطريقة جمع الأصوات في اجتماع شهر أوت هذا، تعد ملائمة تماما لطبيعة الأشخاص الذين يتكون منهم هذا المجلس.

فالآغا، أو الرئيس المؤقت، يقترح أولا السؤال ، والذي يجيب عنه بسرعة وبصوت عال شيوخ الباشا، ومنهم ينقل مرة أخرى من قبل أربعة ضباط يطلقون عليهم باشا لدالس، ومن هذه الأسئلة يردد من كل عضو من أعضاء الديوان من غير اعوجاج ، وإذا لم يعجبهم ذلك السؤال، ومن هذه الأصوات الصاخبة وزفير الدمدمة، فإن الآغا يتحرك لجس النبض، حسب استطاعته فيما إذا كانت أغلبية الحضور موافقة أو غير موافقة على هذا السؤال، وانطلاقا من مثل هذه الطريقة السخيفة، فإنه لا يستبعد أن تنتهي مثل هذه الاجتماعات بدون فوضى. وبما أن الهيئة الكاملة للميليشيا معنية بانتخاب الداي الجديد، فإنه غالبا ما يسود الدم. لكن عند ما يتم الاختيار، فإن الشخص المنتخب يتلقى تحية بالكلمات التالية: الله إيبارك.

عادة ما يقوم الداي الجديد بخنق جميع الذين عارضوه، ويعين في المناصب الشاغرة الذين وقفوا إلى جانبه.حقا انه على الداي الجديد أن يتلقى تثبيتا من الباب العالي،لكن ذلك نادرا ما يرفض الباب العالي،وموقف الشعب معروف جدا.

ومن هذا السرد لانتخاب الدايات، فإنه لا يمكن التكهن من أن حكمهم سيكون في مأمن، وبما أنهم يصلون إلى العرش عن طريق الهرج وإراقة الدماء فإنه بدون شك سينتزع منهم بنفس الوسائل والطرائق، ثم أنه نادرا ما يموت واحد منهم من عشرة بموت طبيعي.

القرصان والتجارة

قليل ما يهتم الجزائريون بالفلاحة وتطوير بلادهم، وأن العبقرية الوحيدة تؤدي بهم إلى ما تدره القرصنة وبالتالي أهملوا كل الموارد الداخلية أو الفوائد التي تزخر بها بلادهم. فالقراصنة أو اللصوص تشكل مثل هذه الجمهورية الصغيرة، والتي يعتبر فيها الرايس أو القبطان الباشا الأعلى ، هو ومن معه من الضباط الخاضعين له، يشكلون نوعا من الديوان، الذي تقرر فيه كل قضية تتعلق بالسفن بطريقة استبدادية.

فهؤلاء القراصنة هم مكونون وموجهون لجلب السلع المطلوبة إلى المملكة، إما عن طريق بضائع أو غنائم، التي تتكون أساسا من مواد ذهبية أو فضية، وأنسجة حريرية مرسمة، وأقمشة، وتوابل، وحديد، وقصدير، وأواني نحاسية، ورصاص، وزئبق، وحبال السفينة، وقماش القلوع، رصاصات، ودودة القرمز، والكتان، والطرطير، والأرز، والسكر، والصابون، والقطن الخام، والفتلة، وكبريتية الحديد، والصبرة المرة، وخشب البرازيل والأحمر، والزنجفر...الخ والقليل جدا من هذه المواد تصدر من جزء من هذا العالم: الزيت، الشمع، الجلود، حبوب القطاني، والذرة وكلها إنتاج محلي، أما الشعير فإنه ينتج بما فيه الكفاية لهذا

البلد.وهكذا، وقبل فقدان وهران، كان التجار يصدرون من ميناء واحد وعدة موانئ آلاف الأطنان من الذرة.

تستهلك الزيت هنا بشكل واسع وكافية ، أضف إلى ذلك أن لها اعتبار كبير في هذه المملكة، ونادرا ما يسمح بتصديرها إلى أوربا.

تتشكل الصادرات الأخرى بالأخص من: ريش النعام، السجاد، النحاس، وشاح الحرير، مناديل اليد، التمور والأسرى المسيحيين. وبعض المصنوعات من الحرير، والقطن، والصوف، والجلود، يتم إنتاجها في هذا البلد، لكن معظمها يتم عن طريق الإ سبان المقيمين هنا، خاصة في الحاضرة، فالسجاد يعد من إنتاج محلي، والذي يعد أقل مستوى من نظيره التركي جماليا أو روعة. وهي المفضلة عند العامة للجلوس عليها، على أساس انها أقل ثمنا وليونة. وهناك في الجزائر ، أيضا، منساج للقطيفة، وقماش التفتة، وحرير ملف، وكتان جد خشن، يصنع أيضا في عدة أنحاء من البلاد، ولا تتوفر البلاد على مواد لصناعة السفن. فليست هناك حبال مضفورة، ولا قطران، ولا شراع، ولا مرساة ، وحتى الحديد.

وعند ما يستطيعون الحصول على خشب جديد وكاف ليستخرجوا منه خشبا لبناء شراعية، فإنهم يستعينون بما تبقى من مواد الغنائم البحرية التي أحرزوا عليها، وهكذا يجدون بيسر إنتاج شراعية جديدة مما تبقى من آثار القديمة. فالجزائريون أكثر شجاعة في البحر من أي دولة

أخرى على الساحل البربري، فأناس البحارة ژبكسر الباء– لهم تقدير كبير خاصة ما تعلق بالغنائم البحرية.

فأسطول هذه الإيالة ، لا يتعدى في الوقت الراهن عشرة أو إحدى عشرة سفينة، وعليه كانوا أقوياء بكثير مما هم عليه اليوم، وقد كان عدد سفنهم أيام حكم بتشنين 65 سفينة من البوارج البحرية الكبيرة.

وينظر إليهم في البحر على أنهم لا يخافون الموت وأكثر وحشية في العالم. غير أنه يبدو فيه مغالاة وحكم اعتباطي كاذب تسربه تلك الدول، وطبقا للمعلومات الأخيرة فهم أقل مستوى في الخطط البحرية لكل دولة في أوربا. يتفق معظم أسرانا قريبي العهد، في الرأي أن أربعة فرقاطات أمريكية ذات تجهيز وتنظيم، كافية لردعهم، على الرغم من أن الأتراك معجبون بأنفسهم ومتعجرفون، مع العلم أنه من المعلوم جدا أنهم غير محاربين. فاستعراضهم الأكبر لشجاعتهم يكون في الحملة الأولى، لكن إذا التقوا بقوة قادرة فإن هزيمتهم مؤكدة.

حتى الأهالي من أصول عربية أو بربرية، وبرغم أنهم من سلالة بربرية جاهلة فهم محاربون أفضل من الأتراك.وأثناء قيامهم بالقرصنة يسند للأهالي أوسخ وأرذل الأعمال، في حين يقضي الأتراك وقتهم في التدخين والكسل، باستثناء الوقت الذي تقع فيه حرب مع عدو، ويقاتلون بأسلحة صغيرة وسيوف قصيرة. إننا نجهل القوة البحرية لتونس وطرابلس، لكنه من الواضح أنه في هذا المجال يعدون أقل بكثير بالنسبة

للجزائريين. ومنذ إعلان استقلال أمريكا الشمالية، ونحن مدينون لسلامة تجارتنا في جزء أكبر إلى الحروب التي وجدت بين الجزائريين، والبرتغاليين، والهولنديين إلى أي من القوى المتفوقة بحريا، وقامت بحراسة يقظة لمدخل البحر المتوسط، مما جعل اللصوص نادرا ما يطوفون في المحيط الأطلسي.

ونادرا أيضا، ما كانت السفن الأمريكية تدخل البحر المتوسط قبل المعاهدة الجزائرية الأمريكية، وعند ما تدخل ، فإنها تضمن سلامتها إما عن طريق جواز مزور أو بشراء جواز متوسطي.

فسفينة بريطانية تحتاج لحمايتها إلى جواز مكتوب على صفيحة من جلد رقيق، وبطريقة مزخرفة مع رشاشات منقوشة أو مرسومة بقلم على الهامش.

فالجزائريون لا يستطيعون قراءة الانجليزية، وبإمكان قرصان سفينة أن يصادر سفينة انجليزية عن طريق الخطأ، كغنيمة ويرسلها إلى ميناء الجزائر، وبسبب ذلك فقد اتخذ جهازا فريدا لمعرفة ما إذا كانت هذه الجوازات حقيقية. إذ حافظوا على عود مرقم بممرات ضيقة تتناسب مع شكل تلك الرشقات المائية، والتي هي موحدة ومرسومة بدقة على حافة الزخرفة وعند ما يصدر جواز، يطبق الإجراء التالي: ليس من الصعوبة بمكان بالنسبة لفنان رسام أن يخدعهم، مقابل شخص له جواز حقيقي أمامه، وفي هذه الحالة قيل أن العديد من السفن الأمريكية حافظت على جوازات مزورة.

مجموع إيرادات الدولة

فإيرادات الداي متقلبة إلى أقصى حد، ودخله يرتفع أو ينخفض تبعا لفرص سلب رعاياه، أو الأجانب، من حيث أنها مختلفة حسب اختلاف القائمين على إحصائها .

واستنادا إلى ما ذكره الدكتور ، شو، فإن جميع ضرائب المملكة تنتج للداي ما لا يفوق 300.000دولار، غير أنه يفترض أن ثمن الغنائم إضافة إلى ممتلكات الأشخاص الذين يموتون و لا يتركون أطفالا، حيث تعود إلى الداي هذه الأملاك، إلى جانب الهدايا من الأجانب، وغرامات وجور ، تضاف جميعها إلى المساهمة السنوية المقدمة من الحكومة، ربما تفوق هذه الإيرادات الرقم المذكور أعلاه. أضف إلى ذلك أنه يخول له حق على كل الأسرى المسيحيين بدفع فدية سلب البحر، والتي عادة ما يدفعها الانجليز، والفرنسيون ودول أخرى، التي تعاني من مشاكل التجارة مع الدول البربارية، وهذه كلها ستزيد من رفع قيمة واردات الدولة. ويقوم كل من الداي وضباطه بتدسيم أنفسهم بأعمال مفضوحة من السلب والاحتيال. لا غرابة إذن أن تجد عامة الناس يقرضون مثل ذلك على بعضهم البعض، خاصة على الأجانب لأنهم يرون أنفسهم أنهم في فقر مدقع بسبب الضرائب الثقيلة وظلم أولئك الذين في السلطة.

يبتز الداي من رعاياه إيرادات ضخمة في شكل أموال، وذهب، وفضة، وذرة، وأنعام ومواد أخرى قد تكون مفيدة الاستعمال لأتراك

الجزائر. فقد كانت الغنائم البحرية تساوي ما يفرضه الداي من ضرائب على المواطنين في السنوات الماضية. ومن هنا يتضح أن تعداد هذه الضرائب تبقى محل تساؤل، وقد يصعب على الداي نفسه أن يقوم بإحصاء دقيق لها.

تعترف الإيالتين التونسية والطرابلسية على نوع من التبعية للداي، غير أن الضريبة السنوية الوحيدة التي تدفع له تتمثل في حمولة الزبدة والزيت.

يجمع القايد ومعه مفرزة من الجنود، كل الضرائب الواقعة على مساحة عشرون ميلا المحيطة بالعاصمة. أما ما وراء ذلك فالداي له قوات عسكرية تركية تتركب كل قوة من حوالي 200 شخص، وتعزز عند الحاجة بجنود آخرين، وتتمركز في أجزاء متفرقة من المملكة، لغرض السلب واستخلاص الضرائب بالإكراه. وترأس هذه القوات عدة مرات باشوات قسنطينة، وبسكرة، والتيطري، كل في موقعه.

فهم لا يعملون بالعدل ولا بالإنسانية ، بل يعملون لمساعدة المستبدون الأتراك. فهم لا يجبرون الأهالي على الخضوع للداي، بل يجبرون الأهالي على دفع مثل هذه الضرائب كما يحددها هم. فهذا الجنس التعيس من البشر، وهم مصدر كل إساءة واستبداد على الطبيعة البشرية. فهم يصطادون مثل الحيوانات الوحشية وسط الجبال، أولئك الرافضين لدفع الضريبة وما يحدده الباشوات من ضريبة، يفرون من

جشع مطارديهم، لكنهم في الغالب تقطع رؤوسهم وتصادر ممتلكاتهم وإن شك هؤلاء الوحوش في مواطن أنه أخفى جزءا من أمواله، فإنه يعذ عذابا شديدا ليكشف عن كل ما لديه، والعديد من هؤلاء الأشقياء غير القادرين على إفشاء السر يعذبون حتى الموت.

وبهذه الطريقة يبتز كل الذهب والفضة وجميع المواد التي لها قيمة ثمينة من السكان. فالبعض منهم له شجاعة كافية أحيانا للهجوم على المعتدين في شعب جبال ضيقة من خلال الممرات التي يجبرون على المرور منها، حيث يقوم الأهالي ، عادة، بقتل عدد كبير من الأتراك. لكنهم يفرون بعد الطلقة النارية الأولى إلى فجوات الصخور المنحدرة للجبال بهذه الطريقة يقومون بجمع الضريبة مرتين في السنة ، وفي كل حملة يحضرون معهم عدد كبير من الرؤوس والأذن المقطوعة للداي، كدليل على ولاء الباشوات في استخراج الضرائب. ويطلب الداي أن ترسل الرؤوس المقطوعة في ضواحي المدينة. أما الذين قتلوا بعيدا فيكتفي برؤية أذنهم، ويجازى حاملوها بمبلغ مالي معتبر عن كل زوج يعرض للملك الودود، يقوم هؤلاء الباشوات بإرسال نوابهم وابناؤهم . كل ستة اشهر مع 50 من البغال محملين بالأموال، ومواد أخرى قيمة يدخل الجميع إلى الجزائر خلال تسعة أيام لكل واحد. وعند اقترابهم من العاصمة يقوم كاسان آغا والآغا باستقبالهم خارج المدينة ، ويشكلون موكبا للدخول إلى المدينة.

يقوم الباشوات بزيارة الداي مرة كل ثلاث سنوات ومعهم ... من بغال المحملة بأسلاب البلاد. وعند اقترابهم المدينة يشكل موكب كبير يخرج كاسان آغا والآغا، ووكيل الحرج، مع مجموعة من الجنود تتكون من 500 أو 600 جندي تركي، لاستقبالهم، يرافقونهم إلى المدينة بضرب طبول وبوق فرنسي، والرايات ترفرف مع حشد كبير من الناس في انتصارهم تؤخذ الغنيمة إلى قصر الداي، حيث يقوم الداي بتوزيع جزء منه على زوجته من زوجاته المفضلة، وجزء آخر بين مختلف ضباط الحكومة

وبعد دخولهم المدينة، ينتظرون بلجاجة القفطان وهو عبارة عن عباءة واسعة أنيقة ، والتي من عادة الداي أن يقدمها لهم كعلامة منه على رضائه لتصرفاتهم، ويبقون في حالة من الترقب والقلق إلى غاية تقديمه الهدية، وإن لم يتلقوا هذه الهدية في اليوم الأول فإنهم سيفقدون رؤوسهم

العقوبات

لا يتوقع في هذه البلاد أن تسود العدالة بأي درجة من المعدمة بالمساواة : فالجنود المسلمون بالخصوص، هم مفضلون إلى درجة كبيرة . فهم لا يعاقبون أمام العامة، وقليل ما يحكم عليهم بالموت لأي جريمة، ما عدا في حالة تمرد، وفي هذه الحالة فهم إما أن يعلقوا على قضيب حديدي . أو يقتلون خنقا بوتر قوس، الذي يعلق حول عنق المذنب وتسحب بطرق مختلفة من قبل جلادين، وبشكل قواعما، وعليه يقتل فورا، فالمذنبات الزانيات يعلقن لهن زمام حول عنقهن ويثبت في نهاية أحد الأطراف مع السارية، وبها يعلقن تحت الماء حتى يختنقن

فالأسرى المسيحيون عرضة لكل أنواع العقوبات، فأحيانا يحرقون، أو بالأحرى يحمرون أحيانا. وكانوا في أوقات ما يوضعون على الخازوق. ويتم هذا العقاب حتى تكون الجريمة في النهاية في رهان حاد. يطعن المذنب من مؤخرة الجسم، وعلى السلسلة الفقرية حتى تظهر أكتافه، يقتل صلبا، وغالبا ما توضع الأيدي والأرجل نحو الأسوار.

لكن العقوبات الشنيعة تمارس على اليهود والمسيحيين الذين يسيئون للإسلام، وفي كلا الحالتين ، فإما أن يصبحوا مسلمين أو يحرقون أحيانا.

وإن ارتدوا بعد ذلك، فيحمرون أحياء، أو يرمون إلى الأسفل من أعلى أسوار المدينة، وعلى عقافات حديدية. تمسك بعظام الحنك، والأضلاع، أو بأجزاء أخرى من الجسم، ويعرف المذنب أثناء إسقاطه أنه سيعاني معاناة شديدة عدة أيام من حياته الباقية. وقد حدث هذا للمغامر الإسباني «Gascon John»، وغالبا ما يمارس هذا النوع من العقاب على الأسرى ، غير أنه في الوقت الراهن بدأ إلغاؤه بصفة عامة. ويوجد هنا قانون، الذي يحكم بموجبه على المرأة العاشقة مع مسيحي، بربطها ووضعها في قفص يرمى به في البحر، فالأمثلة من هذا النوع كثيرا ما تحدث مع الجنس اللطيف في جزء من هذا العالم.

هناك نوع آخر من عقاب مميز، يسلط على عمودين قائمين وفوقهما عمود معترض لشنق المجرمين أو إعدامهم شنقا.والذي يظهر وحشية

هؤلاء الناس. ويوجد على كل جانب من جوانب هذا العمود ، وعلى مقربة من الزاوية العليا ، سلسلتين مثبتتين بطولين مختلفين، وخطاف حاد سريع. فالمجرم يعتلي السلم مع الجلاد، الذي يدفع بشدة الخطاف على السلسلة القصيرة من خلال راحة يده اليسرى، بعدها يدفع دفعا شديدا أيضا، على السلسلة الطويلة من خلال نعله اليمنى ، وبهذه الطريقة يترك الجاني معلقا في عذاب مبرح مدة ثلاثة أيام أو أربعة قبل أن يموت.

لازال أهالي الغرب يمارسون العقاب الوحشي ويخرقون القانون بقطع الرؤوس بالمنشار، والذي يسلط على بعض الأعيان لجرائم ارتكبوها ضد الدولة. ومن أجل ذلك الغرض يقومون بإعداد لوحتين من نفس الطول والعرض مع شرار، ويربطونه بينهما، ويبدؤون عملية قتله بقطع الرأس. وهل بهذه الطريقة تأثر: كارديناس، الذي كان سابقا سفيرهم لدى البلاط البريطاني ،ولازالت العقوبة المصرية تمارس هنا بقطع يدي السارق.

وفي الجرائم الصغيرة ، أو التي ليست بالإعدام، فإن المذنبين يغرمون، أو توقف رواتبهم ، وإن كانوا ضباطا تنزل مراتبهم إلى مستوى الجنود العاديين، فالعقوبة التي لا تشمل الموت تتمثل في معاقبة المذنب بضرب أسفل القدمين بالعصا، وتعطى الضربات إما على البطن ، أو الظهر، أو على نعل الحذاء، وهذا يعود إلى رغبة القاضي، الذي يعين العدد الذي يصل أحيانا إلى 200 أو 300 ضربة. وطبقا أيضا لمجاراة المذنب، فيمكن له أن يحصل عليها عن طريق رشوة أو صداقة، وغالبا ما يموت تحت هذا العقاب، ومعظم طريقة الفلقة تقع على الأرجل فقط. فالجريمة

الخاصة بالظهر، أو البطن أو القدمين قد تزداد أكثر، ويقيد المعني من قبل الضباط. وفي هذه الوضعية فإن العقوبة تسلط بعدد من الخرزات.

فالأهلي الذي يسرق منزلا تقطع يده اليمنى وتربط بعنقه، ويقاد وسط المدينة راكبا حمارا، ووجهه متجهة نحو ذيل الحمار. فلا احترام لنوعية الإنسان، لكن الغرامة المالية توقف مجرى العدالة، إلا إذا كان المذنب قد ارتكب جريمة تتجاوز حد الفظاعة.

والعقوبة المعمول بها مقابل دين هو الحبس، وذلك طبقا لممارسة بعض الدول التي تزعم أنها أكثر تنويرا. فالمدين غالبا ما يسجن في سجن حتى يحجز المأمور القضائي أملاكه ويبيعها، وإن كانت قيمة المبيعات تفوق قيمة الدين، فإن الفائض يعاد على المدين، وإن كانت دون ذلك، لا يطلق سراحه ولا تقدم طلبات تسريحه مستقبلا.

الدين

سكان الجزائر، كما هو معروف، هم مسلمون. فالمفتي والقاضي، وكبير ولي من أولياء الله، يعدون من الشخصيات الدينية، فالأول هو المسئول الأعلى لدينهم، والثاني، القاضي الأعلى يقاضي في المسائل الدينية، وكذا القضايا المدنية حيث لا تتدخل الحكومة، والثالث هو رئيس زاوية المؤمنين أوالمتصوفين. فهؤلاء الأشخاص الثلاثة مبجلون إلى حد كبير بعمامتهم. يجلسون في الديوان دون الداي، وعلى يمينه. فالجزائريون لهم إجلال غريب للأغنياء، بحيث أن ذلك العدد من أوليائهم الصالحين يزعمون أنهم من هذه الطريقة، حتى يتلقوا احتراما أكثر من الناس. فهؤلاء الأولياء إما أن يعيشوا في عزلة وفي كهوف، أو يتيهون

حفاة، ويتنقلون من مدينة لأخرى بلباس رثة وعكاز في أيديهم، ويعتقد الناس الذين يصافحونهم أنهم خالون من الأوساخ، كما أن الشخص الذي يتصل بهم يظن أنه شخص مفضل ولأنه يعتقد أنه بتصرفه هذا سيغفر له الله ذنوبه.

ويدرس هؤلاء السحر وعلم الفلك، ويتعهدون أنهم يعالجون كل الأمراض، ويستلهمون حب العديد، وقوة الكهانة. بدؤوا حياتهم في شظف العيش، أو في الدعاء والتأمل.وتبقى الولاية بالخلافة، وتسند المسئولية إلى أبنائهم بنفس التبجيل ويحترمون مثل آبائهم، وهم قادرون أن يثبتوا أنه بإمكانهم أن ينالوا نفس الرزانة والوقار.فقد اشتهر البعض منهم أنهم اكتسبوا نفس المقدرة مثل نبيهم عند تلقيه الوحي والحديث مع الله.

يوجد في الجزائر العديد من المساجد، حيث يدفن هؤلاء الأولياء الذين يكرمون كأولياء، وتشعل مصابيح حول قبورهم، ويتلقى الأشخاص الزائرون الذين يقدمون هدايا لهذه الأضرحة فرج لأمراضهم أو الحصول على حجة ، خاصة أولئك المرضى، ذلك لأن النبي انزعج من هذا المرض، وأعلن إذ ذاك أن الله أوحى إليه عن طريق جبرائيل بالأسرار المقدسة لدينه.

يعتبر جميع الجزائريين الذين لهم قدرة كافية أنه من الواجب والضروري الذهاب مرة واحدة في حياتهم إلى مكة لأداء الحج. ونظرا للعدد الضخم الذي يذهب إلى هنالك من مختلف أجزاء تركيا، فإن هذه المدينة هي أكثر زحما بالناس من أي مدينة في العالم.

وبما أن فرض الديانة الإسلامية قد انتشر عبر مناطق واسعة من البلاد في ثلاثة أرباع من الكرة الأرضية، فإنه يشكل اهتماما خاصا في تاريخ الإنسانية، وربما أنه من اللائق أن لا نقدم بعض المعلومات للمؤسس الكبير لهذا الدين. فهو من مواليد نهاية القرن السادس من التاريخ الميلادي تقريبا. جاء إلى العالم في ظل ظروف غير مواتية، فوالده عبد الله كان شابا يافعا ابن عبد المطلب، مات صغيرا، ترك أرملته وابنه الصغير في ظروف خاصة، وكل ما تركه له سوى خمس جمال ومملوكة من أصل أثيوبي. ومن هنا كان لزاما على عبد المطلب أن يعتني بالولد الابن محمد، والذي لم يقصر في تربيته أثناء حياة والده، بل أيضا بعد وفاته أوصى ابنه الأكبر أبو طالب، الذي كان أخ لعبد الله من نفس الأم بأن يعده للمستقبل وعلمه أعمال التجارة، التي اتبعها ولذلك الغرض أخذه إلى سوريا عند ما كان في الثالثة عشرة من عمره. بعدها زكاه لخديجة، وهي أرملة ثرية، كوكيل لها، وأحسن السلوك معها جيدا، ثم أنه سرعان ما أصبح زوجا لها وأصبح من كبار أثرياء مكة.

وبعد أن شرع بهذه المباراة المفيدة ليعيش على راحته، شكل نظام إقامة دين جديد أو كما صرح به بذلك، إعادة غرس الحقيقة فقط. والاعتراف بالديانة القديمة التي آمن بها آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى وكل الأنبياء، وذلك بالقضاء كلية على عبادة الأوثان، التي كانت سائدة وسط أبناء بلده، والخلاص من التحريف والخرافات التي كان يمارسها المحدثين من اليهود والمسيحيين، كان يعتقد أنها أدخلت في ديانتهم، وجعل هذا الدين نقيا صافيا، يتمثل أساسا في عبادة إله واحد.

وقبل القيام بأي محاولة في الخارج، جادل بحكمة أنه من الضروري بالنسبة له أن يبدأ الحديث مع أسرته. ومن ثم انزوى بأسرته، كما فعل ذلك سابقا عدة مرات عند ذهابه إلى غار حيراء، عندها صرح بسر مهمته إلى زوجته، خديجة، وأخبرها أن الملاك جبرائيل، قد ظهر توا أمامه، وأعلمه أنه عين رسول الله.

تلقت خديجة هذه الأخبار بفرح كبير وأقسمت به،انه سيكون نبي قومه. لقد تشجع في البداية وقرر القيام بذلك، وحاول في وقت ما ذا يستطيع القيام به بإقناع خاص، ولم يتجرأ أن يخاطر بكل الأمر بعرضه فجأة أمام العامة.

الشخص الثاني الذي تقدم إليه كان أبو بكر، شخص ذو سلطة بين أهل قريش، عرف محمد أن أبو بكر سيقدم له خدمة عظيمة، وبما أنه ظهر توا بالنسبة لأبي بكر فإنه سيتغلب على مجموعة رئيسية من أهل مكة ليحذو حذوه، وقد اعتنق الإسلام معه في ظرف ثلاث سنوات عدد آخر ، وهو ما كان يأ مله محمد في نهاية الأمر، حتى يكونوا خير سند له، ولا تبقى مهمته سرية، لكنه صرح علانية أن الله أمره أن يذكر أقاربه ومن اجل القيام بها مع ملاءمة ونجاح مرتقب، توجه إلى علي لإعداد ضيافة ودعوة أبناء وأحفاد عبد المطلب ليشرح لهم رسالته. وقد تم هذا وحضر منهم حوالي 40 شخصا، لكن ابو طالب ، أحد أعمامه، فرق الحاضرين قبل أن تتاح فرصة الحديث لمحمد، وأجبره على استدعائهم مرة ثانية في اليوم الموالي، وعند ما عادوا تقدم بالحديث الآتي إليهم: لا أعرف أي شخص في

الجزيرة العربية بإمكانه أن يقدم لأقاربه شيئا ممتازا أكثر ما قدمت لكم الآن. أقدم لكم سعادة حياة الدنيا والآخرة. فقد أمرني الله أن أدعوكم له ولذلك هناك شخص من بينكم سيساعدني في هذا، ويصبح أخي وخليفتي.. اعتذر الجميع عن قبول العرض، أخيرا استجاب علي، وأعلن أن سيكون مساعده، وهدد بحماس أولئك المعارضين له. بعد ذلك قام محمد وعانق علي وجاهر عطفه عليه، وتمنى من جميع الذين حضروا أن يسمعوا ويطيعوا علي كخليفة له وكان رد الحاضرين عليه ضحكة كبرى. لم يكن هذا الرفض والرد عاملا في عدم تشجيع محمد، بل بدا يخطب في الناس بشكل علني أمام الناس الذين سمعوه مع شيء من الصبر حتى أصبح يؤنبهم بالوثنية وعناد أنفسهم وآبائهم، وهو ما أغاظهم كثيرا، وعليه أقسموا أنهم أعداؤه وأنه سيتم القضاء عليه ولا يمكن لأبي طالب حمايته.

وقد هدده شيخ آل قريش بالقطيعة إن لم يتوقف عن نشر الدعوة المحمدية. وهنا تحرك أبو طالب بسرعة، وصرح أنه أقنع بصورة صادقة ابن أخيه من متابعة هذا الأمر إلى أبعد من هذا، لأن ذلك يمثل خطرا لمثل هذه المهمة.

غير أن محمدا لم يكن ليستسلم للتهديد، وأعلن لعمه بصراحة: أنهم لو وضعوا الشمس على يميني، والقمر على يساري، ما تركت هذا الأمر

وهنا لاحظ أبو طالب أن محمدا عقد العزم على السير في مهمته وعليه لم يستعمل حجج أخرى سوى الوعد بالوقوف معه ضد جميع أعدائه.

لم يستطع أهل قريش وقفه سواء بالكلمات الطيبة أو بالتهديد، فقد حاولوا استعمال القوة وسوء المعاملة، فأضروا برفاق محمد، حتى لا يستطيعون البقاء في مكة مدة أطول. عندها أذن محمد للبعض منهم، لعدم وجود أصدقاء يقومون بحمايتهم، للبحث عن ملاذ آخر.

فرح محمد بتعزيز فريقه، في السنة السادسة من مهمته، وذلك باعتناق عمه حمزة، وعمر بن الخطاب، الذي كان أشد معارضي الرسول.

وبسبب الاضطهاد والعوائق التي ازدادت عرف الإسلام انتشارا واسعا وسط القبائل العربية. حاولت قريش القضاء عليه إن أمكن في السنة السابعة لمهمة محمد. أقاموا حلفا مقدسا ضد بني هاشم وأسرة عبد المطلب، وتعاهدوا فيما بينهم بعدم عقد أي زواج مع اي منهم، وتسليط عقوبة كبيرة على من يخالف ذلك. حرر ذلك العقد وعلق في الكعبة.

ونتيجة لذلك بقيت العائلات في خلاف مدة ثلاث سنوات. غير انه في السنة العاشرة من رسالة محمد، أخبر عمه أبو طالب، أن الله أوحى له بعدم تسامحه للتكتل الذي أقدم عليه أهل قريش ضده، بأن أرسل دودة تأكل كلمة من كلمات الصك ما عدا كلمة الله. ومن هذه الحادثة أبدى محمد بعض الملاحظات الخاصة: وبناء عليه توجه أبو طالب إلى قريش، وأعلمهم بالحادثة، ووعدهم أن يسلم لهم حفيده إذا تأكد من أن ذلك كان غدرا، غير أنه وفي حالة صحة الخبر، فإنه يتوجب عليهم ترك عداوتهم الدفينة جانبا، وإلغاء الحلف الذي أقاموه ضد الهاشميين. قبلوا ذلك بدون معارضة. وذهبوا لمعاينة الكعبة، وكم كانت دهشتهم عند ما

وجدوا ما قاله لهم أبو طالب صحيحا ومن ثم اعتبروا الحلف ملغيا.

وفي نفس السنة يموت أبو طالب عن أربع عشرينيات وقرابة شهر، أو ثلاثة أيام وذلك استنادا إلى ما كتب بعد وفاته، أضف إلى ذلك أن محمدا انكسرت نفسه بعد فقدانه لزوجته التي جعلته وافر المال. ولهذا السبب سميت هذه السنة بسنة الحزن والأسى.

بعد وفاة هذين الشخصين، بدأت قريش تسبب مشاكل أكثر من ذي قبل لرسولهم، ولأنه وجد نفسه مجبرا على طلب اللجوء إلى الطائف، حيث استنجد بشيخين من شيوخ قبيلة ثقيف الذين كانوا يقيمون في هذا المكان، غير أنهما استقبلاه بفتور. كان لزاما عليه عندئذ أن يعود إلى مكة، حيث وضع نفسه تحت حماية المطعم بن عدي.

فهذا الرفض أثر كثيرا على تابعيه، غير أن محمد واصل بشجاعة وعظ التجمعات العامة أثناء الحج، وانضم إليه العديد من المرتدين عن دينهم.

وفي السنة الثانية عشرة من رسالته خرج وسافر ليلا من مكة إلى القدس، ومنها صعد إلى السماء والصحيح : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» وقد تحدث عنه الكثير ممن كتبوا عنه.

تبدو هذه الأسطورة مضحكة للعديد من أتباعه الذين تركوه بسبب ذلك، وقد يؤدي ذلك إلى القضاء نهائيا على القصد. وقد شهد أبا بكر بصدقه، وأعلن أنه إذا ما أكد محمد ذلك، فإنه سيصدقه حقا.

كانت حادثة سعيدة، والتي لم تستعد تصديق الرسول فقط، بل رفعت به إلى درجة أعلى، إذ أصبح فيما بعد قادرا أن يجعل تابعيه يصدقون كل شيء يفرضه عليهم بدون أدلة.

فهذه الأسطورة، بالرغم من مغالاتها، كانت من التدابير البارعة لمحمد، وذلك ما ساهم من رفع سمعته إلى درجة عالية حيث وصل في النهاية مبتغاه.

أطلق محمد على هذه السنة بالسنة المقبولة، فقد جاء إثنى عشر شخصا من يثرب أو مكة، لأداء يمين الولاء لمحمد في الكعبة، كدية شمال تلك المدينة ، بعدها أرسل محمد أحدا من أتباعه والمدعو مصعب بن عمير إلى موطنه معهم لتعليمهم أكثر في الساحات والقيام باحتفالات لدينه الجديد.

وصل مصعب إلى المدينة بمساعدة أولئك الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام وكسبوا إلى صفهم العديد من المرتدين عن دينهم. انتشر الإسلام بسرعة مما جعل المنازل التي يؤمون إليها لاعتناق الدين الإسلام لا تفي بالغرض. وفي السنة المقبلة، أي السنة الثالثة عشر لرسالة محمد، عاد مصعب إلى مكة برفقة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من المدينة اللواتي قدمن مساعدة لمحمد، والتي سبق وأن قبلها وذلك عند ما كان في خطر شديد من معارضيه الأقوياء. لقد اختار محمد من هذا العدد إثنى عشر شخصا، الذين ستكون لهم نفس السلطة بينهم مثل حواريي عيسى.

وحتى الآن نشر محمد دينه بوسائل عادلة، وعليه فإن النجاح الكلي لهذا المشروع، يجب إسناده، قبل أن يقصد المدينة إلى العقيدة الدينية.لم

يسمح له باستعمال أية قوة على الإطلاق ولو عانى ضررا من ذلك، قبل اليمين الثاني للولاء والتنصيب، في الكعبة. كما لم يسمح لتابعيه باستعماله، لكنه أوصاهم أن يتحلوا بالصبر أمام هذه الجراحات التي يتعرضون لها نتيجة إيمانهم وصبرهم، لكن يبدو أن هذا الاستسلام الكبير والكلي يعود إلى التفوق الكبير لمعارضيه في السنوات الإ ثنى عشرة الأولى لرسالته، لأنه سرعان ما تمكن بفضل مساعدة أهل المدينة لمواجهة أعدائه، على أنه أعلن أن الله قد أذن له ولأتباعه بمهاجمة الكفار والقضاء على عبادة الأوثان، وإقامة دين حقيقي بالسيف لأنه وجد وبالتجربة أن مقاصده ستسير ببطء، ويعلم جيدا أن المحدثين يعتمدون فقط على قوتهم وربما يحدثون له خطرا كبيرا، ويقول في هذا المجال، ما كيافيل، أنه تبعا أن كل الأنبياء المصلحين قد نجحوا والغير المصلحين فشلوا. ذلك أن لمحمد الحق في التسلح ليدافع عن نفسه وربما يسمح بهذا، أما أن يقوم بعد ذلك بإقامة دينه عنوة فليس من السهل تقريره. لقد وفر أمنا لرفاقه ولشخصه أيضا، وذلك عن طريق إقامة حلف للدفاع والهجوم الذي عقده الآن مع أهل المدينة، وأعطاهم أمرا بالتوجه إلى هنالك، وهو الأمر الذي طبقوه، أما هو ومعه أبو بكر وعلي فقد تخلفوا إلى الوراء لم يتلقوا بعد الإذن الرباني لمغادرة مكة، وذلك ما ظهر على الرسول.

خشي أهل قريش نتيجة هذا التحالف الجديد وشرعوا يفكرون بشكل جدي من منع هروب محمد إلى المدينة، وعليه عقدوا اجتماعا، وتوصلوا إلى نتيجة وجوب قتله، واتفقوا على اختيار شخص واحد من كل قبيلة لتنفيذ هذه الخطة، على أن يكون لكل واحد منهم رمح وسيف وأن

يكون دم الجريمة بالتساوي لكل القبائل، لأن قوة اتحادهم تفوق قوة بني هاشم بكثير، عندها لا يجرؤون في الانتقام من وفاة قريبهم.

تشكلت هذه المؤامرة بسرية تامة، وقبل أن يكون محمد على دراية بها، أوحى له جبرائيل، الذي أمره الآن بالذهاب إلى المدينة، وعلى إثر ذلك، ولتلهي أعدائه، وهذا ما قام به أسر محمد إلى علي بن أبي طالب أن يتسجى برده الخضرمي الأخضر وأن ينام في فراشه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة. جعل فتيان قريش ينظرون من فرجة إلى مكان نوم النبي، فيرون في الفراش رجلا فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفر. واستمروا في الحراسة حتى الصباح، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج محمد في غفلة منهم إلى دار أبى بكر وخرج الرجلان من خوخة في ظهرها، وانطلقا جنوبا إلى غار ثور، إلى الجنوب الشرقي من مكة، حيث بقيا في الخفاء مدة ثلاثة أيام تجنبا من أن يكشفهما عدوهما، الذي كان على مقربة منهما وبدون معجزة ما كانا يمنعان، ويقول البعض أن قريش أصيبوا بفقدان البصر ولذلك لم يهتدوا إلى الغار، والآخرون يرجعون ذلك إلى نسيج العنكبوت والحمامتان باضتا عند بابه، وأن العنكبوت هو الذي غطى فم الغار بنسيجه. رأى أبو بكر أن النبي في حالة خطيرة وأصبح حزينا جدا، في حين كان محمد يشجعه بهذه الكلمات الواردة في القرآن: لا تحزن إن الله معنا.

انسحب أعداؤهما، وتركا الغار في تجاه المدينة عن طريق جانبي، ولحسن الحظ أنهما ابتعدا عن بعض الأشخاص الذين كانوا يلاحقونهما،

وصلا المدينة بسلام، حيث تبعهما علي بعد ثلاثة أيام، وذلك بعد أن سوى بعض الأمور في مكة وأول شيء قام به محمد إثر وصوله المدينة، أن أقام مسجدا لعبادة دينه، ودار له.

وبعد أن استتب الأمن هنالك، ولم يصبح قادرا فقط للدفاع عن نفسه من إهانت أعدائه، بل مهاجمتهم، وأصبح يرسل مجموعات صغيرة للقيام بمعاقبة قريش، وكانت المجموعة الأولى تضم تسعة أشخاص الذين اعترضوا وغنموا قافلة لتلك القبيلة، وأثناء العملية قاموا بأسر شخصين. لكن ما أرسى شؤونه كثيرا، والذي بنى عليه نجاحه الأكبر هو انتصاره في معركة بدر، والتي دار رحاها في السنة الثانية للهجرة، وهي مشهورة في تاريخ الإسلام. ويعتبر البعض أنها لا تقل أهمية عن 27 غزوة التي شارك فيها محمد شخصيا، وانتصر في تسعة منها، إلى جانب عدة غزوات أخرى التي لم يكن حاضرا فيها. حافظ على جزء كبير من قوته نتيجة مساهمات أتباعه لهذا الغرض ويطلق على هذه المساهمات، اسم الزكاة، والتي تعد أحد الأركان الرئيسية في أركان دينه، ويدفع الجزء الآخر من الغنيمة إلى الخزينة العمومية لذالك الغرض.

بعد سنوات قليلة، وبفضل نجاح جنوده بالرغم انه يخسر المعركة أحيانا، اتسعت سمعته وقوته بشكل ملحوظ.

خرج في السنة السادسة للهجرة ومعه 1400 شخص لزيارة الكعبة في مكة، ولم يكن القصد من هذه الزيارة القيام بأي أذى أو حرب، ولكن بطريقة سلمية.

ومهما يكن فإنه عند ما وصل الحديبية، والتي يقع جزء منها في الداخل والآخر في منطقة غير مقدسة، أرسلت له قريش رسولا تخبره أنهم لن يسمحوا له بدخول مكة وإلا اعترضوا سبيله، عندها، طلب من جنوده الاقتراب منه وأقسموا له جميعا وتكريما له أن يهاجموا المدينة بعد الاتفاق، غير أن أهل مكة أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، أمير قبيلة ثقيف، كمبعوث عنهم ينشد السلام، ووقعت هدنة بينهما لمدة عشر سنوات، وتقضي هذه الهدنة أن يسمح لكل من يرغب أن يدخل في حلف سواء مع محمد أو مع قريش كما يرى له ذلك مناسبا. ومما قاله المبعوث عن الرسول عند عودته، بعد الاتفاق: ليس من اللائق ومن أجل إظهار ما لا يتصوره العقل للاحترام والإجلال الذي يخص به المسلمون رسولهم، وهذا باعتراف عروة عند عودته، وقال وكأنه كان في بلاطي الرومان والفرس، وأنه لم يشاهد أي أمير محترم من قبل رعاياه مثلما شاهده مع محمد وأتباعه.

لقد شاهد محمد وهو يتطهر للصلاة وإذا بأتباعه يركضون ويشدون له الماء الذي يستعمله، ويجمعون كل شعرة تسقط منه مع تطير كبير بدأ محمد، في السنة السابعة للهجرة، يفكر في نشر دينه خارج حدود الجزيرة العربية، وأرسل رسلا إلى الأمراء المجاورين له، مع رسائل للدعوة إلى الإسلام، ولم يجد هذا المشروع سوى نجاحا بسيطا، فقد استقبل ملك الفرس، خُسْرُو بَارْفِيزْ هذه الرسالة بازدراء كبير، وأعاد المبعوث بعجل، وعند ما سمع ذلك محمد ، قال : أن الله سيمزق مملكته. ومباشرة بعد ذلك جاء رسول إلى محمد من ملك اليمن، الذي كان تابعا

للفرس، أخبره أنه تلقى أوامر من الملك ليرسله إلى خورسو، أجل محمد الموضوع إلى الصباح التالي، عندها أخبر رسوله أنه أوحى إليه في تلك الليلة، أن خورسو قتله ابنه شيرويه، وأضاف محمد قائلا، أنه مطمئن أن دينه الجديد وإمبراطوريته سيزدادان اتساعا مثل مملكة خورسو، بعدها حياه ونصح سيده باعتناق الإسلام. عاد المبعوث إلى بادهان، وبعد أيام قليلة تلقى ملك اليمن رسالة من شيرويه يخبره فيها بوفاة والده، وعدم إزعاج النبي.

وعلى إثر ذلك اعتنق أهل الفرس واليمن الإسلام. أما الإمبراطور هرقل وحسبما أخبرنا به المؤرخون العرب تلقى رسالة محمد باحترام كبير ووضعها على وسادته، وانصرف حاملها بكل شرف. اعتقد البعض أن هرقل سيعتنق هذا الدين الجديد وبذلك يفقد عرشه.

راسل محمد في نفس الموضوع ملك الحبشة، والمقوقس، والي مصر، الذي خص إحداهما تدعى مارية ، التي اصطفاها النبي بنفسه، كما بعث برسائل مماثلة ولنفس الغرض إلى عدة أمراء عرب، خاصة واحدة إلى الحارث بن أبي شمر، ملك غسان، الذي استجاب هو شخصيا لاعتناق الإسلام، وقال عنه الرسول مزق الله ملكه.ورسالة أخرى إلى حودة بن علي ملك اليمامة، الذي كان مسيحيا، وكان رده فاحشا جدا، وعلى إثر ذلك لعنه الرسول، ولم يمر وقت حتى توفي.

والرسالة الثالثة إلى المنذر بن سوحة، ملك البحرين، الذي اعتنق الإسلام، وسايره كل العرب في تلك الديار.

كانت السنة الثامنة للهجرة سنة خير وبركة لمحمد، حيث تم فتح سوريا من قبل خالد بن الوليد، ومصر على يد عمرو بن العاصي، وكلاهما يعتبران من الجنود الممتازين، أصبحا من المدافعين عن الإسلام. بعدها أرسل الرسول 300 شخص ضد القوات الإغريقية للانتقام من قتل أحد رسله، الذي أرسل إلى والي البصرة على نفس السفرة مثل الذين أرسلوا إلى الأمراء المذكورين أعلاه.ذبح من قبل عربي من قبيلة غسان في موتى ، وهي بلدة في داخل البلقا بسوريا، بالقرب من المكان الذي تم فيه اللقاء، فالإغريق هم المتفوقون عددا إضافة إلى عدد العرب الإضافيين فلهم جيش قوامه 100.000 شخص وقد رد المسلمون على أعقابهم في الهجوم الأول وفقدوا ثلاثة من جنرالاتهم، زيد بن الحارث، عتيق محمد، وجعفر بن أبو طالب، وعبد الله بن رواحة. أما خالد بن الوليد، الذي تولى القيادة بعد ذلك، فقد أوقع خسارة كبرى بالإغريق، وحاز على غنائم جد ثمينة، وبهذه المناسبة أطلق عليه محمد لقب سيف من سيوف الله.

وفي هذه السنة استولى محمد على مكة، نتيجة خرق سكانها للهدنة المبرمة قبل سنتين. فقد هاجمت قبيلة بكر، المتحالفة مع قريش، قبائل خزع المتحالفة مع محمد. قتلوا الكثير منهم، ودعموا في المعركة بجزء من أهالي قريش أنفسهم. ونتيجة لهذا الخرق، قام أبو سفيان برحلة إلى المدينة قصد رأب الهدنة وتجديدها، لكن من غير الفائدة، إذ رفض محمد استقباله، اغتنم أبو سفيان الفرصة للاتصال بابو بكر وعلي غير أنهما لم يردا عليه، عندها اضطر للعودة إلى مكة كما جاء.

وبعد ذلك مباشرة أصدر محمد أوامره بالاستعداد فورا لمفاجأة أهل مكة قبل أن يستعدوا للقائه، بدأ سيره في وقت قصير للوصول إلى مكة، وعند اقترابه المدينة مكة ارتفع عدد رجاله إلى 10.000 رجل. أما أهل مكة فلم يكونوا في وضعية للدفاع عن أنفسهم ضد جيش قوي، واستسلموا بتحفظ واحتياط، أما أبو سفيان فقد أنقذ حياته باعتناقه الإسلام. قتل 28 من عبادي الأصنام بقيادة خالد، لكن ذلك حدث عكس أوامر محمد، الذي أعفى عن أهل قريش جماعيا عند دخوله مكة، بعد استسلامهم، باستثناء ثلاثة رجال وامرأة واحدة الذين حكم عليهم بالموت، والباقي نالوا العفو مقابل اعتناقهم الإسلام.

أما ما تبقى من هذه السنة فقد وظفها محمد في هدم الأصنام داخل وقرب مكة، مرسلا قادته في غزوات لنفس الغرض، ودعا العرب إلى اعتناق الإسلام.

أما السنة الموالية فكانت السنة التاسعة للهجرة، ويطلق عليها المسلمون سنة السفارات أو البعثات، فبالنسبة للعرب يتوقعون نشوب حرب بين محمد وقريش، لكن بما أن هذه القبيلة، هي القبيلة الرئيسية لكامل البلاد، فقد اقتنعوا أنه ليس في صالحهم مادامت قوتهم أضعف من قوة محمد، ومن ثم بدؤوا في التوافد إليه بأعداد كبيرة، وأرسلوا بعثتين إلى كل من مكة والمدينة لأخبار محمد باستسلامهم له. ومن بين الباقين، خمس ملوك قبائل حمير التي اعتنقت الإسلام، وأرسلت رسلا للإشعار بذلك.

وفي السنة العاشرة، أرسل علي إلى اليمن لنشر العقيدة الإسلامية هنالك، واعتنقت قبيلة حمدان بكاملها الإسلام في يوم واحد، كما قيل. وسرعان ما اتبع قدوتهم جميع سكان تلك الولاية، ما عدا أهل نجران، الذين بقوا على نصرانيتهم، واختاروا بدلا لذلك دفع الجزية.

وفي السنة الحادية عشر توفي محمد، وهكذا أقيم صرخ الإسلام، واقتلعت عبادة الأصنام من جذورها أيام محمد في كامل الجزيرة، ولم تتم غلبته إلا في عهد خلافة أبا بكر، عندها اتحد العرب في عقيدتهم، وتحت قيادة أمير واحد، فوجدوا أنفسهم في حالة تجعل من أولئك الفاتحين الذين بفضلهم انتشرت العقيدة الإسلامية في جزء أكبر من العالم.

يقع المسجد الذي يوجد فيه قبر محمد في وسط المدينة، تقريبا، ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم : المدينة المنورة. فهو يمثل بنية رائعة، ومدعم ب400 سارية فخمة، وينيره ما يفوق 300 مصباح رائع يزيده بهاء ورونقة، والتي تبقى مضيئة باستمرار. له مئذنة صغيرة مغطاة بصفائح فضية، والأرض مغطاة بقماش مذهب. وتزار المدينة أكثر من أي مدينة في العالم ما عدا مكة. يقع تابوت محمد تحت القبيبة، وشاع عند العامة أن هذا التابوت صنع من الفولاذ، ومعلق في الفضاء بقوة مغناطيسين، غير أن هذه فكرة خاطئة، وأنها فندت منذ أمد بعيد، فالضريح يمكن مشاهدته من وسط إلى أدنى القبة، وهو محاط بأحجار ثمينة ذات قيمة جد عالية، خاصة المتواجدة منها في جزء من القبيبة والتي تقع فوق رأس الرسول، ووضع

على قدميه هلال مذهب من صنعة أنيقة، تتلألأ بأحجار نفيسة متألقة وسدة تطريز أنيق تمتد فوق الضريح وطرح فوق التابوت ستار قماش غني بالذهب والفضة، والذي يرسل سنويا إلى هنالك من باشا مصر، وذلك بأمر من الباب العالي، وبأبهة لا توصف. جرت العادة أن تحمل هذه السدة على ظهر جمل له أبهة ووقار، وعند ما تنزل هذه الهدية الثمينة، فإن هذا الحيوان يعفى إطلاقا من استعماله في عناء مهين. يدعم المكان الذي يوجد فيه التابوت بأعمدة رخام سوداء، ويحاط بدرا بزين فضية، تزين بعدد من المصابيح المشتعلة والتي تجعل ذلك المكان مظلما بسبب الدخان المتصاعد، والقبيبة مزينة بدمسق بيضاء وحمراء، وعليها هذه الكلمات المطروزة بحروف عربية من الذهب: لا إله إلا الله محمد رسوله.

يبلغ طول المكان 100 قدما و 90 في العرض، وله بابين وسرارة مقببة، ويحشد الحجاج الذين يلجئون إلى هذه القبة بشيء مدهش ،ويتوجب على كل مسلم حسب مذهبه أن يزور هذا الضريح مرة واحدة على الأقل في حياته، ويعتبر ذلك الشخص الذي زار هذا الضريح بمثابة ولي.

فالركن الأول للإسلام يقول: ليس هناك سوى إله حقيقي وأن محمد رسوله.فالقرآن يوصي الإيمان بالملائكة، ويفهم القرآن أن الملائكة طاهرات ولا يمكن إدراك أجسامهن، وليس هناك تمييز في الجنس بينهن ولا تتوالد أنواعهن، ولها أشكال ووظائف عديدة، فالبعض منها يعشق

الإله في وضعيات مختلفة. والملائكة الأخرى يطربون تقديرا له أو توسطا لفائدة البشرية.

أطلق الرسول اسم على إبليس، ليأسه وكان واحدا من الملائكة المسماة عزرائيل، والذي يكون حاضرا مع الله، وسقط لرفضه أداء الاحترام لآدم بأمر من الله. ويعتقد المسلمون أنه جنس تابع للملائكة ويدعونه الجن. ويعتقد أنه أرسل ما لا يقل عن 124.000 رسول إلى العالم، والبعض الآخر يقول أكثر وذلك في فترات متباينة، ومن بينهم نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد، وأن قوانين كل واحد من هؤلاء الأنبياء تلغي القوانين التي سبقته مباشرة.

والركن الثاني في العقيدة الإسلامية، هو مبدأ البعث من جديد، لكن ذلك لا يعلمه سوى الله وحده.فقد تحادث محمد في هذا الموضوع مع جبرائيل، أما الملاك فقد اعترف بجهله للزمن. ويعتقدون أن البعث سيشمل جميع الحيوانات والملائكة والجن، وأن الناس سيرتقي بعضهم إلى سعادة أبدية والآخرون إلى شقاء أبدي. يؤمنون بالجنة التي يتصورونها بأنها تقع فوق السموات السبع أو أنها في السابع الموالي تحت عرش الملكوت، وأنها تمثل لطف المكان، ويقولون أن ترابها هو أجود تراب القمح، أو المسك الخالص، وأن أحجاره من اللؤلؤ والبلخش، وأسوار بناياته مزخرفة بالذهب والفضة، ومن بين الأشياء الأكثر إثارة

هي شجرة طوبا، أو شجرة السعادة، التي تقف في قصر محمد، ويمتد فرع منها إلى منزل كل مؤمن حقيقي، وأن أغصان الشجرة محملة بفواكه لذيذة وجسامة المفاجأة. وطعم مجهول للأموات، والذي إذا رغب إنسان في أكل الأغصان فإنها تميل إلى الأسفل لتقدم له فواكهها، ذلك أن هذه الشجرة ستزوده بألبسة فخمة من الحرير، وأن الحيوانات ستنفجر خارجه من الفواكه، وستحمل بسروج مزينة جاهزة للمؤمنين الحقيقيين لامتطائها، ذلك أن هذه الشجرة ضخمة جدا لشخص يمتطي فرس سريع الجريان ، وأنه لا يمكن أن يحضر فرسا من نهاية ظله إلى الآخر في مائة سنة .فبعض أنهار الجنة، كما يقولون، تنبع من أنهار إما مائية صافية، أو بالحليب، أو بالعسل وأخرى من النبيذ. تنبع جميعها من أصل شجرة السعادة، وإلى جانب ما يقولونه، فإن هذه الشجرة مزودة بالماء وذلك بعدد من الينابيع والفوارات التي لا تنتهي، فحصاته ياقوتة حمراء وزمردية ، ففراشها من المسك وجوانبها زعفراني اللون.

فكل هذه السعادة والغبطة ستسمو إلى أبعد الحدود بجمال المرأة التي يعجز وصفها وجمالها الفاتن، فساكني الجنة، ستكون عشرتهم مصدرا أبديا لسعادة جماعة المؤمنين.هذا ما ورد في القرآن، فهؤلاء تشكلوا من مسك خالص، وخال من كل شوائب تحدث للجنس باحتشام نموذجي أكبر، ومنعزلين عن المنظر العام في خيم واسعة من لؤلؤ

أجوف، ذات 60 ميلا طولا وكذلك العرض، كما يمكن للمقيمين في الجنة أن يمتعوا أنفسهم بهذه الملذات بكامل قواهم، وقيل أنهم سيمنحون مقدرة عالية غير عادية، ويترعرعون في شباب سرمدي.

الفصل 2

بيانات مختصرة للمدن الرئيسية، مدينة الجزائر،أصولها، موقعها، المنازل، الماء، البنايات العمومية، الشوارع، الأبواب، الأسوار، المرفأ، القلاع، الحصون.

هناك قلة قليلة من المدن لا قيمة لها، حتى ولو أنها تقع على امتداد السواحل البحرية، مع أنها كانت تحت سيطرة قرطاج وروما على التوالي، فهي ذات كثافة سكانية.فكل البلدات الساحلية ، باستثناء العاصمة، قليلة السكان، كما أن البلدان الداخلية أقل سكانا، ويسكنها أناس أقوياء البنية ، الذين يتاجرون مع بلاد الجريد وبلاد السود.

عنابة

يعتقد أنها تقع في نفس المكان الذي كانت فيه هيبو القديمة، ميناء بحري بناه القدامى. كانت سابقا عاصمة مقاطعة بونا. تقع على البحر الأبيض المتوسط، وهناك بالقرب منها مصادة المرجان، فهي بلدة لا قيمة لها، وسكانها قليلو الحال. ويجد في هذا الجزء من العالم طراز بناء أنيق، منذ عدة قرون وتم نسيانه تماما أو احتقر. فبنايات بونة تشبه مثيلاتها في أماكن أخرى، ولذلك فهي مقصودة، ومعرضة لغزوات العرب، فاسم هؤلاء السكان استعمله الرحالة بطريقة جد مبهمة.

تقع الجزائر على مسافة بعض مئات الفرسخ من الجزيرة العربية، وبما أن هذا الجزء من إفريقيا قد احتل في السابق من تلك البلاد، وتحت رايات الإسلام، فإن الاسم لا زال يطبق على جنس أسفح وبرابرة أحرار، الذين يطوفون في عصابات حول البلاد، ويتحدون في مهنتي الرعي والسلب. كانت بونا سابقا مدينة خلابة، وتتجلى عظمتها اليوم في آثار دير الرهبان. لها حصن وحامية 300 تركي، كما يفضل هؤلاء الأشرار تسمية أنفسهم، فالتركي له مزاج وتصرف معروفين في البلاد. فهؤلاء المغامرون ليسوا بأتراك ، بل هم فئة الكناسين لكل الأمم ذات تركيب مزجي، يقودهم آغا، وهو في نفس الوقت حاكم البلدة. استولى شارل الخامس على بونا في حملته على تونس، غير أن احتلاله لم يدم طويلا إذ استعادها سادتها.

قسنطينة

تقع على وادي صف غومار، وعلى مسافة 48 ميلا من ساحل البحر، فاسمها الحالي مأخوذ من الأميرة، ابنة الإمبراطور قسطنطين، وإليه يرجع الفضل لرونقتها. تقع على شبه جزيرة ، صعبة المنال باستثناء منطقة الجنوب الغربي . فهي تشكل ميل واحد في هذه الحالة، محصنة جيدا، وتضم العديد من قطع العمران القديم، خاصة أن هناك جزء من جسر فخم، ويقع بجانبه قنوات ماء تجري تحت الأرض، والتي تنتهي بشلال صغير، وتقع حالات إجرام تحت هذا المكان، حيث يقطع الضحايا هنا ويرمون إلى أسفل الصخور.

يقيم الباي هنا، وتحت أوامره ثلاث مائة فارس تركي وألف وخمسمائة جندي من الأهالي. وقيل أن سكان قسنطينة أثرياء ومتعجرفون.

كانت هذه المدينة في السابق مقر لجنس من الملوك الذين حكموا مقاطعة قسنطينة، والتي كانت حاضرة، غير أنه في سنة 1520، احتل بربروسة كامل البلاد، والمعروف بالطاغية، وهو الذي ألحقها بحكومة الجزائر. توجد بعض الآثار الرائعة بجوار قسنطينة، كما توجد آثار مستوطنة رومانية على مسافة قريبة من ساحل البحر، وتسمى قديما باسم القل، حيث تقع على جبل صخري وفيها حامية عسكرية، ويلاصقها مصنع فرنسي حيث يأتي السكان بجلودهم الغير المدبوغة ، والشمع، والصوف للبيع. وتوجد على مسافة ليست ببعيدة ، آثار المدينة القديمة لستورة. وقيل أن الجزء الجبلي من هذه البلاد يقطنه أناس بواسل ، والذين بإمكانهم تجنيد 40 ألف مقاتل.

جيجل

تقع على مسافة خمسة عشر ميلا من بونة. تضم حوالي ألف وخمسمائة دار، وسكانها فقراء جدا. تحرسها قلعة وحامية عسكرية. فأهالي هذا القسم من البلاد مستقلون وهم غلاظ أشداء . يتراجعون عند اشتداد المعركة، عند ما تتطلب الوضعية ذلك، إلى معاقل يصعب الوصول إليها، والتمرد على داي الجزائر. يقوم هؤلاء بسلب السفن المعطوبة عند الساحل، ويعاملون طواقمها معاملة وحشية . وفي هذا

المجال ، لا يختلف أهالي منطقة جيجل بكثير عن المعاملة السيئة عن بقية مواطني بلدهم، ولا عن الممارسة الغريبة للبربر، ونفس المناظر تتكرر مع الأمان من العقاب على ساحل «Cornwall»، البريطاني ومقاطعات بحرية أخرى من انجلترا.

بدأ الفرنسيون في سنة 1666 في تحصين جيجل، فقد طردوا من قبل الجزائريين وفقدوا مدافعهم ومعظم ممتلكاتهم المتنقلة.

بجاية

كانت فيما مضى عاصمة مملكة من نفس الاسم. تقع على مصب وادي ماجور أو زنقانور، بحوالي 20 فرسخا شرقي الجزائر، فهي جمة من الآثار. وهو وصف ينطبق في معظمه عن كل بلدة في ذلك الجزء من العالم. تضم ثلاث قلاع، إثنتان منها في الميناء، وواحدة في جبل صخري، وذلك على مسافة قصيرة وراءهما. وفي عام 1671، حطم الأسطول البريطاني في هذا الميناء تسع سفن حربية جزائرية.

سطيف

تقع سطيف في غور خصب على مسافة 60 ميلا جنوب بجاية، و15 ميلا عن البحر، ولا تبدي سوى آثار سوداء من آثارها الفاخرة ، ويقيم فيها ثلاثمائة أسرة تعيسة.

تبف

كانت في السابق مدينة مزدهرة ، غير أنها انحطت الآن بشكل كبير وزمورة في نفس الحالة محصنة بقلعة.

كوكو

كانت في وقت ما عاصمة لمملكة بنفس الاسم.تعود حكامها على إقامة تحالفات مع البلاط الإسباني، ولهذا السبب قام الجزائريون بتدمير كامل بلاد هذه المملكة في بداية القرن السابع عشر، وحطموا كل بلدة فيها. بقي الأهالي يدعمون استقلالهم، وذلك باللجوء إلى منا طق جبلية من وطنهم، ويقال أن بلادهم جد خصبة، لكن الجزائريون يمنعونهم من الاتصال والتعامل مع الدول الأجنبية.

بسكرة

لها قلعة وحامية عسكرية، ومن أهم وظائف هؤلاء الناس هنا هي مسك وترويض الأسود والسبع، وغنائم بحرية أخرى التي ينقلونها إلى العاصمة لبيعها.

نقاوس

إنها من أجمل البلدات عند البربر، تسقى بواد فياض، تزين ضفتيه بأنواع مختلفة من الأشجار الجميلة . تضم البلدة مسجدا رائعا ومدرسة لتعليم التلاميذ المسلمين.

وهران

تقع على بعد نحو 250 ميلا غرب الجزائر، وتقع في معظمها على سهل وجزء آخر على ارتفاع تل. تتربع على مساحة ميل ونصف الميل، محصنة بقدر الإمكان، غير أنه لسوء الحظ يراسها بعض أهل المقام المجاورين وعليه فإنه من الضروري أن يقوم بحمايتها بشجاعة عشرة أو

إثنى عشرة ألف شخص ضد خبرة عدو محتمل. وقد عانت السواحل الإسبانية والسفن التجارية كثيرا من قراصنة هذا الميناء. فقد حاول الملك الإسباني فردناند، القضاء عليها. ومن أجل هذه المهمة نقل إلى إفريقيا جيش تحت قيادة وزيره الأول الكاردينال «Ximens»، الذي كانت له اتصالات مع بعض أهالي وهران وعند ما خرج الأهالي لمهاجمة الجيش الإسباني، قام الخونة منهم بإغلاق أبوابهم ضدهم. قتل الكاردينال من الأهالي أربعة آلاف، وحرر 20 ألف أسير مسيحي. حاول الجزائريون قرابة قرنين من محاولات فاشلة لاسترداد المدينة. وفي النهاية ، استردوها في عام 1708، وفي سنة 1732 نزل الجيش الإسباني ليس بعيدا عن وهران. وقع القائد التركي وجنوده في فوضى، وهجروا قلاعهم دون مقاومة تذكر. وجد المنتصرون 140 قطعة من المدافع إلى جانب مدافع الهاون في الساحة. وحمولة 50 سفينة من المؤن على الأقل، مما ساعد الأسبان على تموين أنفسهم بهذه المؤن ، وبدون شك من غيرها كانوا سيتعرضون للفناء وسط هذا النصر، ذلك أنه حدثت عاصفة هوجاء استمرت عدة أيام حيث قطعت سبل الاتصال بين الجيش المتواجد في البر، والأسطول في البحر. قاوم الأهالي الأسبان بحماس شديد، غير أنهم تراجعوا مع خسارة كبيرة لكلا الجانبين. لقد تعرض الجزء الأكبر من هذه المدينة في الأخير لزلزال وأصبحت المدينة آثارا. ومن ذلك الحين تركها الأسبان، واستردها الأتراك. ومن هذه الآثار جلب داي الجزائر ، مؤخرا كميات كبيرة من الحجر الأبيض قصد بناء مسجده الجديد. (جامع كتشاوة في عهد حسن باشا : 1792–1798. المترجم).

تلمسان

كانت في السابق عاصمة بلدة مملكة تحمل نفس الإسم.، تقع على بعد 90 ميلا جنوب غرب وهران، محاطة بسور منيع، ومحصنة جدا، لها خمسة أبوا مع جسر متحرك أمامهم، وقلعة تضم ثكنات للإنكشاريين المقيمين في الحامية. كانت تلمسان مدينة رائعة عند ما كانت عاصمة. تضم 150 مسجدا، و160 حماما عموميا. ومنذ أن توقفت كمقر لحكومة مستقلة أصبحت خرابا وآثارا. تقلص عدد المساجد إلى ثمانية والحمامات إلى أربعة، ومعظم السكان من أصل أهلي.

مستغانم

تقع على مسافة 60 ميلا شرقي وهران، وقد بنيت هذه المدينة في شكل مسرح مفتوح نحو البحر، ويحيط بها من كل جانب صخور معلقة حولها. توجد فيها آثار قلعة أهلية في فضاء بين الصخور وسور حجري قوي يطل على الميناء، مع قلعة بنيت حديثا، كما يوجد فيها حامية عسكرية تركية. وقد أقيمت هذه القلعة على قمة إحدى هذه الصخور، وتشرف على كل من المدينة والبلاد. فالمرفأ واسع والبلدة مزودة بما فيه الكفاية بالماء. يقطن الجبال المجاورة أناس يسمونهم المغاربة، الذين يعيشون في خيام ويملكون عددا كبيرا من القطعان وأخيرا يوجد فيها مسجد جميل.

تنس

تقع على بعد حوالي 100 ميل نحو شرقي وهران، و20 ميلا شرقي مستغانم ، وعلى مسافة فرسخ من البحر، ولها ميناء مقبول. يوجد فيها قلعة، كانت في السابق قصرا ملكيا، حيث يقيم الحاكم. فقلاعها جد محصنة وعدد جنود حاميتها كثير، وأراضيها المجاورة خصبة.

شرشال

تقع شرشال بين تنس والجزائر، بحوالي 24 ميلا غرب الأخيرة. يقوم بالدفاع عنها حامية تركية، لها ميناء صغير لا يستقبل سوى سفن صغيرة. كانت شرشال، سابقا، كبيرة وذات كثافة سكانية، أما حاضرا فهي فقيرة ومحل خراب.

مدينة الجزائر

أصولها

لم يتم التأكد تماما بأسماء المؤسسين الحقيقيين لهذه المدينة إطلاقا. ذلك أن الروايات المنقولة إلينا من قبل المؤرخين يكتنفها كثير من الغموض وعدم الدقة، وينسب تأسيسها إلى العديد من الأمراء وهم في الأصل من الرومان.

وتبدو شهادة «Strabo»، على أي حال أكثر اعتمادا إذ يذكر لنا في روايته بعنوان: موريتانيا القيصرية، أنه وجدت سابقا مدينة قديمة على البحر المتوسط عرفت باسم «Jol»، والتي أسسها يوبا والد

«Ptolemy»، وابن يوبا الأول ملك ذلك الإسم في موريتانيا. وتقع استنادا إليه بحوالي 37 درجة من شمال خط العرض، ولها جزيرة صغيرة في الميناء، وبما أنه لا يوجد مكان آخر في المتوسط شبيه له، فإنه يفترض أن المدينة القديمة «Jol»، هي نفسها التي تشبه مدينة الجزائر.

ألقي القبض على يوبا في الحروب الدائرة بين «Pompey»، والجناح القيصري، ونقل إلى روما، حيث صدرت تعليمات بتعليمه وتكوينه. وسرعان ما أظهر تفوقا واستعدادا تعليميا ملحوظا في دراساته، وعليه لم يقتصر «Augustus»، بإعطائه حريته بل زوجه بالحسناء «سيلان Silene»، ابنة «مارك أنطوني Mark Anthony»، وكليوباترا، وأعاد له مملكة والده الواسعة ، موريتانيا، والتي كانت آنذاك تضم ممالك المغرب، وفاس، وتلمسان، ووهران، وتونس، والجزائر وبجاية.

واعترافا بالجميل وكإشارة امتنان، فقد أعطى مدينة «Jol»، اسم جول قيصر، ومنح اسم جديد لهذه المدينة بالخصوص، من أجل تخليد ذكرى صديقه النبيل، وعليه يمكننا أن نظن أنها تعد أقدم مدينة مهمة في موريتانيا.

ومع نهاية القرن السابع أغار العرب المسلمون على كامل موريتانيا، ويبدو أن لهم حقد خاص للأعمال التي أنجزت، وكذا بالنسبة لأسماء الرومان، التي قاموا بإلغائها وأطلقوا عليها اسم الجزائر أو بالأحرى الجزَيرْ بكسر الجيم وسكون الراء أو الجزيرة وهي كلمة عربية التي تعني وتخص جزيرة، لأن هناك جزيرة، أمامها والتي ألحقت بها الآن

عن طريق نجفة الميناء، وتشكل جزءا من جانبي الميناء. ويطلق عليها الأتراك اسم الجزير الغازي. أي الجزائر المحاربة، أما في رسائلهم وسجلاتهم العمومية فيسمونها الجزاير، أي جزيرة الغرب، لتمييزها عن مدينة تحمل نفس الإسم قرب الدردنيل. ويقول الدكتور شو، علينا أن ننطقها الجزيرة.

الموقع

فالمدينة عاصمة لمملكة الجزائر، ويحتمل أنها إيكوسيوم القديمة. تقع على درجتي 36 و 29 دقيقة من خط العرض شمالا، و77 درجة، و37 دقيقة من خط الطول شرق فيلادلفيا، وتقع على نفس خط العرض مع الحدود الجنوبية لفرجينيا في الولايات المتحدة. بنيت على منحدر لجبل محاذاة البحر ، وقبالة الشمال، على خليج البحر المتوسط. تعلو المنازل تدريجيا من شاطئ البحر في شكل مدرج، لتنتهي تقريبا برأس تجاه قمة جبل. وللمدينة منظر خلاب بمساجدها، وقلاعها والبنايات العمومية الأخرى عند الاقتراب من البحر، واكتشافها تبدو وكأنها الشرا ع الأعلى للسفينة.

المنازل

فجوانب المنازل بيضاء وعند الاقتراب منها تبدو وكأنها المكان الذي يبيض فيه الكتان. فالسطوح مستوية، مما يمكن الناس زيارة بعضهم البعض، على مسافة قصيرة وبدون النزول إلى الشوارع.أما المنازل الغير المتساوية في الارتفاع فإن الاتصال بين الجيران يقع عن طريق سلم. وبما أن المنازل مفتوحة من فوق، فإنه من السهولة بمكان أن

يدخل أي أحد إليهم، أما الرقة والسلب، نادرا ما يحدثان، فإذا قبض على مجرم في بيت فإنه يتعرض إلى عقوبة الإعدام.

ترمم سطوح المنازل بنوع من القرميد أو الآجر، ويقام سور القرميد من حيث العلو حتى الصدر لمنع سقوط الأشخاص. وفضلا عن ذلك، تقام منازل صيفية، وبما أنه لا يوجد فضاء، ولا حدائق أو منتزهات عمومية في كامل المدينة، فإن السكان يقصدون هذه الأماكن بعد الانتهاء من أشغالهم، وذلك قصد الترويح عن النفس، ومتعة مشاهدة قراصنتهم يعودون بغنائم. فلا تحجب أي دار أخرى عن رؤية البحر نظرا لهندستها. فهي واسعة ومبنية من الحجارة والقرميد، مع ساحة صغيرة في الوسط، ويحيط بهذه الساحة صفين من الشرف واحدة فوق الأخرى، ويدعمهما عمودين أو ساريتين، وغالبا ما تكون المنازل مكونة من ثلاث طوابق عليا، تضم في ثناياها خمسة أو ستة عائلات، فميزتهم الخاصة اللون الأبيض، ويتم تبييض منازلهم ومساجدهم وبناياتهم العمومية سنويا من الداخل والخارج.

يبلغ عدد منازلهم حوالي000. 15 وترمم ديارهم بقرميد مربع أو الآجر له ألوان عدة تجمع مع بعضها بترتيب فائق. وليس للغرف داخليا نور، ولكنها تتلقى ذلك من الأبواب، التي تعد واسعة، حيث يصل النور إلى السقف. فالمنازل الواقعة على الشوارع لها بعض النوافذ، حيث تحاط بقضبان عارضة من حديد ذات أربعة أوخمسة إنش منفصلة، لكنها لا تحتوي على ألواح زجاجية، وعليه فهي تشبه السجون بدلا من المنازل. ليس لها مدافئ، وإنما يقومون بإشعال النار في قدر من الطين، وغالبا ما توضع هذه القدر قرب الباب لتسهل عملية خروج الدخان، والتي من

شأنها، على أي حال، أن تستوفي جدران الغرفة. فتأثيث آل البيت لا يتعدى بعض القدر الطينية، وأطباق، ومعالق، ومغارف وصناديق خشبية، وحصيرة ولحافين يوضعان على الأرض والتي تستخدم لسرير.

الماء

ليس لهم ينابيع ولا آبار في كامل المدينة، وإلى غاية العصر الأخير كان مصدرهم الوحيد ماء المطر، وبعد وصول عرب الأندلس المبعدين من أسبانيا، أقاموا لهم قناتين للمياه، والتي بواسطتهما يتزودون الآن من ربوة ذات 1700 قدم من المدينة، قرب المكان الذي ضرب فيه شارل الخامس خيمته سنة 1541. ومنذ ذلك التاريخ تشكلت عدة مجاري في البلاد. أصبحت المدينة تتوفر على كمية كافية من ماء الشرب عن طريق قنوات أو أنابيب تحت سطح الأرض، التي تزودها بما يفوق عن 150 منبع ماء للشرب، ويثبت في كل واحد من هذه المنابع طاس يستعمله المارة في الشراب.

فالماء الذي يسقط على الأرض يجري من خلال ثقب صغيرة في الشوارع قرب كل ينبوع، ويفرغ نفسه إلى مجر القاذورات المشتركة، حيث تبعد قاذورات المدينة بعيدا. فجميع هذه الأنابيب تفرغ نفسها في جابية عمومية عند نهاية المرفأ. فكل واحد يأخذ بالدور نصيبه من الماء من هذه الأماكن، ما عدا الأتراك، الذين يفضلون في المقام الأول، واليهود في الأخير، الذين يفضل العبيد عليهم.

البنايات العمومية

هناك عشرة مساجد و50 مسجدا صغيرا مصلى والتي لها أثرها ، بدأ بناء المسجد الجديد للداي حوالي سنة 1790، ووقع بناؤه على أرض خاصة بحمام أو سخن سيديمو، ويقع على 60 و40 قدما، وثلاث طوابق عالية، تدعمها أعمدة من الرخام الأبيض مستوردة من جنوة، والجدران من حجر أبيض من آثار وهران، استعمل في نقل هذه الأحجار البيضاء، بصفة عامة، والآتية من وهران، الأسرى الأمريكان من الميناء إلى الجامع، أيام الجمعة . ويوجد بجانب الجامع برج قطاع الرؤوس، أي المكان المخصص لقطع رؤوس الأتراك والكراغلة.

فقصر زوجة الداي المفضلة هو أجمل ما في المدينة. فهو مدعم بأعمدة بجودة صنع غريبة، ومزين بنموذج رائع من الهندسة المعمارية، وعلقت عناقيد من الشموع في سقف كل غرفة، حيث جعلت منها مناظر خلابة. فقصر الداي هو أكبر صرح يقع في وسط المدينة تقريبا. فهذه العمارة واسعة جدا يحيط بها شرفتان جميلتان مدعمتان بأعمدة رخام.

هناك تسع بنايات فخمة يقيم فيها الانكشاريون كثكنات، بإمكانها أن تستقبل 600 شخص عن كل حدة، ستة منها خاصة بغير المتزوجين من جنود الأتراك، يقيم في أعلاها الجنود الأتراك المقيمين دائما، والذين يصرخون بصوت عال عند رؤيتهم سفينة في البحر.

هنالك مدارس عليا أو مدارس عمومية، والعدد الأكبر منها خاص بالأطفال، وهناك أربع فنادق عمومية، مثلما هي في تركيا، وما يفوق ستون حماما شعبيا، بسعر جد متدني، وللنساء حماماتهن الخاصة بهن، حيث لا يتجرأ الرجال دخولها. غير أنه لا توجد لديهم وكالة المسافرين للمبيت سوى أكواخ قليلة للعربدة، ودكاكين تقدم الطعام، ويقوم بتسييرها الأسرى المسيحيون لإسعاف اليونانيين، والأشد فقرا من الرحالة. هنالك العديد من البنايات التي لا بأس بها دون أسوار البلدة، والتي تضيف جمال إلى ضواحي البلدة، ويوجد من بينها عدد كبير من الأضرحة التركية والمعالم، مثل حجيرات صغيرة صومعة أو مصليات، قدمت هدايا للأولياء الصالحين، حيث تذهب النساء لزيارتها كل جمعة، وأحد هذه المعالم المشهورة يضم في داخله ستة أضرحة فخمة ذات شكل دائري، والتي أعدت تذكيرا لستة دايات، الذين انتخبوا في أيام قلائل وقتلوا، وذلك احتراما لدفن موتاهم. لقد اكتشف المسلمون درجة الرقة، التي ليست لدى المسيحيين، فقبورهم لا تخرب ثانية إطلاقا، ويعتبرها علماء الإسلام كعمل وحشي لإهانة مقدس من المقدسات الإنسانية وأيضا لإزعاج بقايا الميت، بفتح قبورهم في أي وقت ما، بناء على أي ذريعة، لهذا السبب تقع قبورهم في الجزء الأكبر من المدينة وأحيانا تمتد عشرة أميال اتساعا

السجون

هناك إثنان من السجون فقط، بنيا بالحجر، حيث يقيم العبيد يطلق على أحدهما سجن البايلك، والآخر سجن قالارو الجدافين والأول هو الأكبر بكثير من الثاني، ويستقبل عددا يفوق ثلاثة أضعاف السجن الأخير. يقعان في الشارع الرئيسي ويبعد أحدهما عن الآخر مسافة 50 ياردة، بين باب عزون وقصر الداي.

تستخدم الغرف الواقعة في الأسفل لهذين السجنين كحانات، والتي يقوم بتسييرها عبيد، يدفعون للداي سناهية سنوية مقابل امتياز، وذلك حسب مبيعاتهم من الخمور. يقوم القائمون على هذه الحانات بتحضير خمورها بأنفسهم في هذين السجنين، من العنب الذي يشترونه من الأهالي .وغالبا ما يلجأ إلى هذين المكانين الأتراك عند ما يكون العبيد في الأشغال، حيث يجبرهم حارس السجن على المغادرة حال عودة العبيد من العمل، حتى لا يقع عراك بينهم.

تتسع كل غرفة لإيواء إثنى عشر عبيدا. تتشكل النوافذ من قضبان حديدية مقوسة ذات ثلاثة أو أربعة إنش لكل واحدة، وبدون الواح زجاجية. يوجد في أدنى الجدران سلة سلسلة ثقيلة من حلقات طويلة مثبتة في رزيزات، مع دقة في النهاية حيث يحبس جميع العبيد المشوشين إما عن طريق الرجل أو العنق حتى الصباح. وهو جزاء لجرائمهم. ويخضع هذين السجنين لحراسة عريفين، يتم احتيارهما من بين العبيد الأكثر قوة وبدانة .

تقيم حيوانات مفترسة في سجن الجذافين، في خمس غرف، مثل الأسود والنمور ...الخ وتواجدها هنا يعتبر هدايا من الداي لدول العبيد، وفي حالات كثيرة تفلت هذه الحيوانات من أقفاصها، ولا يمكن إعادتها إليها إلا بعد أن يسقط أحد العبيد ضحية لهيجانها الشديد. إلى جانب هاتين الحانتين أو الخمارتين، هناك خمارة أخرى تدعى(راياجي) قرب باب عزون، وأخرى تدعى (صندوق اللوك) القصد منها أنها مستشفى المجانين.

فالأميرال الشهير بينتشينين، كان المالك الأكبر لسجن في حدود 1640، والذي وصف على الشكل التالي: كان يقيم في هذا السجن كل الأسرى التابعين لغليوطاته، فكان بناية شاسعة حيث يوجد فيها مدخل ضيق، يؤدي إلى قبو كبير، ومنه يدخل جزء بسيط من الضوء من شباك علوي، والذي لم يكن كافيا مما يستلزم إبقاء الفوانيس مضيئة كامل اليوم . ويوجد في الأقسام العلوية من البناية فضاء واسع يضم مجموعة شرفات لطابقين علويين، ويوجد بينهما عدة غرف، ومعبد واسع للأسرى المسيحيين يكفي استقبال 300 شخص.

فالسطح كان شقة ودُكّ على النمط الإسباني .يضم هذا السجن 550 عبيدا تابعين لبنتشنين، يسمح لهؤلاء العبيد بثلاث ساعات يوميا بتزويد أنفسهم بقوتهم، حيث يمارسون السرقة وكل أنواع السفالة. فالمواد التي يسرقونها في اليوم السابق يعرضونها للبيع في اليوم الموالي صباحا في مزاد علني عمومي داخل السجن.

وبهذه الطريقة يزود هؤلاء التعساء أنفسهم بقليل من المال للتغلب على مصاعب حياتهم. غير أن العدد الأكبر منهم يموت جوعا كل سنة، وذلك حسب ما أخبرنا به رحالة انجليزي أن 20 من بني جلدته ماتوا هنا في شتاء واحد بسبب الحاجة فقط.

الشوارع

لا أحد من الشوارع في مدينة الجزائر يحمل إسما. يصعدون مع رابية، وهي في غاية من الضيق ، ذلك أنه نادرا ما يستطيع شخصين السير جنبا إلى جنب. فالجزء المتوسط من الشارع أدنى بكثير من الجانبين لغرض نقل الماء بعيدا بطريقة ملائمة. فالشارع الرئيسي لا يتعدي 1200 خطوة في الطول، فهو ينحدر شمالا وجنوبا من باب عزون إلى باب الوادي، ولا يتعدى عرضه 12 قدما. فهذا الشارع مكتظ ببيوت أنيقة، ومغازاة للسلع الرئيسية، حيث توجد أسواق للذرة، والخبز، واللحوم والأسماك...الخ

عند ما تمر حيوانات ، مثل الجمال، والبغال والخيول أو الأحمرة محملة بالسلع، على المرء أن يقف قريبا من الحائط ليتركها تمر، والأسوأ هو أن السلوك المهين للجنود الأتراك لكل مسيحي، مهما كانت رتبته، حيث يقفون ملتصقين بالحائط حتى يمر هؤلاء الجنود، فيما عدا ذلك فهم لا يملكون شجاعة لإظهار تفوقهم ميدانيا. ويعتقد أن سبب ضيق الشوارع أعد خصيصا من أجل أن تقدم البنايات غطاء ضد حرارة الشمس، لكنه يتضح أن انحصارها القصد منه منع النتائج السيئة للزلازل، وبما أن واجهات كل المنازل تقريبا مدعمة بأخشاب مائلة على جانب السطح

المسنم لوضع السقف عليها والتي تمتد من بناية لأخرى عبر الشوارع فإن ذلك يعد أمرا مسلما به حسب رأيهم.

الأبواب

للمدينة خمسة أبواب، التي تفتح من طلوع الشمس إلى غروبها، بعدها لا يمكن لأحد أن يدخل المدينة.

الباب الأول: باب البحر، يفتح نحو المرفأ من الجهة الشرقية وعلى مقربة من هذا الباب توجد ساحة اللقاء لسفن الصيد. يجلس الصيادون في صفوف داخل هذا الباب ويستعرضون سمكهم للبيع في سلات كبيرة.

الباب الثاني: باب الجديد، الذي يؤدي إلى الجنوب الغربي، وهو ممر للقصر الملكي.

الباب الثالث: باب الوادي، أو بالأحرى كما ينطق بابلي وايت، يقع شمالا.

الباب الرابع: باب الجزيرة، باب الجزيرة، الذي يؤدي إلى الميناء. ففي هذا الباب يفحص الأسرى الأمريكيون عند عودتهم من البحرية.

الباب الخامس: باب عزون ، أو بالأحرى باب زون، يقع جنوبا، لكن بالأحرى ليس هذا الباب أو باب الوادي لهما اعتبار كبير. وعلى مقربة من هذا الباب، توجد ساحة تنفيذ حكم الإعدام على العبيد. أقيمت منصة في الأعلى بحوالي 50 قدما علوا، حيث يعجل بإلقاء المجرمين على جدار مائل، وتثبت الخطافات على مسافة قصيرة، وبها يعلق المجرم أو يقطع إربا إربا، وإن فر فإنه بالتأكيد يضرب على صخور حادة والواقعة في الأسفل.

سور المدينة

المدينة محاطة بسور بحوالي فرسخ، محصنة بأبراج مربعة وقلاع محاطة بها. فالجزء السفلي من السور نحت من الحجر، بسمك 12 قدما و30 قدما من العلو من الجانب البري، و40 قدما نحو البحر، ويضم العديد من المنازل.

الميناء

يعد الميناء عملا ضخما وصعبا في آن واحد. يصل عمقه إلى خمسة عشر قدما، وخطير جدا لرسو السفن. فهو يتشكل من مرفأ في شكل نصف دائرة، وحوالي 500 خطوة طولا، ويمتد شمال–شرق وجنوب غرب البلدة نحو جزيرة صغيرة أو صخرة تدعى« Lantern»، ويمتد مرفأ آخر من نفس الطول شمالا وجنوبا، لغرض تكوين غطاء. ويوجد ضمن زاوية هذين المرفأين صرح مربع، وفي الوسط ساحة بحواجز حديدية أو خشبية، وأربعة ينابيع تستعمل قصد التطهير عند ما يحين وقت الصلاة. ويحيط بالجوانب الأربع مقعد ومعه حصيرة حيث يعقد الأميرال وضباط البحرية اجتماعاتهم اليومية. ويدعى الحصن باسم ساردينيا، ويقع حصن *لانترن مقابل المرفأ، فالأول مجهز بمدفعين والأخير بثلاث مقذوفات مدفعية. فالمقذوفات البسيطة من وزن مدفع يطلق القنبلة من عيار 32 رطلا، غير أنها لم تحضر إطلاقا للدفاع في الأوقات الحرجة، أما الغرف السفلى فهي مجهزة بكميات كبيرة بالخشب والعتاد البحري، وعليه فإنه إذا دخل عدو ما فجأة الميناء، فإنه بإمكانه أن يحطم المدينة قبل أن يستعدوا بقطعهم الثقيلة. يوجد على طول امتداد المرفأ إسكلة لشحن وتفريغ السفن، وكذا تربيض المراكب وسفن أخرى. ويوجد في أسفل المرفأ على جانب واحد رصيف حجري، وفي

الجانب الآخر ضفة رملية وصخرية. تربض جميع السفن الراسية على جانب المرفأ بحوالي خمسة عشر ياردة من الشاطئ، وتؤمن بعدد من الكوابل التي تمتد في اتجاهات متباينة، وتشد بالحبال وبسرعة مع المدفع إلى نصب في المرفأ. وتحدث معظم العواصف البحرية برياح شمالية شرقية. يبقى عدد من العبيد، خاصة البحارة منهم، في وقت العواصف الشديدة متمركزين في المرفأ مع حراس الأتراك لتقديم العون إلى السفن في حالة الضرورة.

ففصل الشتاء هو أخطر فصل للسفن، وعادة ما تتعرض السفن لأخطار عند ما تهب رياح شمالية أو شمالية شرقية، حيث تصاب بعطب شديد أو تدفع إلى الشاطئ. ويوجد على الجانب الشمالي للصخرة قلعة منار، التي تضيء بشكل دائم كل ليلة لتأمين دخول السفن إلى الميناء. فلها ثلاث بطاريات لمدفع نحاس. ويوجد على مقربة من جهة الجنوب مدفع آخر يدافع عن مدخل الميناء، ومجهز ب80 قطعة مدفعية، ذات 12، 18، و 36 رطلا، تراقب من الشمال إلى الجنوب، ومعظم هذه المدافع تم الاستيلاء عليها من التونسيين في عام 1617. ويوجد في شمال وجنوب المرفأ مفتل حبال وعدة مغازاة، حيث يودع العتاد البحري، وحمولات السفن المأسورة.

القلاع والحصون

يوجد بجانب المدينة من الناحية البرية أربع قلاع، معظمها جد هام، ومن بينها قلعة الإمبراطور، التي تقع على مسافة نصف فرسخ نحو جنوب جنوب غرب، وتهيمن على كامل المدينة، والميناء والمناطق المجاورة. وقد سميت بهذا الاسم لأن الإمبراطور شارل الخامس هو الذي أقامها في عام 1541، عند ما كان يحاصر المدينة، غير أن هذا ينسب إلى سلوك خال من

التدبر لمعظم المحاصرين، أو يعود إلى عنف الواصف التي حطمت العديد من السفن في مينائهم. فقد عانى الأسبان الكثير في حملتهم وحاولوا تحطيم الجزائر، لكن تخاذل قواتهم أصبح لمدة طويلة مضرب الأمثال، فالجبن الإسباني ليس بمعيار يقاس عليه لقوة دفاع الجزائريين.

الفصل 3

السكان، عادات وتقاليد مدينة الجزائر

الداي الحالي للجزائر، هو جندي تركي في الأصل، جيء به إلى الجزائر من مكان قرب سميرنة، في حدود سنة 1786، وقد وظف أولا في قصر الداي السابق، وبدهائه وحيله سرعان ما أصبح من المقربين في البلاط، تحصل على وظيفة وكيل الحرج.بعده وبفترة قصيرة تعرض الوزير الأول ، كاسان آغا، إلى مكائد ودسائس باشا قسنطينة مع الداي السابق، فسقط الوزير الأول ضحية ، وتمت ترقية حسن باشا، الداي الحالي، إلى المنصب الشاغر، كاسان آغا. وخلفه سيدللي، المغامر الإغريقي، في منصب وكيل الحرج، وبعد وفاة الداي السابق، وفاة طبيعية، شدد سيدللي، الذي كان صديقا لحسن أن يتولى السلطة الملكية. أظهر حسن معارضة شديدة، غير أن سيدللي، جاء مسلحا لذات الغرض، وأجبره أن يتولى المنصب وساعده في ذلك، وفجأة ظهر الآغا، واحتج على أن له الحق في السلطة، وحاول اغتياله في مقر السلطة، لكنه ألقي عليه القبض وجر إلى الحصن وتلقى جزاءه، وعين بدله أحد أصدقاء حسن آغا.

تزوج حسن من ابنة الآغا السابق الذي نفذ فيه حكم الإعدام من خلال دسائس باشا قسنطينة، وبعد أن تولى حسن السلطة أقنعته

زوجته هذه بإعدام باشا قسنطينة، وبما أنها كانت الزوجة المفضلة للداي حسن فقد لبى رغبتها وسقط الباشا ضحية لغيظها.

سرعان ما جلب سيدللي استياء حسن. أصدر الداي أوامر تقضي بعدم إلقاء القبض على السفن الهولندية في ظرف 40 يوما، لكن سيدللي، أعطى تعليمات للقراصنة بإلقاء القبض فورا على هذه السفن، إما عن قصد أو خطأ ناشئ عن إهمال، ونتيجة لهذا التصرف وصلت مجموعة سفن هولندية الجزائر، والتي أغضبت الداي كثيرا. ورد عليه بأسلوب انتقامي وتهكمي، وتساءل من هو داي الجزائر، هل هو أم سيدللي؟ ولحسن حظ سيدللي أنه فر من الموت المحقق، وأبعد عن الوطن فورا.

وعن القناصل المعتمدين بالجزائر، يقول الكاتب: عند ما يدخل القناصل والوكلاء الأجانب، وآخرون الذين لهم صفة رسمية إلى قصر الداي يطلب منهم نزع أحذيتهم، فهذه المراسم متوقعة دائما. يقترب زواره منه باحترام كبير ويقبلون يده. يجلس الداي وضيوفه على بلاطات من الرخام أو الأردواز، ويسقط النور من نافذة جدار ، وهي على ارتفاع ثلاثة أقدام، حيث توضع الوسادات المطرزة بأناقة ومهدبة بالذهب، يضع الزوار الساق على الساق،أما الداي فبيده مروحة كبيرة من ريش النعام.

ويستقبل باقي الأتراك الآخرون زوارهم بنفس الطريقة

وبينما هم جالسون على هذه الحالة يقدم لهم العبيد القهوة، التي تعتبر أكبر تعامل حضاري يمكن للزائر أن يحصل عليه، وتعد علامة من علامات التقدير تقدم للزوار.

لا يستطيع أي شخص أن يدخل القصر مع خنجر أو أي نوع آخر من الأسلحة ، وعند ما يقدم شخص ما على مثل هذه المحاولة، فإن الداي يتصور أنه يقصد من وراء ذلك اغتياله، ويقوم بصيحة عالية شنيعة، عندها يلقى القبض فورا على الجانح وتسلط عليه مئات من ضربات العصي مقابل جنحته.

وعند ما يوافق الباب العالي على سلوك الداي يرسل له عباءة فخمة تسمى بالقفطان علامة على موافقته لسيرته في الإدارة ،فمثل هذه الهدية مقبولة بشكل بهيج، لأنها تعد حماية كبرى لشخصه، وتسترضي رغبات الناس لصالحه.

يبلغ الداي الحالي حوالي 50 سنة. فوجهه مرقم بلحية سوداء طويلة، إنه شخص ذو مظهر مهيب وفخم. يبلغ من الطول ستة أقدام تقريبا، بل بالأحرى هزيل.يتكلم بغطرسة واستبدادي كما هو الحال مع جميع الأتراك. يمشي حافي القدمين، بل يضع الشبشب في رجليه، ولا يمكن تمييزه عن بقية الأتراك ما عدا الاحترام الذي يقدم له.

وعند ما يسير في شوارع الجزائر يسبقه حراسه مع هراوات في أيديهم لفسح المجال أمامه، وعند اقترابه يفر كل شخص بعجلة إلى الطرق المحاذية، وإن اقترب أي منهم محل وصول الهراوات فإنه بالتأكيد يضرب ضربا مبرحا ويداس بالأقدام، وعند اجتيازه على ظهر فرس يعدو بخطوات سريعة، ويركض هؤلاء الحراس قبله ويبعدون كل حاجز عند اقترابه. قام الداي ذات مرة بزيارة الأسرى الأمريكيين في البحرية، واعتبر ذلك حدثا هاما لأنه لم يسبق لداي ولا لحسن آغا أن قاما بمثل هذه

المدينة وبوق موسيقي فرنسي من البحرية.كان في انتظاره جميع الرياس وضباط السفن، الذين رأوا هذه الزيارة تشريف وتكريما رفيع المقام لهم. سلم لقيم السجن مبلغا معتبرا من المال يوزع على العبيد.

بعد تفقده للبحرية وجهت له دعوة إلى سقيفة وكيل الحرج، حيث جلس مع مستقبليه وعاد إلى قصره بعد أن شرب فنجان قهوة.

يحتفظ الداي بحوالي 300 سرية*في حرم النساء، واللواتي يحرسهن الخصيان من الزنوج، أما النساء فلا يراهن العبيد إطلاقا. ليس للداي سوى طفلة واحدة، تبلغ من العمر سبع سنوات، والتي تتمتع بأكبرتفضيل مع الداي. تمت خطوبة الزواج مع وكيل الحرج الأخير للبحرية، الذي كانت له علاقة مع الداي، غير أنه قتل أو غرق أثناء سفره إلى المشرق، إذ ارسله الداي مع مبلغ مالي جد معتبر قصد بناء مسجد فخم في مكان ميلاده.

ويستقى من معلومات موثوقة أنه يبدو أن العديد من أهالي العاصمة والمملكة، بصفة عامة، كرماء وغيورين وذوي استقامة حسنة. فالأهلي عند ما يجد أية أداة فقدت أو ضاعت لا يستولي عليها سرية ويستعملها لغرضه الخاص، بل يأخذها وينادي بأعلى صوته في الشوارع أنه بإمكان المالك لهذه الأداة الضائعة أن يستردها، لكن في حالة العنف الممارس ضده فإن خنوعه للأتراك ينقلب ضدهم بوحشية لا نظير لها. فالأهالي يشبهون في تصرفهم هذا أية أمة من الأمم في العالم. لقد بلغت الحكومة الآن أقصى مرحلة الاستبداد. وبما أن الأتراك يحافظون

* امرأة تعيش عيشة زوجية بدون زواج شرعي.

على السطوة بطرق جد قاسية وصعبة في نفس الوقت. فإن حكومتهم تبدي مظهرا أبديا للغيرة والاستبداد والخوف من شر مرتقب. فلا أحد يمني نفسه بلحظة أمن سواء في شخصه أو ممتلكاته، لأن خوف الدنيا والآخرة في أيدي الداي، الذي يمارسه بحصانة إفلات من عقوبة.

وعند ما يشتهي، وبخاصة شيئا هو ملك لغيره من رعاياه الأغنياء، فإنه يأمرهم بإرسالهم مقيدين، ويلزمهم أن يتنازلوا عما يملكون من إرث.

وعند الإعلان عن أمر التنفيذ لكل شخص، فإن هذا الشخص ينتظر مصيره بصبر، والذي قد يطول انتظاره وتوقعه، وحال تنفيذ الأمر مباشرة يندفع الخدمة نحو الاستحواذ على المال، والمجوهرات ومواد أخرى قيمة تعود لسيدهم. وحسب التقدير العام، فإن عدد السكان في هذه المدينة يبلغ 100.000 مسلم، و 1500 يهودي، و 2.000 أسير مسيحي، لكن ليس هناك إحصاء دقيق لوقت طويل، ذلك أن آلاف ماتوا بسبب الطاعون، وأن عدد العبيد لازال غير قار، إضافة إلى انخفاض عملية القرصنة، وانخفاضهم بسبب فديتهم، أو وفاتهم نتيجة قسوة كدحهم.

يزور مدينة الجزائر سنويا تقريبا الطاعون، الذي غالبا ما يبدأ في شهر ماي ويستمر لمدة ثلاثة أشهر. وعند ما يبدأ زيارته فلا أحد يستطيع أن يتحرك بحرية ولا يعرف مصيره إن كان حيا أو ميتا، وأن حياته في خطر، لكنه عند ما تبدأ العدوى تتفشى أكثر، يقوم أحد المرابطين بزيارة الداي ويخبره بوجود هذا الداء، بعدها، يكون المواطنون أحرارا لاتخاذ أية حيطة لوقاية أنفسهم، فالبعض منهم يذهب إلى البادية، أما الداي ومعظم السكان يبقون في المدينة. فالمرحلة الأولى من هذه الفوضى، هي

الحمى المتقدة التي تسبب البطاح هذيان الحمى ، غير أنه إذا استطاع المصاب أن يبقى على قيد الحياة من هذه الحمى فإن له كل الحظوظ بالشفاء. وعلى أي حال، فإن المرض يحدث آثارا مختلفة بناء على بنيات الجسم المختلفة أيضا، فالبعض ينزف دما عند الفم، والأنف، والأذنين، والبعض الآخر يصاب بطفح جلد ببقع على كامل أجسامهم، والعديد يبقى في حالة السبات، أو كسل، حتى يموتون، والتي غالبا ما تكون هذه الحالة عند نهاية اليوم الثالث بعد الفوضى التي تسيطر عليهم. يصاب حوالي نصف هؤلاء الذين يتعرضون لشقاء الفوضى هذه، لكنه من غير شك، هم معرضون لهذا المرض، ولو أنهم عرضة لعدوى بعد أن أصيبوا بها مرة من ذي قبل.

تفشى طاعون بمدينة الجزائر في حدود 1787، وهو أكثر ضررا، والذي أدى بحياة عدد كبير من السكان، وقد كان هذا المرض خبيث جدا بحيث امتلأت الشوارع بجثث الموتى، حتى أنه لم يستطع الأحياء دفن الأموات من كثرة عدد الموتى، وقد أصيب هؤلاء الأحياء بالعدوى، نظرا لمعاناتهم، مما أثر عليهم فماتوا هم أيضا، لأنهم لم يجدوا مساعدة، وكأنهم حيوانات لا قيمة لها، فليس لهم كتب طبية ، ولا علماء، ويفترض طبعا أنه ليس لهم أطباء. وعند ما يصاب شخص باعتلال جسدي فإن الطريقة الوحيدة للعلاج هي حك المريض، وفي نفس الوقت يضع جسمه في اتجاهات متعددة، وإن لم تنجح هذه المعالجة النزوية، فلا محاولة بعدئذ.

فسكان مدينة الجزائر لا يفطرون، لكنهم يتناولون القهوة بين السادسة والسابعة صباحا، يقدمها لهم أشخاص يدعون بالقهواجية حيث

يقتضي عملهم أن يزودوا المواطنين كل صباح بهذه المادة. فهي تشرب بدون سكر أو قشدة، في أكواب، وصحن الفنجان، طبعا، طريقة أوربية، غير أن معظم الأغنياء من المواطنين يستعملون صحون ذهبية في أسفل تلك صحون الفنجان المعتادة، وذلك قصد تبريد قهوتهم. ويتناولون الغداء على الحادية عشر، ويشربون القهوة مرة أخرى على الرابعة بعد الظهر. وعند ما يأكلون يجلسون جلسة القرفصاء على الحصيرة وحول مائدة يصل علوها 6 إنش، ولا يستعملون لا السكاكين ولا شوكات الطعام. فطعامهم العادي، لحم الضأن، والبقر والطيور الداجنة، إما غليا أو نيئا، والذي يؤكل مع الكسكس. فلا يقبل جزائري أن تأكل معه زوجاته، بل يجبرهن على ان يقدمن له طعامه وبعد انتهائه من الأكل، يسمح لهن بالجلوس على المائدة. فالأتراك بالخصوص شديدو التمسك بهذه السابقة، وبالتالي غير مؤهلة لأنهم يعتبرون المرأة أقل المخلوقات لهذه الامتيازات.

يمنع منعا باتا بعض الأطعمة، وذلك طبقا لعادة الأمم الشرقية، فالقرآن يحرم أكل لحم الخنزير، والحيوان غير المذبوح، والميتة، والمشنوقة، أو المقتولة بنفخ، أو سقوط أو عن طريق حيوان آخر.

ويبدو أن محمد قد تبنى قوانين اليهود، ولذلك نجد كل هذه الأشياء عنده. غير أنه أذن بأكل البعض منها والتي لم يسمح بها موسى، مثل لحم الجمل، بالخصوص، وفي حالات استثنائية، وذلك عند ما يكون الناس في خطر المجاعة، فإن الشريعة المحمدية أذنت لهم بأكل أي نوع من الأكل المحرم. فالجزائريون لهم نفور خاص بالخنازير، وكذلك الحيوانات

الأخرى المتوحشة، لأنهم يرونها أنها تعدي حتى باللمس. ويمكن لمائة خنزير منظم أن يحتلوا مدينة الجزائر وبسرعة متناهية تفوق سرعة جيش الأسبان الشجعان.

وعلى أي حال ، فالعديد من الأهالي الذين يعتبرون أقل إيمانا ، والذين لا يدركون التوسيخ، يحضرون كميات كبيرة من لحم الخنزير إلى السوق لبيعه إلى العبيد المسيحيين بسعر معتدل، ولهم في هذا فائدة كبرى لهذه العادة، وغالبا ما يباع خنزير ناشئ بكامله بأقل من سكوين واحد (عملة جزائرية).

فالناس لهم ارتباط شديد بالقهوة، أو أن استعمالها المفرط متعارف عليه، ذلك أن التجار والأسلوب الحركي الذين يقومون به وهم في تجارتهم وأعمالهم غارقون، وذلك على امتداد الأرصفة أمام منازلهم، تجد أكواب القهوة أمامهم. فالأتراك، وبخاصة أولئك الذين هم أكثر إخلاصا يستعملون المشروبات الروحية، ويقضون كامل الأيام في المقاهي بالتدخين وشرب القهوة ، وبما أنهم لا يخصصون أي جزء من وقتهم للقراءة أو تدبير الفكر، فيبدو أنهم انسلخوا تماما من كل تفكير وتأمل، وأصبحوا مجرد عبيد لملذاتهم الحسية.

يعود الاستعمال الأول للقهوة إلى عدن،« Felix Arabia» في حدود سنة 1436، ومنذ ذلك الوقت بدأت تدخل تدريجيا إلى مكة، والمدينة، وسوريا وأوربا وأجزاء أخرى من العالم ، وكانت محل خصام كبير وفوضى. فاستعمالها كان محرما في الغالب، ثم أعلن أنه مسموح

بها قانونيا، لكن في الوقت الراهن أصبحت محل تسامح عالميا. فشرب الخمر، وفي ظل هذا الاسم يشمل كل أنواع المشروبات القوية، ممنوع في القرآن في أكثر من سورة، أما البعض فيتصور أن الإفراط فيه هو الممنوع، ويدعون أن الاستعمال الحسن للخمر مسموح به في آيتين من القرآن، لكن أكثر الآراء تقول أن استعمال المشروبات القوية أو غير القوية وبأقل كمية غير قانوني إطلاقا، ومع ذلك، يساير المستهترون أنفسهم بممارسة عكسية، في حين يتشدد المخلصون أكثر، خاصة أولئك الذين يؤدون الحج إلى مكة، فهم يرونها غير قانونية، بل وحتى من يذوق الخمر، أو يصنعه أو يقوم بتجارته بالبيع والشراء، فهو حرام.

ومهما يكن، فإنهم يحبون الخمر بشكل مسرف، وإن سألهم أحد كيف حدث له ذلك وغامر لشربه، خاصة أنه محرم بشكل صارم، فيجيبون أنهم شربوا مع المسلمين والمسيحيين. فالداي الحالي كان مدمنا عليه في السابق، لكنه أصبح نموذجا يحتذى به بعد وصوله السلطة، وإنه لخطر كبير على كل زائريه أن يشم فيهم رائحة الخمر.

وهنا يثار سؤال فيما إذا كان ورد في القرآن تحريم القهوة، لأنها عقار مسكر، وربما يعود ذلك أن حرمانها في السابق يعود إلى هذه الحالة لوحدها. وإنه لمن الوعي رفض استعمال التبغ، لا لأنه مضر، بل يعود ذلك إلى تقليد مأثور للرسول، وإذا كان ينسب إليه حقا، فإن ذلك يثبت صحة نبوته. وقد قيل: أنه سيأتي في الأيام الأخيرة رجال الذين يحملون اسم المسلمين، ولكنهم بالتأكيد ليسوا كذلك، وأنهم سيدخنون عشب خاص

والذي سيطلق عليه اسم التبغ، والأفيون، رغم عدم ذكره في القرآن، فهو يبدو أنه غير قانوني باتفاق المسلمين المتشددين، لأنه مضر بطريقة غير عادية. فالجزء الأكبر من الأتراك، لا يبالون بكل هذه الممنوعات، وبما أنهم سادة الجزائريين فإنهم يشربون على حساب النفقات العمومية، فحياتهم كاملة سلسلة متواصلة من الدسائس والمكائد، والخلاعة، والسكر، لهم ضعف خلقي طبيعي مقارنة باللذين لا يتابعون من الناس. فالطغاة الكبار طبيعيا هم من الجيش التركي السكارى، والذي يبدو أنهم لا يتقيدون لا بالقانون ولا بالعقل.

فالعدد الأكبر من هذه البهائم ، يخرجون إلى الشوارع بعد أن شربوا، ومعهم سيوفهم المستلة، وعلى شخص أن يسرع عند اقترابهم منه وإلا عرض حياته للخطر، واليهود هم المستهدفون بالدرجة الأولى من غضبهم، وعند ما يكتشفون يهوديا في مكان ما يلاحقونه فورا، بينما يحتقر الفقير هذه الذبات اللعينة وذلك بصرخات شنيعة لاتقاء فظاعة هذه المجموعة من اللصوص، الذين هم في حرية بأن يرتكبوا أي عمل عنف عليه، مع أمان من العقوبة، وإن كان يهوديا وتقدم بطلب لتصحيح الضيم، فإن ذلك قد يؤدي به إلى الفلقة نتيجة غروره. وهكذا يعامل هذا الجنس بإخلاص قلبي ويحتقر، وعند ما يريد شخص ما أن يندد أو يلصق نميمة عار على شخص آخر، يناديه باليهودي، أو حتى براع يسوق قطعانه سيطلقون عليه جيئر يهودي، والتي تعد أكبر إهانة مخلة بالشرف.

يعتز الأتراك بأنفسهم، مثل الهنود الأمريكيين. ويبدو لهم أنهم فوق جميع الأمم في العالم، وأنهم بواسل أكثر من الجنس البشري. يتصورون أن العالم وجد لهم لوحدهم، وبالتالي يدور في خلدهم احتقار تام لكل الأمم الأخرى بصفة عامة، خاصة أولئك الذين يختلفون عنهم دينيا، ويسمون بصفة عامة المسيحيين، بالكلاب. فالبعض منهم عند نفور التطير بشكل مغالى فيه، ذلك أنهم إذ التقوا بأول شخص في الصباح عند خروجهم من منازلهم، كان مسيحيا أو يهوديا، فإنهم يعودون توا إلى بيوتهم وهم يرددون «اللهم أحفظنا من الشيطان».

فا لأتراك، وكما هو الحال مع العديد من الناس الآخرين، مفرطين جدا في حبهم للمال، ولهم مثل مشهور في تاريخهم لنزعهم اكتساب المال.

يذكر القناصل الأجانب أن الجزائريين لا يصلحون للعمل فهم يأتون بحجج واهية لاعتراضهم عن العمل، ويتوقعون شيئا أكثر حقيقة، وذلك عن طريق التملق، وبشطارة ماكر، بدلا من الحصول على الشيء بحجج قوية. وللموافقة على المثل القديم «أعطي لتركي مال بيد، وسيتركك تقلع عيناه بيد أخرى». وقد اثبت هذا بشكل رائع في حالة قنصل بريطاني، الذي تقدم بطلب إلى الباشا على الداي الأخير، بشكوى مستعجلة ضد نهب القراصنة الجزائريين، بدون سفقة مالية كبيرة. وعلى

أن الداي غضب إلى حد ما، وأجابه بغضب أشد، قائلا: «فالجزائريون يشكلون عصابة المحتالين وأنا قبطانهم» وعليه فإن العدل القومي وحرورية الخلق نادرا جدا ما توجد هنا.

ولإتمام صورة فساد الاخلاقخلاق الإنسانية ، فالأتراك مذنبون في كل الجرائم الطبيعية، والتي ينظر إليها هنا بلا مبالاة كاملة، ذلك أن ملجأ الأكثر فقرا من الناس يرسلون أبناءهم إلى الشوارع للبحث عن لقمة العيش، عن طريق بغاء أثيم، لا يعاقبون الأتراك ولا يوبخون عند اكتشاف أفعالهم الشنيعة. فالتركي يحن بحماس ملتهب لطفل، مثل، «Virgil» التي يبدو أنها عشيقة هذا الوصف. متأسفة على فقدان «Alexis» الجميل. لقد جرت العادة مع الدايات السابقين أن يرسلوا سنويا عدد من الأطفال ذوي المنظر الجميل إلى الباب العالي، وتعتبر هدية بسيطة، مع هذه الرذيلة الممارسة من قبل الداي. أما الوقت الراهن فإن الهدية تتمثل في عدد من الخيول العربية. وقد أخبرنا من مصدر موثوق، أن الأميرال المشهور بينشينين، حافظ في بيته على 40 طفل، بين 9–15 عشر من العمر، والذين لم يسمح لهم بالذهاب إلى الشوارع، وربما لاستمالتهم من قبل الأتراك إلى الفجور. أما بيتشينين، لم يكن مدمنا على هذه الرذيلة. غير أنه اكتشف أنه تركهم فقط على أساس مبدأ بهرج السلطة، متظاهرا بالعظمة.

ومن الخصال الفاضلة في سلوك تركي، أنه يكف عن القسم الغير المقدس، ولا يجرم إطلاقا بالدعوة للكفر مثل المسيحي.

فالعبيد الأمريكيون مدمنون كثيرا على هذه الرذيلة، ولم يترددوا في التقرب من مراقبيهم الأتراك بلغة قبيحة.

وعليه فإن العديد من مراقبيهم سرعان ما تعلموا أن يقسموا بالانجليزية، وكذلك الأمر بالنسبة للأمريكيين أنفسهم. لسنا مجبرين على أي حال أن نستعجل في مدحهم لأي قداسة أعلى في هذا المجال، وربما نعزو هذا العفاف إلى عبقرية لغتهم بدلا من أوامر ضميرهم.

فطريقة أدائهم اليمين مشتركة، وهي «Judeo» أو «Jew»، «Pero»، معناه كلب، وكلب بدون روح، واليمين الأخير هو المفضل عند الداي. فكل هذه المصطلحات، رغم أنها تبدو أقل كفرا مثل ما هو الأمر عند الفرنسيين أو الانجليز.

فالجزائريون لا يتصافحون عند ما يلتقون، بل أن طريقة التحية المعتادة، هي انحناء خفيف للرأس، ووضع كلا اليدين على صدورهم، ويبتهلون بالدعاء آلاف المرات على النعمة للمولى، ويطلق على الذين يقومون بتحيتهم بالإخوان. وعند ما يلتقي الأقارب والأصدقاء يعانقون ويسلمون على أكتاف بعضهم البعض.

فصباح الخير بالتركية هو: السلام ما ليكوم ما ليكس سالاما، أما بلغة الأهالي: واش راك، واش أنتوما.

وتقدم التحية للكبار، خاصة الداي بكلمة: أفندي، أو لطفكم. وعند ما يلتقون بشخصية يتقدمون نحوه بدون انحناء، وعند وصولهم إليه، يجلسون ويمسكون بطرف من ثوبه، ويرفعونه علوا نحو قدمين، أو يتركونه يسقط تبعا لنوعية الشخص. وبعد الحديث عن أمورهم، فإنهم يئودون نفس الطقوس من الاحترام المتبادل للمرة الثانية ثم ينصرفون.

فالأتراك ، كما سبق وأن لا حظنا، لهم امتياز خاص بهم بحمل السلاح، ويعقبون إذا لم يقوموا بجعله يلمع قدر الإمكان. فبنادقهم مرصعة بالفضة ورؤوس سيوفهم بالذهب. وتدعى هذه السيوف بالتركية طا حانس والتي يحملونها دوما جهارا كوشاح أو زنار، والذي يربط في وسطهم. فهم يتلقون المدد الضروري من الذخيرة، عادة، مرة في كل شهر، ويحتاط الداي كثيرا في توزيع هذه المادة، حيث أصبح قصره مخزنا للعتاد، إذ يودع كل الرصاص في المدينة تحت مسئوليته المباشرة، وتوزع أقساط منه عند الحاجة. فمخازنه للبارود مؤمنة بشكل واف، وعلى مقربة من المرفأ، وكل هذه الاحتياطات التي يستعملها ، إنما القصد منها منع أي مقاومة في حالة حدوث تمرد.

فالجزائريون لا يقرؤون سوى القرآن، وأن تفسيرات الكتب التي كتبوها، لا تتعدى ، بالطبع، معارفهم التي لا يفترض أنها موسعة. فهم لا يفهمون ما عدا المبادئ الأولى من علوم الحساب، أما علم الهندسة، وقرض الشعر، والرسم، والأسلوب الموسيقي، فمعارفهم فيها قليلة. فكل كتبهم مخطوطات ولا توجد عندهم مطبعة في كامل المدينة.

والطباعة بالنسبة إليهم تبدو حقيرة تماما، ولا يضعون فيها ثقتهم، ويعتبرونها كأمر مفروض بدلا من الفائدة.

فالرسم يبدو أنه لا قيمة له تماما، ذلك أن العديد من الشخصيات، رجالا ونساء وحيوانات..الخ يمنع رسمها، والنظر إليها يعد جريمة كبرى ، فهم معجبون جدا بالساعات اليدوية، أو ساعات الجيب، والساعات الكبيرة، لكنهم إذا رأوها مزينة بهذه الشخصيات فإنهم لا يستطيعون تمالك أنفسهم بالتعبير عن غضبهم. كما لهم عزوف مماثل للأجراس. ويغتاظون بشدة للسوط الذي يضعه العديد من طواقم الأمم الأجنبية في موانئهم وعادة ما يتم ذلك الضرب لرنات دقات أجراسهم.

فالقمار محرم في نفس آيات من القرآن، التي تحرم استعمال الخمر. فالكلمة المستعملة هناك، تشير بالخصوص إلى نمط خاص لضرب القرعة عن طريق السهام طبقا لممارسة المشركين العرب غير أن المعلقين يتفقون ، أنه باسم الحصص، فهي تدخل جميعها في إطار الحظ أو الخطر، مثل لعب الورق، ولعبة الرند، ولعبة الطاولة، والتي تعد جميعها حرام. وتبدو جميع هذه اللعب بالغة الفحش إلى حد كبير من قبل المسلمين المتشددين.

فاللعبة الوحيدة التي تلعب في الجزائر، هي لعبة الشطرنج، ويسمح بها فقهاء الإسلام رغم أن البعض يشك في مشروعيتها لأنها تعتمد أساسا فقط على الفن والتسيير الفني للقطع المستعملة في اللعبة. لكنه يسمح بها في ظل قيود خاصة، لأنها لم تلحق ضررا لتمنع تأديتها

المنظمة وتعلقهم بها، ولم يسمح لأي شخص أن يلعب مقابل المال، أو أشياء ذات قيمة تافهة.

لا توجد علاقة جنسية في الجزائر بين الرجل والمرأة قبل الزواج، وأن عقود الزواج يتم التفاوض عليها من قبل امرأة موثوق بها يستعملها الرجال، الذين يعرضون على الآباء مبلغا ماليا محددا طبقا لمطالبهم، وهكذا تشتري السيدة، وكأنها مادة تجارية. ومن هنا فإنه نادرا ما يحدث أن يبقى الزواج متينا بالحب، وهكذا يقع خرق قانون الطبيعة، لأنهما قاما بذلك وبالتأكيد على دسيسة وغيرة، وعواطف صاخبة.

وعند ما يتم عقد الزواج ، فإن الحفل العرسي الرئيسي يتضمن توديع السيدة إلى وزجها.

يتشكل موكب الحفل من صديقات الزوجة وأقاربها في حدود العاشرة ليلا، تحضره عدة زنجيات يحملن شمعات في أيديهن، ويقمن بأصوات صاخبة متقطعة على امتداد المسافة حتى يدخلن دار الزوج، الذي يرى عروسته الجميلة لأول مرة، والتي كان يتصورها منذ مدة. ينسحب الموكب المرافق، وتعرض في اليوم الموالي علامات العذراء بمباهاة على سطوح منازلهم ، وذلك بحضور أصدقاء وأقارب العروس، وإن استحال إظهار هذا العفاف، فإن الزوج يعيد الزوجة إلى والديها، ويفسخ الزواج من غير احتفال.

ويلاحظ على المرأة الجزائرية أنها مجبولة على العشق، وأن كل المعاشرة الجنسية بينهن والمسيحيين ممنوعة تحت طائلة عقوبة

الموت، ولكن برغم ردعهن عن محاولاتهن للإيقاع بكل عبيد مسيحي. الذي يأتي في طريقهن، فإنهن يقمن باتصالات معهم. فالعديد من الحسناوات الواهنات يتجولن في الشوارع كل ليلة قصد الصيد ويتقدمن بخطوات أولى مع قلة حياء وبراعة في المداورة. لكن يقظة «Lisberos».. الذين يجازون عن كل مسيحي، يمكن اكتشافه، والذين يغامرون على كسب علاقات جنسية، رغم تعرضهم لخطر كبير.

فكر بعض الدايات الأوائل في إدماج الأسرى مع المواطنين. والسماح لهم بالتزوج، غير أن المرابطين كانوا متخوفين من أن مثل هذا القانون سيعدي نقاوة دم المسلم ، واعترضوا عليه بشدة. وعليه قالوا أن كل العلاقات بين العبيد المسيحيين والنساء المسلمات تعتبر جريمة تستحق الإعدام.

فالمرأة تقوم بحياة روتينية في المنزل، وغالبا ما يقمن بتسلية أنفسهن بالخياطة والطرز، ولا يخضعن إطلاقا لعمل منزلي شاق والذي يقوم به العبيد، ومهما كانت وضعيتهن الاجتماعية، فإنهن لا يشتغلن في أي عمل خارج بيوتهن.

ولا يقدمن في ملابسهن لا ذوق ولا رأي، ويبدو لأمريكي أو أوربي أنهن غير متحضرات إلى حد كبير. وعند زيارتهن أو خروجهن من الدار يستترن جمالهن تماما. يلبسن نوع من السراويل الخرقاء، وطبقا لقول الأسرى الأمريكيين، فإنهن يشبهن صرة خرقة تتحرك بدلا من النساء. يشبهن السيدات الفرنسيات، فهن متعلقات جدا بمسحوق الجمرة. وبدلا

من استعمال ذلك على خدودهن فهن يستعملن مبهرج غريب عند صبغ أو طلاء وجوههن وأجفانهن بقلم أحمر، والذي يمتد فوق جفون أعينهن.

وفي حالة تبذل المرأة في لباسها وتعري بعض أجزاء من جسمها، أو بالأحرى الطريقة التي تلبس بها في دارها ، فإنها تثير الشهوة الجنسية.

تلبس طاقية مشكلة من خيوط ذهبية متشابكة تشبه شبكة تربط بمنديل حريري رقيق، وشعرها معلق محصور في جراب حريري صغير. فصدرها وأيديها، وأرجلها عارية، أما الباقي من جسدها فهو مغطى بجلباب حريري كبير، الذي يصل إلى ركبتها فقط.ومربوط في حدود الوسط بنوع من الوشاح. فقفشها في غاية من الرقة والجمال مصنوعة من الذهب، وتغطي أيديها بمجوهرات.

تركب في تستر داخل صندوق مربع مغطى بنوع من نسيج صوفي غليظ فوق حمار أوبغل، وعند ما تسير في الشوارع تتحجب، وتأخذ حذرا شديدا بغطاء وجهها أمام الأجانب، خاصة الأسرى المسيحيين، حتى لا تظهر جزء من جسمها ، لأن ذلك يعتبر شيئا مقدسا.

ذات يوم أمر تركي عبد أمريكي أن يحمل زجاجات خمر إلى منزله من أحد السجون، وأثناء مروره بإحدى الغرف في دار التركي فاجأ دخوله سيدة التركي، حيث كان وجهها عاريا، فلم تكن تتوقع دخول هذا العبد فسارعت وغطت وجهها برداء صغير، وبينما كانت تقوم بذلك كان الأمريكي ينعم بالضحك.

ليس هناك فرق كبير . كما لاحظنا سابقا. بين لباس الرجال والنساء، فالرجال يلبسون نوعا من سراويل تنعدم فيها الرشاقة والتي تصل إلى أدنى الركبتين، ويشبهون في ذلك عادة الرومان إلى حد بعيد. فأرجلهم وأيديهم عارية، أما في الشتاء أو في جو ممطر فيلبسون كبابيط وهي نوع من رداء كبير يغطي الجسم بكامله تقريبا.

يلبس المرابطون رداء أخضر، أو جبة ثمينة تصل إلى أدنى الركبتين، فقبعات البعض منهم، أو بالأحرى غطاء رؤوسهم، تشبه إلى حد كبير صحفة مكونة من كتان يوضع على قطعة كرتون مستديرة، ويلبس البعض الآخر طاقية عالية تشبه نوعا ما قالب سكر مع جزء صغير من قمة الرأس مبتورة. ولبعض المرابطين تقدير واحترام وسط الأهالي حيث يجرى الناس إلى تقبيل أيديهم عند مرورهم بالشوارع تبركا منهم.ويعتبر الداي بمثابة المرابط السامي أو الأعلى لمملكته.

ولا يختلف لباس اليهود كثيرا عن لباس الأتراك، والطريقة التي يتميزون بها أكثر، هي أنها تتمثل في اختلاف اللون، الذي هو أسود، وهو تمييز فرض عليهم بالقوة. كما يوجد هناك اختلاف في شكل العمامات، وأقفاشهم، التي يعلو جزء منها، ونادرا ما يمشون حفاة القدمين، وغير مجبرين على لبس الأحذية، دون أن يدفعوا رسما باهظا للداي مقابل هذا الامتياز.

لهم مراسم قليلة في دفن الميت، ولا يبدلون ملابسهم أبدا عند وفاة أحد من أقاربهم. يغسلون الميت بعناية فائقة. ويحرقون بخور حولهم

لإبعاد الأرواح الشريرة. ليس لهم تابوت، بل يدفنون موتاهم في قماش مفتوح من الأعلى والأسفل.يعرض الميت قبل عملية الدفن في دار، على محمل الميت وتحت غفرة النعش بألوان مختلفة وبحواشي ذهبية وذلك حسب قيمة الشخص. ويدفن في مكان خال من أسوار المدينة، يحمل جثة الميت إلى القبر ، أربعة وأحيانا ثمانية أشخاص، ولا ترافق النساء موكب الجنازة، إلا بعد أيام قلائل، تزور النساء من الأقارب القبر، ويذرفن الدموع مع وضع باقة من الورد على الضريح.

يعتقد الجزائريون أنه عند الوفاة ووضع الميت في القبر، تأتي اثنتان من الملائكة إلى الميت وتوقفه على ركبتيه لتحاسبه على أفعاله.

فإن عاش حياة فاضلة تأتيه ملا ئكتين بلون الثلج، تتلوهما تلك التي تحاسبه وتضيفه بكل المتاع التي يشتهيها في الآخرة. وإن عاش حياة فاجرة تأتيه ملائكتان بلون أسود مثل زغلة، وهاتين الملائكتين مفوضتين بتسليط أقصى العقوبات عليه. فواحدة تقول أضربه حتى التراب بالهراوة، والأخرى تدفعه إلى الأعلى ثانية بخطاف حديدي، وهكذا يوظفان في تسليط هذه العقوبة القاسية عليه دون أدنى شفقة حتى يوم الحساب.

ويبدو من الناحية الدينية أن القيود جد صارمة فلا معيار لحكم الوحدة السياسية لبلد ما ، فالجزائريون يؤدون صلاتهم في الأوقات المحددة، مثل أي أمة كانت، فهم يساندون أية أمة قبيحة على وجه الأرض. يصلون خمس مرات في أربعة وعشرون ساعة، واحدة قبل طلوع النهار، وأخرى على الواحدة، ثم واحدة مع وقت العصر بعد الظهر،

وأخيرا حوالي الواحدة ليلا. وقبيل بدء عبادتهم في النهار، يرفرف علم أبيض على كامل المساجد، كعلامة استعداد، بعدها مباشرة يصعد المرابطون إلى قبيبة المساجد، ويوجهون وجوههم شطر الشرق ثم يرفعون أياديهم إلى رؤوسهم، ثم يصرخون بصوت عال، وبناء عليه يقوم المصلون من الذكور بغسل أيديهم ، ووجوههم، وأقدامهم والتوجه إلى المساجد، حيث ينظمون أنفسهم في صفوف ووجوههم متجهة نحو الشرق. ولا توجد في مساجدهم مقاعد خشبية طويلة لها مسند ظهري، مثل الكنيسة، بل هي مفروشة بالرخام، وقبل ذلك يضع كل شخص حصيرة قش، يسجد عليها. وبعد فترة قصيرة من السكون، وأثناءها تستمر شفاههم في حركة، ويرفعون أيديهم إلى رؤوسهم، بعده يضعونها على ركابهم، يسجدون على الحصيرة، وكلهم ساجدون ورؤوسهم على الأرض إلى نفس اللحظة ، التي يعيدون فيها نفس العملية. وبالممارسة الدائمة، فهم يؤدون هذه الحركات التكاملية بدقة متناهية الخيال، وتستجيب كل حركاتهم بشكل واف وفي وقت واحد أكثر منه عند جيوش ذات تنظيم محكم. يستمر هذا المشهد حوالي خمسة عشرة دقيقة، بعدها ينصرف المصلون إلى أعمالهم. ويلاحظ نفس المشهد يوميا في البحرية، حيث يقوم المرابط الذي يتولى أمر الصلاة هنالك بالآذان من فوق أحد قلاع المرفأ، والتي تعد علامة للغطس، وهو مصطلح أمريكي هزال، وقيل عن مكر.

وليس للمرابطين أي عمل يؤدونه في هذا الجانب من الواجب الديني، سوى أنهم يقدمون حديثا كل جمعة في المساجد، من منصة

الخطابة أو المنبر، فهذا الحديث والمراسم الدينية الأخرى، تتواصل في ذلك اليوم من الحادية عشر حتى الواحدة، وأثناءها تغلق أبواب المدينة ودور السجون. ولا يحضر الناس في الصلاة الجماعية ليلا، وإنما يقومون بأداء واجبهم الديني حال سماعهم آذان المرابط، في بيوتهم. فجميع المسلمين القاطنين قرب المدينة يؤدون الصلاة حال مشاهدتهم رفع الأعلام أوالرايات على المساجد.وإلى جانب كل هذه العبادات الدينية، فإن هؤلاء الناس الأتقياء يوظفون أنفسهم يوميا ، مثل الجاهل وسط الكاثوليك الرومان، في تعداد ولف حبات المسبحة.

والداي لا يحضر الصلاة الجماعية ماعدا أيام الجمعة، في مسجد على مقربة منه ومقابل قصره، حيث يجتمع نبلاء الأتراك، ويمر بين صفين من حراسه الأتراك، الذين يتموقعون بين باب قصره وباب ذلك المسجد. بعد أدائه تمرين تواضع، وسماعه لحديث المرابط، ينسحب إلى قصره حيث يرش عند دخوله بماء مبارك ذو رائحة فواحة.

فكل جمعة مخصصة لصلاة الجماعة، وهي تقابل يوم السبت لليهود، أو الأحد للمسيحيين. وقد مت عدة أسباب لتحديد هذا اليوم لهذا الغرض. فالبعض من أهل الرأي يقول أنه اليوم الذي أنهى فيه الإله أعمال الخلق، غير أن السيد«Sale»، يلاحظ أن محمد يبدو أنه فضل ذلك اليوم، خصوصا لأنه كان اليوم الذي اعتاد فيه الناس أن يجتمعوا لمدة طويلة قبل مجيئه. وربما كان القصد من هذه الاجتماعات لأغراض مدنية بدلا من المقاصد الدينية. وعليه فإن المسلمين لا يتصورون أنفسهم بصفة عامة، أنهم ملزمون بالاحتفاظ بذلك اليوم على أنه مقدس مثل ما هو الأمر عند

اليهود والمسيحيين المقيدين بالاحتفاظ بأيامهما الدينية «فهناك ترخيص في القرآن، كما يعتقد، لأنه بإمكانهم العودة إلى أعمالهم، أو يتفرقون بعد انتهاء العبادة الدينية».

ومع ذلك يبقى أكثر العابدين يفكرون في ممارسة أي جزء من ذلك اليوم إلى الاهتمامات الدنيوية، ويطالبون بتكريسه كلية إلى الأغراض الدينية. ولا يعفى الأسرى من العمل في هذا اليوم، ولا في أيام أخرى من أيام الأسبوع، لكنه يسمح لهم، عادة، بجمعة واحدة في كل شهر قصد الراحة أو الترويح عن النفس.

فجميع هذه القيود الدينية، غير كافية، على أي حال، ويخضعون مرة واحدة في كل سنة إلى الامتناع الصارم عن الأكل والشراب وكل الملذات ويطلقون على هذه المناسبة، اسم رمضان، والذي غالبا ما يبدأ في شهر ماي ويستمر من ذلك الوقت حتى ظهور قمر جديد، وفي أثناء ذلك لا يقتربون من المرأة، ولا يأكلون ولا يشربون، ويبتعدون عن الشمة، والتدخين من طلوع النهار إلى غروب الشمس. وعدم احترام هذا السلوك والواجب الديني يقع صاحبه تحت طائلة عقوبة الموت، أما أولئك الذين يكتشفون في مجاراة ملذاتهم، فالبعض يقول أنهم ملزمون بشرب رصاص ذائب كعقاب لجريمتهم.

وعند غروب الشمس يرفع المرابط المؤذن الراية، كعلامة للأكل، التي ينتظر رفعها بفارغ الصبر. بعدها يصبحون أحرارا في إشباع رغباتهم في الأكل كما يحلو لهم. وتسود في شهر رمضان كآبة عامة عند الناس، وهنا يجد الداي نفسه أنه من الضروري أن يساير هذه العادة، حيث يخرج من مزاجه، ولا يمكن إتمام عمل من دونه خلال دوام الصوم.

فالتجربة التركية تعد انكسارا للنفس، لأنهم قللوا كل الملذات التي تهواها طبيعتهم الشهوانية القادرة على التمتع بكل ما هو موجود. فلا يسمح لهم بالتردد على السجون لشرب الخمر والحانات، ولا بالمقاهي، وينتظرون بفارغ الصبر انتهاء هذا الصوم، ومع نهاية الشهر يصعد الأتراك إلى ثكناتهم كل ليلة ليراقبوا بعيونهم وبشوق نحو الغرب لاكتشاف الهلال الجديد، الذي يسمى بشوال، وينتهي الصوم حال إثبات ظهور القمر، ثم ينغمس الأتراك في فرح مفرط، ويطلقون نار الفرحة لظهور القمر الجديد كإعلان لنهاية الصوم.

فهذا الصوم يعد الركن الثالث من العبادات الدينية ، فهو واجب له أهمية كبرى ، ذلك أن محمدا قال عنه : إنه مدخل للدين، وأن عطر فم من يصوم هو أكثر اعترافا لله من رائحة المسك.

وحسب رجال الدين الإسلامي هناك ثلاث درجات من الصوم :

الأولى: امتناع البطن وأطراف أخرى من الجسم عن الاستجابة لشهواتهم.

الثانية: امتناع الأذنين والعينين، واللسان، واليدين والقدمين وأعضاء أخرى عن فعل معصية.

الثالثة: صيام القلب عن كل هموم الدنيا، والامتناع عن كل الأفكار المتعلقة بالإله.

فالمسلمون ملزمون بالأمر الواضح للقرآن، بأن يصوموا كامل شهر رمضان، ونتيجة لهذا التعفف القاسي والذي يعد معصية حقيقية ضد قانون الطبيعة، سيسود ظلام عالمي على أفكار الناس، فهم ينتقمون

بشدة، وازداد القتل العمد والاغتيالات أكثر من أي وقت مضى، فالعبيد غير مجبرين على أن يسايروا أي من احتفالاتهم الدنيئة أو القيود، لكنهم تعرضوا أثناء رمضان إلى إنزال أشد العقوبات عليهم، مثل الامتناع عن الأكل والشرب والميل إلى إثارة المشاعر بوجدان صاخبة لصدر الإنسان.

ويلي هذا الصوم، احتفال يدعى عيد الفطر، الذي يستمر ثلاثة أيام، وخلال هذه الفترة يقوم أشباه الجائعين من الأتراك بإحداث شغب مقابل إفراط شديد، ويقيمون نوعا من معرض أو سوق خارج المدينة، حيث يلهون أنفسهم بالشراب، والوليمة، والموسيقى وإطلاق النار، والمصارعة، والمرح الصاخب، وأعمال فروسية.وتعليق رايات جميع الأمم في البحرية، و يعفى العبيد أثناء هذا الاحتفال، من العمل.

غير أن عيدهم الأكبر يقع في الخامس من شهر سبتمبر، يوم ميلاد نبيهم، والذي يحتفل به بوقار، ويجتمع كل المدرسين مع علمائهم في المدينة، في الجامع الكبير، ومنه يتشكل موكب يجوب الشوارع، ويحمل كل منهم مشعلا في يده، ويرددون مديحا دينيا في حق رسولهم الأعظم. ويحمل إثنان منهم وعلى أكتافهم هرما رائعا محلي بأكاليل من الورود، وصليبا فوقها، متبوعة بزنار صوتي وموسيقى آلية تبعا للنمط التركي، وتزين جميع البيوت الواقعة في زوايا الشوارع بقماش النجود وتشعل المصابيح. يشكل طهاة الديوان الذين يبلغ عددهم 200 موكبا، بحيث يحمل كل واحد منهم فوطة نظيفة أو منشفة على ظهره ومشعل في يده يسيرون في موكب استعراضي بمعدل إثنان، وذلك من الساعة السابعة حتى الحادية عشر نهارا، وينتهي العرض بمدح رسولهم، على أن يتم ذلك

بآلات موسيقي أمام أبواب بعض الكبار من الحكومة، وتبقى المشاعل منيرة حتى منتصف الليل في كل دار، لأن الرسول محمد ولد في تلك الساعة. يستمر هذا الحفل مدة ثمانية أيام، وخلال تلك الفترة، فإنَّ كل شخص حر في السير بالشوارع ليلا من غير مشعل مضيء، وهو الشيء الذي لا يمكن لهم القيام به في أوقات أخرى دون أن يوقعوا أنفسهم في عقوبة جسدية.

هناك عادة غريبة تأصلت هنا، بطبيعة دينية، لإسقاط عقوبة المذنبين الفارين إلى المساجد للحماية، والتي تسمى المرابط الأخاذ، وتعتبر هذه الأماكن كملجأ لكل وصف إجرامي. ويوجد أمام كل مسجد سلسلة طويلة معلقة، حيث يقيد المجرمون بهذه السلاسل ريثما ينقل إلى ملاذ آمن ويغطى بألوان المرابط، ولا يتعرض إلى مكروه هنالك حتى يصدر العفو عنه. وتوجد إحدى هذه السلاسل أمام مقر قصر الداي، الذي يعفو أحيانا على المذنبين الذين يفرون إلى هنالك حفظا على حياتهم. وسلسلة أخرى معلقة في ثكنات الأتراك ، حيث يجد هؤلاء المذنبين حماية أكثر.

فقد حدث ذات مرة عراك ، وليس ببعيد بين يافعين في حدود [illegible] عاما من عمرهما، أحدهما تركي والآخر أهلي، وذلك عند مرورهما عن البحرية نحو المدينة، وعند اقترابهما من الثكنة العسكرية سارع التركي بالجري وراء الأهلي وأسمعه كلمات فاحشة، مثل «الطحان » وضرب وراء ظهره وقتله، وفر هاربا إلى ثكنة الجيش، حيث وجد حماية، حتى

جاءه أصدقاءه الأتراك وطلبوا له العفو مقابل دفع مبلغ مالي لوالد الضحية كتعويض له.

يدور رأي سوقي بين الجزائريين ، والمسلمين بصفة عامة، أن المرأة ليس لها روح، وإن كانت لها، فإنها مثل أرواح البهائم، ولا تجازى في الآخرة. وربما هذا هو سبب عدم ذهابها إلى الحج، أو حضورها في صلوات عامة في المساجد. ولكن مهما كان هذا الاعتقاد سائدا، فإنه من الواضح أن محمدا يكن احتراما كبيرا للجنس اللطيف، ولترسيخ مثل هذا المبدأ، هناك العديد من الآيات الواردة في القرآن، تؤكد بوضوح كون أن المرأة لا تجازى فقط في الآخرة لأعمالها الشريرة، بل تجزى أيضا لفضائلها مثل الرجل، وبالتالي فإن الله لا يميز بين الجنسين في هذا المجال. إنه حقا أن الفكرة العامة، هي أن المرأة لن تقبل في نفس الإقامة مع الرجل، لأن إقامة الرجل ستزود بالحوريات، أما مكان السعادة الأفضل سيخصص للمرأة الفاضلة، حيث تتمتع بكل هذا وعلى نطاق أوسع وأكمل. غير أن البعض يدعي أن الرجل سيبقى مع أزواجه في هذا العالم، أو البعض من هن على الأقل، حسب رغبته. ومن بين القرائن التي عرف بها أتباعه، أنه ثبت إيمانهم بالحياة الآخرة وروح المرأة، أنه أنه قيل أن عجوزة طلبت من الرسول أن يستشفع لها مع الله بقبولها في الجنة، لكن محمد أعلمها أنه لا يمكن لعجوز أن تحضر تلك الأماكن، بعد أن بدأت العجوزة أن تبكي بإفراط، عندها عرف محمد بنفسه، وأكد لها أن الله سيجعلها شابة مرة أخرى.

بالتأكيد فإن القرآن أوجد فرقا في الإيمان بالآيات التالية: «إن المسلمين والمسلمات والمومنين والمومنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد لهم الله مغفرة وأجرا عظيما».

ويقوم عدد كبير من الجزائريين برحلة إلى مكة سنويا، وتستعمل عدة سفن لنقلهم إلى هذه المدينة المقدسة بغرض أداء الفريضة. فهذا الحج ضروري جدا لأنه ركن من أركان الدين التطبيقية، ذلك أنه حسب حديث محمد، أن الشخص الذي يموت من غير القيام بهذا الفرض يعد مثل يهودي أو مسيحي ويعتبر واجبا دينيا خاصا، وقد أمر القرآن به صراحة على جميع أولئك الذين لهم قدرة كافية للقيام به.

ويحدثنا السيد «Tournefort»، أن هناك أربعة أماكن يلتقي فيهم الحجاج، وهي دمشق، والقاهرة، وبابليون، والزبير، ويلبس الحجاج ملابس خاصة ومحترمة، وتشمل إثنان من لفاف الصوف، واحدة في الوسط لتغطية عريتهم، والأخرى توضع فوق أكتافهم. وبهذا اللباس يدخلون الأرض المقدسة. وما داموا على هذا الحال من اللباس فلا يحق لهم لا الصيد ولا الكلام الفاحش، ربما يمكنهم أن يصيدوا السمك، وإن كانت هذه الوصية فيها إفراط شديد.

وخلال حجته على المرء أن يحافظ بشكل دائم عن كل ما يصدر منه من أقوال وأفعال، عليه أن يتجنب الخصام، ولغة السب والشتم عليه أن يبتعد عن كل حديث الخنا أو الفحش وتجارة الجنس وأن يوجه كل اهتمامه لعبادة الله والتقوى التي تعبد بها في حجته. فجميع القوافل التي أتت من بقاع الأراضي الإسلامية المختلفة، توحد إجراءاتها بطريقة مماثلة ذلك أنها تصل في نفس اليوم إلى رابية عرفات، والتي تبعد مسافة يوم واحد عن مكة، ويحتفل في هذه الرابية، ويتصور الحجاج أن الملاك ظهر أولا أمام الرسول، ونتيجة لذلك، أقام المسلمون أول مكان مقدس لهم في هذه البقعة.

بعد ذبح وتوزيع بعض الخرفان على الفقراء يتجهون نحو مكة، ومن هناك إلى المدينة لزيارة ضريح رسولهم، المكسو بستار فخم، والذي يرسل هنالك سنويا بأمر من الباب العالي، وهذا الستار يقوم بإعداده الحجاج، الذين يقدرون أصغر قطعة منه بأثر لا يمكن تقييمه.

ويبعث الباب العالي، أيضا، 500 سكوين، ومصحف قرآن مجلد بالذهب، وزرابي قيمة، وقطع أقمشة عديدة سوداء، تستعمل كستائر، وهي هدايا إلى مساجد مكة. وأجود جمل يمكن إيجاده واختياره لحمل مصحف القرآن، وعند عودته تعلق له أطواق من الورود، محمل بالدعاء وبطعام فاخر، ويعفى من العمل ما بقي له من العمر.

فالحجاج الذين أكملوا طوفان مكة سيكون لهم وقار وتقدير بقية حياتهم، ويصفح لهم عن كل خطيئة، وربما يرتكبون معاصي جديدة فلهم أمن سوء العاقبة.

ويقول السيد «Tournefort»، أنه طبقا للشريعة الإسلامية، فإنه لا يمكن الحكم عليهم بالموت، بل هم اشتهروا بعدم قابليتهم للفساد، وليس عليهم معابة ومتصنعين بالصلاح والتقوى في هذا العالم. وقد ورد عن بعض الهنود، استنادا إلى السيد تورن فورت أنهم يقلعون عيونهم بعد أن شاهدوا ما يسمونه بالبقاع المقدسة لمكة. ويزعمون انه بعد هذه النظرة فإن عيونهم لا تلوث مستقبلا برؤية متاع الدنيا.

الفصل 4

عبيد الجزائر

مهما ادعى المعتوهين فكريا أو المتحمسين من المرتزقة لصالح الرق، فإن ذلك منفر بشكل واضح ومعفون من حق الشفعة لحقوق الإنسان الطبيعية. هناك أدلة واضحة لا نزاع فيها لبقاء الهمجية في تلك الدول التي توافق وبشكل رسمي للمبدأ الشيطاني. ويبدو أن هناك ثلاث مراحل في تطور البشرية من مرحلة الفظاظة الوحشية إلى مرحلة الرق الحقيقي.

المرحلة الأولى، هي مرحلة أكل الإنسان لحم أخيه، بحيث أن أية قبيلة أو مجموعة من الناس تتعامل دون تمييز مع الميت وتقضي على ما تبقى من رفاقهم الأحياء.

المرحلة الثانية، هي مرحلة الضيم، التي مع أنه قد تم إعفاؤهم من أنياب الجشع الوحشي، إلا أنهم أرغموا على الإذعان لفقدان حريتهم.

المرحلة الثالثة، هي مرحلة عتق البشرية، وذلك عند ما انتشر العلم بشكل عام وعلمهم المبادئ الحقيقية للعدل والإنسانية، غير أن العلم الجليل للصالح العام يجب الاحتفاظ به للأجيال القادمة، ولهذا فإن العديد من الدول الحديثة العهد تتصور أنها متطورة بشكل فائق، غير أنه يبدو في الواقع قد بدأت توا تبرز من دولة وسطية بين البربرية والرق. فبالنسبة

لممارسة الرق لن نغضب على الجزائريين وحدهم، وإنما نقول أن ديوان بريطانيا العظمى يستحق التأنيب، على حد سواء. وقد زكى البريطانيون أنفسهم من هذه التجارة الخبيثة، ومنهم اتخذنا هذه الممارسة الممقوتة. وسميت الولايات المتحدة، بشكل مؤكد، أرض الحرية، التي امتلأت بأشباه البرابرة الذين استعبدوا رفاقهم من الكائنات الحية دون أدنى تحسر أو ندم، بأي وجه، إذن، يمكننا أن نعاتب مجموعة من البرابرة الذين ردوا على أعمالنا ردا حاسما وقاموا بمعاقبة مواطنينا ؟

ولنبين للعالم أننا قادرون على إلحاق العقاب، سواء كان ذلك، بالسب أو الشتم، أو بعمل مضاد ضد الأفارقة، ولكن كل ذلك سيكون تراجم بالتهم ويرتد علينا.

بعد هذه المقدمة، سنتجه إلى القيام بملاحظات قصيرة حول أسرى الجزائر، وكبداية، سنقدم تفاصيل خاصة لأسر سفينة «President»، حتى يتسنى للعامة أخذ فكرة عن قطاع طرق المحيط الأطلسي.

في الثالث والعشرين من أكتوبر عام 1793، وحوالي الساعة التاسعة صباحا، وبينما كان طاقم السفينة، «بريزدانت» يستعد للإبحار بعد ساعات قلائل نحو قادش، وهو الميناء المقصود، اكتشف مركب بحري صغير ذو ثلاث سوار، يحمل 16 مدفعا وبعلم أسباني، أنزل ذلك العلم فورا، ورفع الأمريكيون علمهم فورا، وأثناء ذلك، ساد نسيم خفيف، وكان وقت كاف قبل تبادل التحية بين الجانبين، وفي غضون اقتراب المركب

أطلق طلقة نارية على السفينة الأمريكية، وأنزل العلم الأسباني، وتقدمت مجموعة من الجند المسلحين بأسلحة خفيفة. وأمام هذه الحالة حاول الأمريكيون تأمين ملابسهم ونقودهم ومواد أخرى، أما القراصنة فقد صعدوا إلى السفينة ، ويقارب عددهم نحو 30 فردا، بعد أن اقترب مركبهم السفينة الأمريكية، وبأيديهم بنادق وسيوف. وبغضب شديد وصراخ لا يتصور، وهذا كله من أجل التأثير على الأمريكيين ليقتنعوا بجرأتهم الفائقة في الهجوم البحري.

وبينما كانوا على ظهر السفينة، سقطوا على الطاقم مثل الذئاب الجائعة التي خرجت من جحورها، ومزقوا جميع ملابسهم، وصعدوا بعنف شيء لا يتصور، ويرى كل واحد منهم أنه أحق في امتلاك الغنيمة لنفسه، وقد روى أحد الأمريكيين أنه أمسك بما لا يقل عن أربعة جزائريين حال صعودهم إلى السفينة، والذين رموه إلى الأسفل وجردوه من ملابسه تحت شكل عجيب أكثر هو الشراسة في الطبيعة البشرية، من خلال تزاحم وتهافت على نزع ملابسه بحدة وتضاربوا فيما بينهم، ففي تلك اللحظة يقوم أحدهم بتمزيقها والآخر ينتزعها منه وتكثر الحركة بينهم، حيث قام إثنان منهم بتمزيق سرواله قطعا قطعا بكل قواهما من أجل الحصول على أكبر نصيب لكل منهما، ونفس المشهد يتكرر وبوحشية على الأمريكيين الآخرين، وسرق كل ما هو موجود في داخل السفينة، وكسرت كل الصناديق، وأخذوا كل مادة يمكن حملها بطريقة جد وحشية، لا يمكن وصف ما جرى في أي بلد تحت السماء.

وبعد أن حملوا أنفسهم بالسلب، دفعوا بشدة كل الطاقم الأمريكي إلى مركبهم، في هذا الظرف من الإهانة والعرى تحت سيوفهم القصيرة. ومن يبدي منه تردد، يضرب ويركل نحو المركب، حيث ذلوا تحت أقدام هؤلاء المجرمين. نقل الطاقم إلى ظهر المركب، ثم عادت مجموعة أخرى من الطاقم مباشرة للتكفل بالسفينة الأمريكية.

وهنا تم تقديمهم إلى الرايس محمد، قائد المركب، فهو شخص هزيل تشمئز منه النفس، والذي كان جالسا على جلد خروف يدخن غليونه. ويرشف قهوته من طبق وضع أمامه. وليس من المفاجأة أن يكون مثل هذا التعيس على رأس قيادة القرصان، فهذه القرينة تظهر بلا شك تفاهة سياستهم البحرية. يبدو أنه تجاوز 100 سنة، ويبدو من خلال السن والعجز أنه لا يقوى على المشي، فيداه ترتجفان، وعيناه غارقتان بعمق في رأسه. ومن خلال هذا التعب الشديد يتصبب عرقا باستمرار. ويبدو، أيضا، من خلال وجهه الشاحب، لحيته الفضية اللامعة، ما عدا الطرق المملوءة بنقاط من القهوة، وهي خالية من لعاب ومن غير إرادة، وصوته لا يسمع إلا نادرا ويشبه في مظهره الخارجي، الناسك المسن، والذي اعتقل منذ 100 سنة

هذا هو الضابط والنموذج الجزائري لقيادة مركب. بعد اختفائهم بحب المفاجأة لهذه الشخصية المكرمة، وجهوا عنايتهم لوجهتهم الجديدة، التي استعرضوها بكل استغراب. فقد اكتظت هذه السفينة بال جزائري، وما ذا يمكن وصفه من هذا الخيال الخصب، هو البرغوث والقمل، والفحش، وكشط جلد الحوت. كل هذه الأشياء واقعة حقا

وعن النظافة فإن سطح السفينة يبقى بأوساخه، ويبدو أنهم يفضلون الوسخ على النظافة يستبدلون الألواح الخشبية الرقيقة للسفينة كطاولات للأكل. يتكون طعامهم من حبات الزيتون، والخبز، والزيت والخل، وعند انتهائهم من طعامهم يرمون ما تبقى منها من على السفينة إلى البحر. أما ما تبقى فيداس بالأقدام ليصبح قاذورات.

والآن، وبما أنهم قد ضمنوا الغنيمة، يقومون بإعداد فرح ومرح صاخبين، احتفالا بحادثة السفينة الغنيمة، وبعد طلي جانبي السفينة بدمها، عنده يختتمون الحفل بافتراس لحمها.

وبعد انتهاء هذا الحفل، يصفف الأسرى على ظهر السفينة. ثم تأتي مرحلة ثانية من نزع ملابسهم،للذين لم تنزع منهم ملابسهم في المرحلة الأولى، ويعوض لهم ببعض الملابس الممزقة القذرة، والتي رفضها طاقم السفينة لأنها مليئة بالقمل، وبأمر من الرايس محمد، ترمى جميع ملابس الأسرى في كومة، وتباع في مزاد علني يسند جزء من الوظيفة الشاقة في المركب إلى الأمريكيين. أما القراصنة فيقومون بحراسة غنيمتهم، وقفوا عند وصولهم المضيق، يبحثون عن غنيمة أخرى

شعر الأمريكيون بهالة عند عبورهم المضيق ورؤيتهم للقارة وكذا الخوف من لصوص البحر الذين لا زالوا يبحثون بنظاراتهم عن غنائم أخرى، مثلهم في ذلك مثل ثلة من السارقين العازمين بمهنتهم الخبيثة، يرجفون بالخوف من كل سفينة تبدو في الأفق ويقول الأمريكيون عن

هؤلاء القراصنة أنهم غير منظمين إطلاقا، وبحارة جبناء في العالم، ويؤكدون على أن أبسط قوة بحرية بريطانية منظمة قادرة على إلحاق هزيمة بهم أو محاصرتهم في أي جون.

تظهر الشجاعة الكبرى للجزائريين، عند بداية الاشتباك، وذلك، بسعيهم تخويف أعدائهم، مثل المتوحشين الأمريكيين، وذلك بصرخات شديدة ومرعبة.

في مساء نفس اليوم الذي أسرت فيه السفينة الأمريكية وقعوا فرغاطة أمريكية، عنده طلب من الأمريكيين النزول إلى الأسفل، وفي اليوم الثاني وقعوا مع مركب تجاري بريطاني، والذي سبق وأن التقوا معه، وطلبوا منهم قائمة أسراهم في الميناء الذي يرسون فيه، وعند مرورهم بالمضيق الذي يجتازونه باستمرار، طلب الانجليز الصعود لتفتيش السفينة، لكن عددهم القليل حال دون ذلك، نظرا لكثرة الجزائريين الذين منعوهم من الصعود، وأمروا الأسرى بالنزول إلى المصراع الأسفل لباب السفينة لإخفائهم.

وفي 30 أكتوبر وصلوا الجزائر، ونقلوا إلى الشاطئ حيث سقيفة وكيل الحرج، وكان في انتظارهم رئيس موظفي الداي، الذي قادهم إلى قصر الداي، وخصص لهم مسكن في فناء خارجي، والذي كان دكان حداد ، وهنا تناولوا طعام الكسكس، وبعد قضاء ليلة على بعض أكياس من قصل، طلب منهم الذهاب إلى سجن البايلك.

لقد انتزع من طاقم السفينة الأمريكية عند القبض عليهم، كامل ملابسهم، وقدم لهم مقابل ذلك، قطعة من الملابس الرثة واثنان من السراويل الخشنة، التي لا تصل سوى الركبتين. اشتغلوا عدة أشهر بهذه الكسوة الكئيبة، والتي لم تكن كافية لحمايتهم من أشعة الشمس المحرقة لمدة طويلة، حتى تلقوا من الولايات المتحدة قبعات وحلة من الثياب الزرقاء، التي أرسلت لهم من أليكانت من قبل السيد «Montgomery»، القنصل الأمريكي، الذي كان يمدهم بذلك سنويا وهم في هذه الحالة التعيسة، كما كانوا يزودون بمال، الذي أودعه أيضا السيد «David Humphreys»، بأليكانت، ونقل إلى القنصل السويدي بالجزائر، ويسحب الضباط الأمريكيون كل شهر مبلغا ماليا باسمه، ويوزع عليهم بالأقساط، حيث تمنح علاوة 6 دولارات لكل وكيل ربان سفينة، وكل قبطان 8 دولارات شهريا، أما العبيد الخاص فيمنح 3 دولارات و 75 سنتا، وهو مبلغ ضئيل وغير عادل، إذ هناك تمييز بين الأسرى ، خاصة إذا ما علمنا أن العبيد الخاص يعمل عملا شاقا أكثر بكثير من عمل وكيل الربان أو القبطان.

تحسنت وضعيتهم وأصبحوا أقل شقاء وعناء، ومن ثم استطاعوا أن ينالوا وجبة أفضل مع اللحم كل ليلة بدلا من الخبز الأسود والزيت وهو ما يتناولونه يوميا في السابق. وما تجب الإشارة هنا هو أنه لا توجد دولة تزود مواطنيها المستعبدون سوى الولايات المتحدة ونتيجة لذلك يطلق عليهم الأتراك اسم السادة، كافاليرو، بالتركية. يتميز كل عبد تابع لدولة بحلقة حديدي حول رسغ قدمه، والتي كانت دائما علامة واضحة أنه تابع لدولة ولا

يستطيع أحد من الأتراك إيذاءه أو إهانته بسبب الحصانة، غير أن هذه السمة لا تمنح للعبيد الخواص، ويثبت هذا الخاتم بحلقة من حلقات سلسلة طويلة، والتي تربط حول أجسامهم لمنعهم من الفرار عند ما ترسو سفن أجنبية في الميناء.

وعند ما تكون هناك فدية عامة للعبيد فلا فرق في السعر بين الضباط والأشخاص العاديون، أما في حالة الفدية الخاصة ، فإن الداي يطلب 4.000 دولار عن كل ضابط ووكيل الربان، و2.000 دولار عن كل عبيد خاص. كما يتم دفع الأموال المستحقة عن كل عبيد يموت بعد إبرام معاهدات، وقد تحصل الداي على المبالغ المالية المطلوبة عن جميع الأسرى الأمريكيين الذين ماتوا بعد 5 سبتمبر 1795. *

وعند ما يلقي القرصان القبض على الأسرى ينقلونهم إلى قصر الداي، حيث يجتمع القناصل الأوربيون ليعرفوا إن كان ضمن الأسرى أفرد من بلدانهم، التي هي في سلام مع الجزائر، وفي تلك الحالة يطلبونهم على أنهم مجرد مسافرين على تلك السفن، أما إن كانوا يعملون على ظهر هذه السفن لأي دولة هي في حرب مع هذه الإيالة، فإنه لا يمكنهم تسريحهم إلا بعد دفع ثمن الفدية كاملا.

كان الدايات السابقون لا يختارون سوى ثمن العبيد، وعادة ما يختارون الضباط، والأطباء، والنجارين وذوي المنفعة العامة والتابعين لغنائم عديدة، إلى جانب الأشخاص من النوع الرفيع، تحسبا لفدية عالية، غير أنه في الوقت الراهن يبدو أن الداي له الحق في اختيار العدد الذي يظن أنه ملائم في اختياره، ثم أنه غالبا ما يستخدم هؤلاء العبيد الذين

* أخطأ المؤلف بأن ذكر سنة 1796، والحقيقة 1795. المترجم. أو خطأ مطبعي.

يختارهم في مهمات خسيسة داخل القصر وحوله. كما أنه مخول باختيار السفن المأسورة وحمولاتها، وعادة ما يتلقى الرايس أو الضباط، إلى جانب أجرتهم الشهرية، علاوة خاصة، أو تعويض زائد من الداي عن كل سفينة مأسورة.

أما البقية من العبيد فيرسلون إلى الخدمة العمومية. لكنهم إن استطاعوا تحصيل قليل من المال من أصدقائهم، أو أن يستدينوا من اليهود مقابل فوائد فاحشة، يسمح لهم بإدارة حانات، ويدفعون إلى الداي مقابل ذلك ضريبة مناسبة مقابل بيعهم الخمر، وبدون شك، فإن هذه الفائدة والضريبة، قام بتسييرها العديد من الأجراء تسييرا حسنا مما زاد من مداخلهم وجعلهم يشترون حريتهم، وأن يدخروا ما فيه الكفاية، ويستثمروه في أمور أخرى بكل حرية.

وإلى هذه الحانات يلجأ الأتراك، والمسيحيون والمور بشكل مختلط. لكن لا يحق لمسلم أن يملك أو يسير هذا النوع من الحانات لنفسه. وعليه يحق للمسيحيين واليهود بذلك، ولقيم الحانة تفويض، رغم أنه عبد أن يجرد أي من زبائنه، وحتى الأتراك أنفسهم إن رفضوا تسديد ما عليهم من مستحقات للحانة، والقيم له تفويض من الداي ومحمي من طرفه. فظروف العبيد أولئك التابعين للخواص تعتمد إلى حد كبير على موقف سيدهم، وعلى سلوك العبيد أنفسهم. فالبعض منهم على ما يرام بالعاصمة، أكثر بكثير مما هم عليه في بلدانهم الخاصة، وإن كانوا على ما

يرام في كل شيء، فإن ذلك راجع إلى معاملتهم على أنهم رفقاء بدلا من المستخدمين. إلى جانب ذلك. هناك العديد من أسياد العبيد أكثر وحشية. ويعاملون عبيدهم بقسوة. فالشخصيات التي يتوقع فديتهم بمبالغ كبيرة تتعرض هي أيضا لمعاملة وحشية . بل تجبر على فدية نفسها بثمن غير عادي.

ترسل زوجات العبيد إلى «Seraglio»، الداي. حيث يصبحن زوجات غير شرعيات «خليلات» أو يخضعن لأعمال منزلية. إلا إذا توقع فدية معتبرة لهن. إما إذا كانت يافعات يتم بيعهن للغرض ذاته.

لم يقم الأتراك بإجبار أو محاولة أي مسيحي أو العبيد بتغيير دينهم، ذلك أنه ليس من مصلحتهم اعتناق دينهم. وإن أسلموا فإنهم يفقدون الاستفادة من فديتهم. فالمسيحيون الأحرار، هم الذين يتعرضون لسوء المعاملة أكثر من العبيد ، لأن المتغطرسين الأتراك يقومون بإهانتهم ويعتدون عليهم، غير أنهم لا يستطيعون القيام بذلك مع العبيد. لأن أسيادهم يستاؤون من ذلك ويطالبون بتعويض كاف.

فالعبيد الذين يباعون داخل البلاد يخضعون لأعمال شاقة وغير معهودة. فهم ملزمون بنقل كل أنواع الأعباء إلى السوق، وإن لم يقدموا خدمة كافية للمواد التي عهد إليهم بالاعتناء بها، فإنهم بالتأكيد سيضربون، فالبعض من هؤلاء العبيد يمشي في حقول حافي القدمين

حيث يدعى أنهم وجدوا حصوات [illegible]

شاق.

وقد أورد الحديث عن سبعة عبيد مصريين [illegible]

مجانين. ومقيدين من رجل واحدة ويجعلون [illegible]

ويضربون بجلد بقري. وعندما يخرجون في [illegible]

تحت الأرض يسحبون [illegible]

الآن فلا يودعون في مثل هذه [illegible]

وقتل خصيهم. وتحرير [illegible]

وفيما كان الأسرى الأمريكيون مستعبدين في الجزائر [illegible] غيبا من مقالات كثيرة تتعلق بقسوة كريهة وقد ورد بعض أنه قطعت ألسنة البعض منهم. وأن البعض الآخر تم خصيه. وقيل أن القبطان Lawrence، قائد سفينة Packet Hull، صرح أنه تحصل على معلوماته هذه في قادش.

أخبرنا أن الأمريكيين حلقت رؤوسهم تماما. ولم يسمح لهم بتغطية رؤوسهم بأي نوع من أنواع التغطية. فرزاياهم، في الواقع، ليس لها ما يماثلها، لكن الروايات السابقة أعلاه غير مؤسسة إطلاقا. فتعاستهم الكبرى في كدحهم تتمثل أساسا في نقل أجزاء من الصخور من باب الوادي، كما ذكر سابقا، وقد وجد عن طريق خبرات متكررة، أن الجزء

الأكبر من هذه الحجارة، أنها هي الحواجز المانعة فعلا ضد أمواج البحر، وعليه فإن الفن الكبير للعبيد أنهم يقومون بتفجيرها، أي الحجارة، تتكون من نقبها بهذه الطريقة ، ذلك أن انفجارا من بارود المتفجرات سيحدث حمى لكتلة صخرية كبيرة.

وعليه فإن الثقب التي تخرق داخل الصخور تزداد اتساعا أحيانا، في العمق لتصل 20 قدما. بعدها تشد بالحبال تلك الأجزاء الضخمة وذات قوة كافية لجرها، بعد هذه العملية، يقوم 300 أو 400 عبد وأحيانا عدد أكبر يقومون بدحرجة أحد هذه الحجارة فوق عربة أو عربة ذات أربع عجلات. من أجل نقلها إلى المرفأ. وأثناء هذه العملية يقوم الأتراك بأصوات مرعبة، ليس فقط أثناء نقل هذه الحجارة، بل عند نقل أي شيء ثقيل، والذي يتطلب عددا كبيرا من الأيدي. ويبدو أنهم يعتقدون أن صياحهم الأكبر، سيولد إرادة أقوى لدى العبيد أو الكادحين . ومن عديم الأهمية أو الشأن كيف يسير العمل، وفي ظنهم أن الأصوات الصاخبة ستؤدي إلى نتيجة، ويسمع هذا الصياح على مسافة فرسخ. وعندما يقذفون بكتل من الأحجار الغير المعروفة وزنا، على عربات النقل، فإن الكوابل تثبت عليها، ويجبرون العبيد على القيام بأربعة صفوف متتالية، والتي تشبه إلى حد كبير الحيوانات الناقلة للأعباء، لجرها من الجبل إلى المدينة.كما يجبرون أثناء سيرهم أن يصعدوا رابية شديدة الانحدار، بحيث لا تكفي طاقتهم

بالقيام بذلك، أحيانا، لجر هذا الثقل الضخم. فقسوة عنائهم الوصول إلى قمة هذه الرابية شيء لا يتصور تصديقه، فالشمس تصب عليهم حرارة لا تطاق، ويبللون عرقا، وهم في غيوم من الغبار عند مرورهم بذلك المسلك. وهكذا أصبح العديد منهم مستنفذ بسبب شقائهم. ولاستكمال منتهى معاناتهم، فإن وحشية مراقبيهم وحراسهم وضربهم بالسوط لأدنى تكاسل أو إهمال بقسوة وحشية لا نظير لها.

وعند صعودهم إلى الرابية. فإنه من الضروري قلب الحبال. ويبذل اقصى جهد لمنع سقوط العربة من الرابية وذلك بسرعة فائقة. وهذا يعد جهد كبير وصعوبة لا توصف.. حيث ينقلون هذه الأحجار إلى رصيف الميناء، أين تربض السفن. حيث يبعد الميناء عن الجبل مسافة فرسخ. وترمى الأحجار من أسوار المدينة. وهنا تحمل إلى نهايته. وذلك عن طريق الدواليب ونوع من الزلوجة. التي تنزل على قطع دهنية من الخشب الغليظ. وتدفع إلى المرفأ.

فهذه القواعد أو المقعدات ضرورية لأن ضيق الشوارع يجعل مرور هذه الأحجار الضخمة وسط المدينة لا يخدم الغرض المقصود منه. فهي نوع من قطع سفن مقعرة ومسطحة والتي تغطي ماء كثير يساوي سفينة ذات 74 مدفع، ولها ميخاف منخفض. وقطع مستطيلة من الخشب تسمر على امتداد السطح. لمنع الضغط الكبير للحجارة من إحداث ضرر بألواح السفينة. وغالبا ما تحمل ثلاثة أو أربعة أحجار من الحجم الضخم، مع

أحجار أخرى صغيرة الحجم، والتي توزع على أجزاء مختلفة من سطح المركب.

تنقل هذه القواعد بحريا، وتشدد بالمرساة والكوابل، وتحتاج في وضعها على المركب إلى خمسين أو ستين عبدا لوضعها في مكانها الصحيح. وبواسطة الكوابل والمرساة، التي غالبا ما تكون في مقدمة المركب عند الضرورة، فتربط هذه القواعد بالمرفأ ويديرون هذه القواعد نحو المرفأ ويقعون في خطر كبير أثناء مرورهم من شدة رياح العاصفة المفاجئة، التي تبعدهم من البحر إلى الشاطئ، وعند حدوث ذلك يتبعه حنق كبير لا يتصور ويرتفع ضجيج الأتراك وكأن المدينة واقعة على شفا هاوية. وتفرغ الأحجار في المرفأ عن طريق «سكاي لير» وهو نوع من أدكة، يشبه مصراع طاولة، يلقى من مؤخر القاعدة ويسقط بواسطة دواليب. ومن هنا فإن الأحجار توضع بشكل متواتر، وذلك بقضبان حديدية كبيرة، توضع على أجزاء من المرفأ حيث يؤثر الجر تأثيرا كبيرا هكذا استمر الأتراك السخفاء في مثل هذا العمل العقيم لأزيد من 250 سنة من غير أن يعرفوا كيف يقيمون سدا منيعا يدافع عن المرفأ من عنف الأمواج. غير أنه قيل أن الداي الحالي له مثل هذا المشروع في طريق الإنجاز في فترة قصيرة. فالاندفاع الشديد للبحر لازال قائما يتجه نحو ردم الأحجار في الرمل. فرياح شرقية أو مشرقية كما يسمونها ستدحرج البحر الهائج إلى الميناء. وعليه فإنه في خلال ثلاثة أو أربعة أيام فإن

الميناء سيزول في فصل كامل. فالبحر في مثل هذه الأوقات يرتد بعنف كبير على المرفأ، وأنه حتى جدران المخازن لا تكون في منأى عن الهدم.

تستعمل قاعدتين وعربتين مع مجموعة من الأسرى لكل منهما، لنقل هذه الأحجار، وعادة ما تقوم العربتين بهذه الأثقال مرتين في اليوم

كما يشغل العديد من الأسرى في أماكن أخرى من البلاد، فالبعض منهم بجبل بوزريعة، والبعض في حدائق مختلفة للقناصل. المقيمين في الريف والآخرون في البحرية، أما في يوم الجمعة فيؤمرون بالعمل في باب الوادي، حيث يكون في انتظارهم كلا من وكيل الحرج، وقيم الباشا، وفي مثل هذه الأيام ، هناك اختيار، بصفة عامة، لجميع الأسرى و بعد الانتهاء من عملهم اليومي يعادون جميعا إلى المدينة حيث إقامتهم المشتركة في السجون، التي تغلق عليهم كل ليلة، ويمنعون من كل اتصال بالمواطنين. أما العبيد الخاص فعكس ذلك، وعلى أي حال فقد حرموا من هذا الامتياز، ويسمح للعبيد الخاص بالتجوال في الشوارع ليلا، ويمتثلون للعادة المشترك الخاصة بحمل مصابيح معهم، وبدونها فإن كل شخص منهم معرض للقبض عليه من حراس المدينة والضرب بالفلقة.

والهدف الرئيسي للعبيد في السجون هو أن يغرقوا في التفكير بوضعيتهم التعيسة، لكن البعض منهم، عند ما يكون لهم وقت للراحة، يستغلونه في مهنهم من أجل كسب نصيب من المال. فالدراسة الرئيسية للأمريكيين القائمين بالفكاهة،تقوم على تبديد الغيوم عن رفاقهم وإثارة مشاعر أحدهم ليضحك بسخرية وإبداء ملاحظات تهكمية عن حالتهم.

والبعض الآخر منهم يؤدي كمنجة، وعادة ما يتم ذلك بعد العناء اليومي، فهم يريدون إلهاء أنفسهم كل الليل بالرقص، وشرب الخمر، وأداء الغناء، والقصد في ذلك كله هو إبعاد أنفسهم من التفكير في العبودية التي هم فيها. وغالبا ما يكونون لجاجون في مزحهم ويقطعون راحة السجن، مما يجعل المقيمين في السجن يشتكون منهم إلى حارس السجن الذي يتخذ، أحيانا، إجراءات صارمة ضدهم،وذلك بإجبارهم عن التوقف عن مرحهم والانسحاب إلى الراحة.

ينهض أسرى السجون في الساعة الأولى من الصباح، ويتجهون إلى عملهم وقلوبهم حزينة وخطواتهم مترددة. وعند ما يعملون في البحرية يعودون كل صباح إلى المكان القريب من باب الجزيرة المفتوح في تجاه الميناء، حيث يتم استعراضهم في صفوف على امتداد أرصفة المنازل من كل جانب للشارع. وهنا ينتظرون وصول وكيل الحرج، الذي سرعان ما يظهر، وعند مروره بينهم، فهم ملزمون على نزع قبعاتهم احتراما له، وبعده مباشرة يتشكل موكب العبيد، وبينما هو جالس في سقيفته، وإذا ببوق يعلى صوته من البحرية، بعدها يصعدون على ظهر مراكب البايلك، التي أعدت خصيصا لذلك الغرض، وينقلون إلى السفن الطوافة المتمركزة في أجزاء مختلفة من الميناء.

فعمل البحرية أقل تعبا، بالنسبة للعبيد، لكنه حتى هنا يخضعون في وقت ما إلى أعمال شاقة، خاصة عند ما يكون هناك استعداد لحملة قرصانية، وفي هذا الظرف يجبرون على العمل ليلا للقيام بالتحضيرات الضرورية للطواف. ويضاء الشاطئ بمصابيح، ويتمركز حراس الأتراك عند المرفأ، وفي أجزاء أخرى لمنع هروبهم.

يتكون طعامهم من الخبز، والزيتون والخل، ويوزع على كل شخص رغيفين صغيرين في حدود نصف رطل لكل منهم، وقليل من الزيت في اليوم.

تحضر هذه المواد إلى باب الوادي عن طريق سائقي البغال، الذين يشغلون يوميا في نقل هذه المؤن إلى العبيد.

يعد الخبز من أسوأ نوعية، يطحن دقيقه في مطاحن المدينة التي تدار بالفرسان. فإلى جانب الوظيفة العامة لسائقي البغال، يقومون بنقل الكلس إلى المدينة من قمين الجبر في الريف، لغرض البناء وطلي المنازل بالكلس الأبيض.فكل مريض من بين العبيد والغير القادر على العمل يرسل إلى المستشفى المقابل لسجن البايلك، الذي يتسع لاستقبال 50 مريضا. وتدعم هذه المؤسسة ماليا من قبل الدولة الاسبانية ، وتحت إدارة طبيب وثلاثة قسيسين أسبان وهم مزودون بأسرة، ومؤن ولحم بقر وخبز، وتوصف لهم أدوية حسب أمراضهم العديدة. وقد خصصت الغرف العليا من هذا المستشفى لمرضى الطاعون، أما السفلى فهي مخصصة لأولئك المصابين باضطرابات أخرى.

قيل أن هذا الدعم المالي للمستشفى يكلف الدولة الاسبانية 40.000 دولار سنويا، والتي تحول سنويا إلى الجزائر، قصد هذا العمل الخيري.

وقد ورد أن الضباط والأفراد الآخرون من الأسرى الأمريكيين يعاملون بقسوة متساوية، لكن ذلك كان غلطة. لم يخضع لا الضباط ولا ربان البحرية الأمريكية لعمل يقوم به العبيد، بل يوظفون في غرفة الإقلاع

للقيام بالإبحار أو يرسلون أحيانا. بعد العصر إلى الحضور للقوارب الفارغة. فهذا هو العمل الروتيني المخصص للضباط وربان السفن. أما البحارة فهم يستعملون دون تمييز في كل نوع من العمل.

ويمتاز الأمريكيون بصفات حميدة وسط عبيد الجزائر. ويمكن للأغلبية منهم أن يحصل على سلفة في السجون مقابل الخمر وأنواع أخرى من المسكرات. فهذه الميزة لم تمنح لا للأتراك ولا للأهالي، والذين غالبا ما يحترس أصحاب الحانات بمراقبتهم، وبطريقة أخرى، يمكن أن ينسحبوا من غير أن يدفعوا مقابل ما شربوه من الخمر. فمعظم المشاغبين العبيد هم أسبان، الذين يتعاركون باستمرار ليلا، ويتقاتلون بالخناجر في السجون، حتى أنه في بعض الأوقات يتدخل وكيل عريف لتسوية الفوضى بينهم بحبل قصير مع عقدة في النهاية، أو يربطهم بسلاسل حتى الصباح.

فالعبيد الذين تصدر في حقهم عقوبة الإعدام، غالبا ما تنفذ في فوارة مقابل قصر الداي، حيث ينتظر الجلادون الأتراك.

يطلب من المجرم أن يركع على ركبتيه، عندها يمسكه أحد الأتراك من الجزء الخلفي لرأسه، وعند ما يدور المجرم ليرى ما هو الأمر، يقطع تركي آخر رأسه في نفس اللحظة بسيف حاد ليفصله عن كتفه.

بعد تنفيذ الحكم، ينظف الدم بدفعه إلى مجرى القاذورات، ويدفن جسمه في الرمل قرب شاطئ البحر، ولأنه لاحق لهم في الدفن بالطريقة المحمدية أو الإسلامية.

[illegible]

فالعبيد الأمريكان [illegible] يتجمعون [illegible]

ولهم لياقة واحتشام في سلوكهم [illegible]

قاسية ورائحة مقابل إهمال [illegible] التي [illegible]

المعتادين على التمتع بحرياتهم.

وقد حرروا رسالة، مباشرة بعد وصولهم الجزائر إلى العقيد دافيد همفريز «David Humphreys»، المقيم في مدريد، والتي أجاب عنها في وقتها. وبما أن هذه المراسلة تعطي بعض التفاصيل التي لم ترد سابقا. سنختم هذا الفصل بإدراجها هنا.

رسالة من كل الضباط الأمريكيين الأسرى، إلى العقيد دافيد همفريز.

الجزائر في 29 ديسمبر 1793

نحن الموقعون، باسمنا وباسم إخواننا الأشقياء، الذين هم أسرى في الوقت الراهن في مدينة البؤس الإنساني، نرد لكم شكرنا الخالص لمراسلتكم المؤرخة في 29 من الشهر الماضي. وإلى المئونة التي تفضلتم بها للتخفيف من معاناتنا في وضعيتنا الحالية.

لقد كتبنا ووقعنا عريضتين، واحدة إلى مجلس الشيوخ، والأخرى إلى مجلس النواب، ونأمل أن تقدم لنا هذه الخدمة ، وذلك بإرسال هاتين العريضتين إلى عنوانهما بالتوالي، وعليه لا زال الوقت حتى الآن، وربما تقدمان هاتين العريضتين أمام ممثلي بلادنا، آملين أن الولايات المتحدة ستوفر المبالغ المالية بكاملها لتخلصنا من العبودية والعودة بنا إلى بلدنا، وأسرنا، وأصدقاءنا وأقاربنا.

اطلعنا بعناية وشعور الرضا والاستحسان، مذكرتكم إلى إيالة الجزائر، ولا حظنا أن مضمونها يتجاوب مع شعورنا في هذه المهمة، والتي نثق بقدرة الله القادر، والتي ستنتهي بالشرف ومصلحة بلادنا المشتركة، على الرغم من تدسدس «الآخرون في هذه الجهة» والتكالب على الولايات المتحدة.

لنا ثقة ، وأمل ، أن الولايات المتحدة ستتبنى مثل هذه الخطط العملية، من أجل تجنب حدوث ما لا تحمد عقباه لإخواننا وسيشاركوننا في هذا الشقاء الذي نحن فيه، والذي يجب ألا يحدث، وذلك إذا لم توضع وسائل سريعة في التنفيذ، وحسب معلوماتنا فإن البرتغال سيبرم هدنة مع هذه الإيالة لمدة سنة.

وما قلص من معنوياتنا نوعا ما، أننا علمنا أن الطاعون، الوباء المميت، قد ظهرت علاماته في المنطقة المجاورة، وبما أن مواطنوكم السوء الحظ يحبسون أثناء الليل في سجون العبيد، مع 600 عبد من دول أخرى، ومن كثرة اكتظاظنا فإننا معرضون لهذا الوباء المعدي، والذي يستوجب الموقعون أن يتوسلوا إليكم، سيدي، أنه في هذه الحالة، فإنَّ أصدقاءنا، وأصحاب النفوذ في هذه الإيالة، سيفوضون من قبلكم، وشرف بلادنا، فإن السيدين، «Charmicheal» و«Short»، قد قاما بإسكان الضباط وربان السفن الأمريكية، وأننا نسألكم إن أمكن إسكان البحارة لوقايتهم من العاصفة المهددة بالموت والخطر القادم.

ليس لنا شك في ذلك. غير أنه في حالة غضب الله وزار الطاعون مدينة الحيف هذه، وبدون شك. فإن الداي والإيالة سيوافقان من غير معارضة علنية ومن غير موافقة قلبية لحظة الاقتراح الإنساني، والذي سيكون نموذجا عالميا للرفاهة البشرية، وستتذكرها الأجيال القادمة للشرف الأبدي الأمريكي تجاه مواطنيه.

وفي نفس الوقت، لنا الشرف سيدي، لكم ولأصدقائكم، أن نؤكد لكم، ولجبر خاطركم، أننا نحن الأسرى الأمريكيون في مدينة الرق والعبودية، سنتحمل شقاؤنا بكل رباطة الجأش، وتسليم بالأمر المقدر، لأننا من جنس وهب أرواحه من أجل الوطن.

إننّا مدينون كثيرا للسيد «Skjoldbrand»، وأخوه، قنصل جلالة ملك السويد، في هذه المدينة، لأعمالهما الإنسانية، واهتمامهما بالأسرى الأمريكيين، ونشعر أننا مدينون لكم أيضا أنكم أوصيتم بنا إلى النيات الطيبة للقنصلين «Skjoldbrand»، و«Mace»، اللذان أشرت إلينا أنهم أصدقاء.

نعرب لكم عن جزيل امتناننا وعميق احترامنا لكم، تفضلوا بقبول أصدق التحيات. نحن الموقعون باسمنا وباسم إخواننا المتألمين. عنهم ريتشارد Richard.

وهذه قائمة الضباط الموقعين.

Richard O'Brien	1785
Isaac Stephens	do
James Taylor	1793
William Wallace	do
Samuel Calder	do
William Penrose	do
Timothy Newman	do
Moses Morse	do
Joseph Ingraham	do
Micheal Smith	do
WilliamFurnass	do
John Burnham	do
John M'Shane	do

ختمت الرسالة، بالعبارة التالية : إلى السيد دافيد همفريز، المحترم إلى القبطان، أو براين، والضباط الآخرون للولايات المتحدة، هم أسرى الآن بالجزائر.

مدريد، 12 جانفي 1794.

تفضلت باستلام رسالتكم المشتركة، بتاريخ 22 ديسمبر، وبما أني كنت على سفر إلى لشبونة، فإني سأعمل شيء فيما يخص رسالتكم، التي وجهتموها إلى المجلسين، النواب والشيوخ، للولايات المتحدة سأحولهما إليهما في أقرب وقت وأسرع وسيلة ممكنة.

لقد اتصلت بالسيد كار مايكل والسيد شورت وأن تخوفكم من الطاعون قد يعود إلى الجزائر مرة ثانية، من المنطقة المجاورة، والذي قيل أنه انتشر، فأنا متعاطف معكم، وإن عاد الطاعون فمن الأفضل لكم أن تؤجروا دارا في الريف، من أجل الاحتياط من هذا الداء الخبيث وألا تسقطوا ضحايا. ولأجل ذلك فقد زودت السيد «Robert Montogomery»، قنصل الولايات المتحدة بأليكانت، في حالة حدوث ذلك، أن يزودكم بمال وافٍ لكراء دار، بالطريقة التي اقترحتموها. فهذه تسوية مؤقتة للاستمرار بقوة، حتى يتلقى السيد مونتوقومري تعليمات فيما بعد من حكومة الولايات المتحدة، لاستمرار هذه المساعدة أو وقفها.

أتوسل إليكم أن تقتنعوا، يا أعزائي ويا أهل بلدي التعساء، أنني قد تلقيت بصدر رحب الملاحظات التي أبديتموها لي في رسالتكم، وهي ملاحظات الإخلاص، لكني قمت بخدمات لصالحكم ولم تثمر، فليعلم الله أن هذه الخدمات كانت صادقة ومن غير مصلحة.

بقي لي أن أكرر لكم، أنكم في كل الوقت وفي كل المناسبات، كان لكم اعتبار وتقدير.

وتقدير من صديقكم الحقيقي، وحبيب المواطنين الأصدقاء، د. همفريز.

ملاحظة:برغم أنني كررت بشكل ملحوظ، أنه من الممكن «لأسباب خاصة» من غير الصواب لي أن أبقى على اتصال معكم، غير أنه من المفيد أن أضيف أنني سأكون دائما سعيدا أن أسمع منكم، وأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلدنا ، أن تتلقى في أقرب الآجال، كل المعلومات الهامة، وعندها سأكون جاهزا بإرسال مثل هذه المعلومات، وإلى وقت قريب، وإقامة قناة اتصال أفضل.

الفصل 5

نوادر خاصة، ووقائع وملاحظات عرضية، تلقي الضوء الإضافي على تاريخ وعادات وسلوك الجزائريين.

إنه من المستحيل لأي عبد أن يفر من الجزائر: لأنه إذا اكتشفه الأهالي يقبض عليه ويعاد إلى المدينة، حيث يتلقون مكافأة لأتعابهم.

أما الذين باستطاعتهم الوصول إلى السفن الفرنسية والبريطانية فإنهم ينالون حريتهم، ولا يقدم أي طلب إلى قادة هذه السفن بشأن إعادتهم، ومتى رست السفن الأجنبية في الميناء فإن جميع العبيد العاملين في الميناء مجبرون على وضع سلاسل ثقيلة في أرجلهم. لكن العديد منهم هرب بالسباحة، لذلك أصبح الجزائريون أكثر حذرا، ومن ثم فإنه أصبح متعذرا الآن الفرار.

محاولة هروب خمسة عشر عبداً

بينما كان الأسرى الأمريكيون يعملون في باب الوادي، دبرت خطة بين 15 أسيرا من جنوة، والبرتغال، ونابولي للقيام بالهروب في واحد من القوارب المتواجدة في المرفأ كانت هذه الخطة في تهيج لعدة أسابيع، وفي نفس الوقت أعدوا أنفسهم وبأسلحة الدفاع وكل المواد الضرورية لسفرهم. وفي حدود الساعة التاسعة صباحا من يوم حار ، وفي شهر رمضان، وبينما كان حارس المرفا نائما ، قام هؤلاء الأسرى الخمسة

عشرة وبكلمة سر من مسئوليهم، قفزوا إلى القارب، الواقع بالقرب من المرفأ، وأدخلوه في الماء فورا، وإذا بمتولي شئون بحارة السير في المراكب يوقظ حارس المرفأ، الذي تعجب عند ما رآهم بهذا الوزن، فناداهم بغضب شديد بالعودة، وإذا ببرتغالي يلوح بسيف مجرد من غمده بالتحدي، ويطلق الطاقم ثلاث صيحات عالية استحسانا بالظفر، قاموا بعملية الجذف بكل قواهم تجاه الساحل الاسباني، ومن شدة الخوف، نتيجة هذا الإهمال، فر حارس المرفأ هاربا ومتجها نحو الجامع الكبير الواقع خارج البلدة، ومباشرة، وبعد إعلان الخبر للداي، أمر رجاله ان يتمركزوا في الأعالي مع تلسكوبات صغيرة، ليعرفوا الطريق الذي سلكوه، وفي نفس الوقت أعطيت أوامر إلى سفينة من صنع اسباني لأن تستعد لملاحقة الفارين، والتي توجد، وبشكل دائم، عند وكيل الحرج، الذي قادها ومعه جذافون من بسكرة، وبهذا أمكن ملاحقتهم في وقت قريب وسريع. غير أن القارب الهارب قد اختفى عن الأنظار، إلا ان البساكرة وجهوا سيرهم نحو قسم من الأطلسي حيث اختفوا هنالك.

طلب وكيل الحرج من الجذافين أن يسرعوا أكثر وكان يرمي لهم قطعا نقدية من حين لآخر لتشجيعهم أن يزيدوا من سرعتهم، قاموا بجهد أكثر حتى لحقوا بالفارين، الذين استنفدوا قواهم تماما في مسعاهم للفرار. فلم يستطيعوا القيام بالجذف وقد استسلموا دون أدنى مقاومة بعد وصول ملاحقيهم، وسلموا أنفسهم لغضب تابعيهم، الذين نكلوا بهم ضربا من غير شفقة، وقيدوهم بسلاسل وأعادوهم إلى المدينة حيث وصلوا في حدود الرابعة بعد الظهر.

نقلوا مباشرة، بعد ذلك، أمام الداي، الذي أمر بتنفيذ حكم الإعدام في شخصين رئيسيين، مدبر بري عملية الهروب، والباقي وجهوا نحو الفوارة الموجودة أمام قصر الداي، حيث جلسوا على ركبتهم، وقام أحد حراس الداي بقطع رؤوسهم عن أجسادهم.

لاحظ الداي أن عددا كبيرا من الأسرى يركبون السفن، وتظاهر انه لن يرسل في ملاحقاتهم، غير أنه لا حظ أن هناك عدد قليل منهم يملك نفسه بنفسه. بإمكان أحد أن يتهمهم ، بالطبع، ضمنا بمشاركتهم في الهروب مع عدد قليل، لكن علينا أن نفكر مليا في الصعوبة الكبرى والخطيرة في استشفاف الهروب هذا، فحتى نسيم البلاد يبدو وكأنه يوحي بمبادئ الرذيلة والخداع.

فنادرا ما تتم خطة هروب من غير أن تكتشف. فهناك العديد من عديمي الضمير من الأسرى هنا، الذين لا يشعرون بتحسر مهما كان الأمر، بأن يخبروا بأصدقائهم الحميمين الفارين مقابل قدر طفيف من المال

تم الإعفاء عن حارس المرفأ بعد هذه الحادثة، إذ فقد المحبة الملكية، وابعد من منصبه، ومن ثم ضربت حراسة مشددة على المرفأ، إذ يستحيل الهروب منه إطلاقا.

عيار اسباني

إن معظم المشاغبين والمفرطين في الشراب من عبيد الجزائر هم من الأسبان، الذين يحملون معهم خنجر أو سكين طويل، ويتشاجرون مع كل أحد بصفة عامة، وينتهي ذلك بالاغتيالات.

في حدود العاشرة ليلا من إحدى الليالي، وبعد عودة الأسرى الأمريكيين للراحة في سجن الجذافين، حصلت مشادة بين اثنين من الأسبان ، والتي سببت ضجيجا كبيرا في السجن، وإذا بأحد العرفاء، او الرياس يدخل الغرفة وبيده قنديل من أن يعيد الهدوء، وسقط بالضرب الشديد بالحبل على الأسبان، فقام أحد منهم، الذي لم يعجبه هذا السلوك من التاديب، وطلب منه أن يكف، وهدده بطعنة خنجر إن تمادى في ضربه، وهو ما أغاض العريف، وعليه تعامل معه بشدة أكثر من ذي قبل.ازداد الأسباني غضبا وحمقا لهذه المعاملة، وسل خنجره وضربه ثلاث أو أربع مرات، ومات ذلك العريف توا، وفي هذا الوقت دخل الغرفة عريف آخر وأثناء دخوله انقض عليه الأسباني بوحشية، وفي محاولة منه اتقاء الضربة تلقى جرح في ذراعه ، عندها انسحب إلى الوراء حالا، وأغلق الباب على نفسه في أحد الحانات القريبة من السجن.

الآن، بقي هذين الأسبانيين أحرارا في تسوية نزاعهما، واندفع كل واحد منهما تجاه الآخر بوحشية وكلاهما يسعي النيل والفتك بالآخر بالسكين، لكن لم يبق من الأمل لهما معا، بعد تلقي كل منهما عدة ضربات ، غير أن الذي تضرر أقل أصبح سيد السجن، بدأ يستعرض عضلاته الآن مبديا خنجره، مهددا بالانتقام من كل واحد يحاول إيذاءه. لم يتجرأ أحد من ساكني السجن، والذين يتراوح عددهم ما بين 500–600 عبد، الاقتراب منه، بقي هو السيد والمسيطر بلا نزاع، وأثناء ذلك، صاح عليه عريف سجن البايلك، الذي كان مريضا ومعالجا في المستشفى الأسباني، من شباك له في غرفته بالمستشفى أن يلقي السكين ويذهب إلى السرير، غير

ان الأسباني لم يرد على أمر العريف، وتحداه بأقصى الشتائم وطلب منه النزول . وأثناء ذلك، بلغت معلومات هذا الضجيج إلى حارس السجن، الذي تصور أن كل الأسرى فكت أغلالهم وأصبحوا أحرارا. وصل في الحين وهو مسلح ومعه عدد من الأشخاص لتهدئة الوضع، وعند وصوله مدخل السجن، أمر الأسباني أن يستسلم فورا، لكنه ازداد غيظه الآن أكثر فاكثر، وحاجر (تحدى) المدينة بكاملها .وأثناء هذا الحوار باغته أحد مواطنيه من الأسبان من الخلف واستل منه خنجره بلطف وطرحه على الأرض بهراوة، بعدها تقدم إليه عدد كبير من الناس وامسكوه وقيدوه على حائط،حيث بقي حتى صباح اليوم الموالي،ونقل أمام الداي،حيث تلقى الحكم بالإعدام،وبعد لحظات قليلة قطع رأسه أمام قصر الداي.

اكتشاف عبد نابولي

هناك عدة من النابوليين يديرون حانة في ضواحي المدينة، وقد اكتشف أمر أحد منهم بعد الظهر وهو في صحبة امرأة أهلية ، من قبل بعض جواسيس الداي الذين كانوا في ذلك الطريق، بالرغم أنه وجد في نفس العديد من الأسرى في نفس الوضعية، غير أنهم كانوا محظوظين بالفرار أما النابولي فقد وقف ساكنا بدون حركة مع هذه المباغتة المفاجئة. نزل الجواسيس من على ظهور فرسانهم وأوقفوهما معا، هو وهي، ونقلوهما مباشرة إلى الداي، الذي سرعان ما أصدر حكم الإعدام عليهما، لكنه حدثت وساطة من أصدقاء أقوياء ، واستبدل حكم الإعدام على النابولي إلى حرمانه من امتياز تسيير حانته، وتلقى ٧٠٠ ضربة على مختلف الأجزاء من جسمه، وأودع إلى العمل الشاق وسط العبيد، أما

المرأة ، وبعد إصدار الحكم بالموت عليها، نقلت مباشرة إلى الشاطئ من قبل اثنان من الجلادين ،اللذان ربطا قنبلة حول أحد من ساقيها، ورموها في البحر مسافة ما عن الشاطئ، وذلك بحضور الأسرى الأمريكان، الذين كانوا يعملون آنذاك في البحرية. قامت بصيحات يرثى لها وتوسلت بنية صادقة جلادوها بأن يسمح لها بتوديع أبنائها، غير أنهم رفضوا الإصغاء لتوسلاتها. وبعد أيام قلائل، وبوسيلة أو بأخرى، فك ارتباط القنبلة من ساقها، وطافت على سطح الماء، وتعجب الجزائريون عند ما وجدوها سالمة لم يأكلها السمك، واعتبرت هذه الحالة من قبل أحد المنجمين الجزائريين أنها معجزة، حتى أصبحت تعظم دينيا. أثار ذلك ضغينة الداي إلى درجة كبيرة لفظاعة هذا الحديث عن المعجزة، عندها أصدر مرسوما يقضي، مستقبلا أنه في حالة اكتشاف نساء وعبيد معا، يقيدان من الخلف مع بعضهما البعض ويحرقان.

خيبة أمل الأسرى الأمريكان

في وقت ما من عام 1795، حلت بالجزائر قطاعة«سفينة صغيرة» انجليزية من جبل طارق مع عدد من قطع مدفع نحاس، التي تم شراؤها من الداي ونقلت إلى قصره. وكان الأسرى الأمريكيون إذ ذاك يعملون في البحرية عند وصول القطاعة، وعرف الأسرى عدة أشخاص من معارفهم السابقة ضمن طاقم القطاعة. رفعت الكلفة بين الأصدقاء وشعر أصدقاؤهم بحزن لحالة الأسرى الأمريكيين، وعليه أعدت خطة فيما بينهم لتسريحهم من هذه المنطقة البائسة.

وقد اشعر الطاقم زملاءهم الأمريكيين أنهم مهتمون بتخليصهم وتنفيذ خطة الخلاص، وبلغ الطاقم اهتمامهم بقائدهم، الذي وافق تماما عن خطتهم ووعدهم بكل مساعدة باستطاعته لتسهيل خطتهم.

دبرت الخطة بين الطرفين على الشكل التالي:

على الأمريكيين أن يغتنموا فرصة هبوب رياح معتدلة، سواء عند ذهابهم للعمل، أو العودة منه في البحرية، وذلك حسب ما تسمح لهم الرياح بذلك، ويستولون على سفن البايلك التي تنقلهم، ويقومون بعملية الجذف بأنفسهم مباشرة على سفينة القطاع، والتي تبحر بسرعة مما يجعل ملا حقيهم لا يصلون إليهم، وحال وصولهم القطاعة يبدون أنهم أخذوها عنوة، ويظهر الطاقم مقاومة، حتى لا يشك الداي بأنهم هم المدبرون للمؤامرة.

كانت القطاعة جاهزة تماما للإبحار، وأعطيت لها الأوامر والتعليمات الضرورية بالإبحار حالا. لم يكن يتوقع أي عبد بهذه الفرصة، لكن كل الدلائل تشير إلى عدم نجاح كامل للخطة، وذلك في مرحلة الإقلاع.

ذهب قبطان القطاعة في اليوم المقرر للإبحار إلى أحد سجون المدينة، أين التقى صدفة مع رفيقين سابقين من إيرلندة، اعتنقا الإسلام، وتعرفا عليه، وكان هذين الصديقين يلبسان كالمعتاد، اللباس التركي وعليه قرروا، بالطبع بهذه المناسبة الغير الموعودة بشرب أكواب من

النبيذ، وشربوا حتى الثمالة، ولم يتمالكوا أنفسهم، وبينما هم في هذه الحالة النفسية المنتعشة وجدوا أنفسهم أنهم مستعدون لمغامرات، حيث اقترح أحد المرتدين أن يقوموا بزيارة لبعض الجاريات «المومسات» الجزائريات، وتمت الزيارة بسرعة، وقبطاننا، الذي لم يكن في وضعية عادية، عليه عبء ثقيل، مع الاحتراز، فقد اقتيد إلى بيت الدعارة في الأجزاء العليا من المدينة، حيث سبق وأن وطد هؤلاء الإيرلنديين علاقات جنسية، وقد لاحظ بعض الجواسيس تحركاتهم في خططهم، وتابعوهم سريا، واكتشفوا مغامراتهم المرحة عند اختلائهم، وبعد دخولهم إلى بيت الدعارة، دخل الجواسيس وراءهم مسرعين، وفاجئوا قبطاننا العاشق وأصدقائه في قمة نشوتهم. ألقي عليه القبض بسرعة ونقل أمام الداي، الذي أمر بإعدامه فورا، وبينما كان ينتظر جزاء حماقته، علم القنصل البريطاني بالحادثة وتدخل لصالحه،واستبدل الداي حكمه بالإعدام بشرط أن يغادر فورا الجزائر. وعليه شيعه خفير من الجند إلى سفينته، التي أمر بإقلاعها فورا من الميناء، ولم يسمح لها بالبقاء لأخذ ولو صابورة واحدة «حجارة لتثقيل السفينة المترجم».

وهكذا انتهت الخطة بفشل كامل عن طريق هذه الحادثة التافهة، وخيبت آمال الأمريكيين كاملة، وعند ما شاهدوا القطاعة تبحر، عرفوا حماقة وجهالة القبطان، فقد أصيبوا بقنوط لا يتصور، أما حظهم فكان في النسيم العليل الذي ساد عند عودتهم من البحرية، لكن بدلا من أن

ينالوا حريتهم، فقد اجبروا للعودة إلى حجرات مظلمة في السجن، ليسترسلوا في فراغ الأسى لأفكارهم.

أما الإيرلنديون المرتدون فقد أبعدوا ، بعد ذلك، إلى تونس، ليس بسبب علاقاتهما الجنسية مع نساء الأهالي الممنوعة «لأن المرتدين لم يحرموا من هذا الامتياز» بل لأنهما ألحقا شيء إضافي في عدم احترام القانون، فقد فرح جميع الأتراك لهذه الحادثة ، لأن هذين المشاغبين الإيرلنديين، كانا محل الرعب لجميع أولئك الذين يرتدون على السجون وأماكن عمومية أخرى في المدينة.

فرار القنصل الاسباني

قبل أسابيع قليلة من مغادرة الأسرى الأمريكيين الجزائر فر القنصل الأسباني إلى أسبانيا، بسبب توجس الاغتيال من الأسرى الأسبان، ذلك أن سائق البغال والمدعو «Yohan» أو «Spanish John»، وظف لنقل المئونة من المدينة إلى الأسرى في باب الوادي، تشاجر مع الموظف، الذي اعتاد أن ينتظر الأسرى عند عملهم، وينادي بأسمائهم في باب الوادي، كل صباح ومساء، ونتيجة لإهماله في دفع مبلغ من المال الذي أقرضه للموظف، وبعد تبادل كلمات هجينة وقبيحة، سل الأسباني سكينه وقتله، وبعد اقترافه لهذا العمل ولى هاربا إلى المدينة، وقرر أن ينتقم من القنصل الأسباني، لأنه أمر محسوم مسبقا، وكذا الرهبان القائمين على المستشفى، لأنه يتصور أنهم هم السبب في حبس العبيد الأسبان في الجزائر.* وحال وصوله البلدة اتجه إلى دار القنصل، والذي

* العديد من هؤلاء العبيد مجرمون، الفارين من العدالة في بلدهم، واصبحوا عبيدا متطوعين في الجزائر، والذين ترفض الحكومة الاسبانية فديتهم، وهو أمر يعزونه تماما إلى تاثير قنصلهم ورهبانهم، والذين يظنون أنهم هم السبب الوحيد في عبوديتهم، وبالتالي فهم موضع بغضهم وحفيظتهم.

كان لحسن الحظ غائبا، واتجه من هناك إلى المستشفى بنية قتل رئيس الأساقفة، الذي، قد سبق ،أن أخطر، كان غائبا هو الآخر أيضا، وعليه فقد صعد إلى إحدى الغرف العليا، حيث وجد نائب الرهبان، والذي طعنه بسكين في أربع أو خمس أماكن، عندها انسحب إلى سجن الجذافين، حيث قام باستعراض في إحدى غرفه وقتل من قتل. وفي نفس الوقت علم بوفاة الموظف بالمدينة، وعليه قام حارس الباشا بإرسال واحد من رئيس العرفاء، لإلقاء القبض على القاتل، واستحضاره أمام الداي.

وقبل ذلك استجوبه العريف عن السبب في القيام بمثل هذا العمل الوحشي، وكان رد «يوهان» على العريف باطمئنان شديد، أن نيته كانت في الانتقام من القنصل والرهبان.

ادعى أنهم تملكوا بغير حق، كلما أرسل لصالحهم، أي الأموال التي قامت الحكومة الأسبانية بإرسالها لفدية الأسبان، وأكد للعقيد أنه دبرت مؤامرة وسط عبيد الأسبان، لقتل القنصل، لذلك فر.

بعد هذا الحديث، سلم ياهون نفسه كسجين. قيده العقيد، وسار به فورا إلى القصر، حيث نفذ فيه حكم الإعدام.

بعد الإعلان عن وجود مؤامرة ضد القنصل ورئيس الرهبان، ركبا معا سفينة أسبانية بهلع كبير، وقد أبحرا في عز انتشار الطاعون. وبعد محاولة النزول برا في قرطاجنة، بأليكانت، وموانئ أسبانية أخرى، رفض استقبالهما، فاتجها نحو جزيرة مينورقة، وكانت الضرورة تقتضي أن ينزل القنصل إلى اليابسة وهو عريان. وقد زود بالمؤن والملابس وأقيم له كوخ لراحته، حيث بقي حتى تم التأكد من أنه خرج من دائرة الخطر بسبب

عدواه من الطاعون، بعدها حل بأسبانيا، وهكذا فر من الانتقام المدبر من الأسرى الأسبان، بعد أن قطع البحر المتوسط قرابة شهر، أما الرهبان فقد حلوا بمرسيليا بعد أسبوعين ، تقريبا، من وصول الأمريكيين، حيث اجبروا على قضاء الحجر الصحي لمدة مائة يوم.

المرتدون

المرتدون هم أولئك الذين تنازلوا عن دينهم واعتنقوا العقيدة الإسلامية، غير أن هذه الطبقة من الناس قد أحلفوا بخبث، ويحافظون على احترام الجميع في الجزائر، وهذا لا يبدو غريبا عندما نعترف أن هؤلاء المارقين هم في أغلبهم من الهاربين من العدالة في بلدانهم. أضف إلى ذلك، أنه لا أحد منهم تخلى عن المسيح بل أن اعتناقهم الجديد هو من أجل مغالطة المسلمين.

ليس من الغريب، إذن، أن قلة قليلة وجدت تشجيعا يطلق عليها اسم المرتدين، برغم أن المسلمين ينظرون في السابق أن اعتناق العبيد المسيحيين للإسلام هو عمل يستحق التقدير، أما الآن فقد أصبح ممنوعا تماما لعبد أن يغير دينه، لأنه في هذه الحالات فإن الحكومة ستفقد ثمن أعمالهم وفائدة فديتهم.

فعدد المرتدين في الوقت الحالي بالجزائر قليل جدا، وبعد أن شرعوا بالمجاهرة لعقيدتهم الجديدة، فإنهم يمارسون ديانتهم الجديدة في ثكنات جنود الأتراك. وتم قبولهم المشاركة في الامتيازات المختلفة. غير أنه لا يسمح لهم بمغادرة مملكة الجزائر وإن غادروها فستسلط عليهم طائلة عقوبة الإعدام، ولا يسلمون إلى بلدانهم التي تطلبهم

وليس ببعيد أن قبطانا لسفينة جواسة تبحث عن الغنيمة قد أحضرت غنيمة انجليزية إلى الجزائر، ضرب ضربا شديدا بحار من جنوة الذي ركب على ظهر هذه السفينة الجوالة. ونتيجة لهذا الضرب أغاظ الجنوي كثيرا مما حصل له، ففر من السفينة وقصد المرابطين مع العزم على أن يكفر بدينه، ونسب القسوة والشدة إلى المسيحيين، وعليه قبل في دين الرسول.

بعد إقامة شهرين بالجزائر، حلت فرقاطة انجليزية محملة برسائل إلى القنصل البريطاني، تقزز مرتدنا مع وضعيته الجديدة، معلنا تخليه عن دينه، وعليه قرر أن يفر على ظهر الفرقاطة. وطبقا لقراره نزل إلى أسفل المدينة ذات يوم في الصباح إلى الشاطئ وذلك عند اقتراب موعد فتح باب البحرية، لكنه بعد محاولات فاشلة، اكتشف أمره من قبل وكيل الحرج للبحرية، وقيده بمنديل اليد حول بطنه. ألقي عليه القبض ونقل فورا إلى السقيفة، حيث تلقى مئات الضربات بالعصي، بعدها تم اقتياده إلى القصر أين نفذ فيه حكم الإعدام.

سائق البغال

تحول الغرف السفلى قبو من بيوت الجزائريين إلى اصطبلات، وتمر بغالهم وخيولهم عن طريق نفس الباب مع الأسرة. وتتم نفس الترتيبات حتى في القصر، حيث يمر القناصل الأجانب، والوكلاء، والزوار، والخيول، والبغال، والحمير وداي الجزائر، كلهم يمرون على نفس الباب، أين يقف جنديين تركيين بصولجان أحمر لحراسة المارة.

وليس ببعيد بعد وصول الأمريكيين إلى الجزائر ، حيث كان بعض سائقي البغال من جنسية أسبانية، والذين سبق استعمالهم في هذه الوظيفة، لنقل أوساخ القصر في سلة معلقة من كل جانب، من جانبي

البغلة يطلق عليه في الجزائر بالزنبيل، وبعض الوسائل الأخرى حصل على مفتاح، وبه يمكن فتح باب الخزينة المحفوظة في القصر حيث تودع كميات ضخمة من الذهب والفضة. وعندما يؤمر السائق بالتوجه إلى القصر، فإنه يملأ الجزء السفلي من [illegible] ويغطيه بالأوساخ. وهكذا يمر من غير اكتشاف أمره حتى يستمتع ليلة مع من رفاقه بهذه الأموال المسروقة، غير أن جشعه زاد عن حده، وفي أحد الأيام أرسل لرفع قمامة من القصر، فتسرب إلى الخزينة كعادته وحمل معه حملا ثقيلا. وأثناء مروره بفناء الساحة تعرقلت البغلة من شدة الحمل وسقط الذهب إلى الأرض محدثا صوتا سمع في كل القصر تبعه ضجيج كبير، ودهش وجمد السائق المسكين في [illegible]. وبسرعة أوقفه الحراس الأتراك وأخذوه إلى الداي، حيث فحص بعدما لم يستطع أن يكشف شركاؤه في الجريمة، ولا كشف المكان الذي أخفى فيه أمواله. وكان يفترض، بالطبع، فقدان رأسه، وبعد وفاته مباشرة وجد جزء من الأموال التي سرقها في أسوار السجن البايلك. أما الكمية المعتبرة فقد وجدت خارج البلدة، أين كان ينقل وسخ القصر.

واعتبارا من هذه الحادثة فإنه لا يمكن فتح الخزينة إلا بثلاثة مفاتيح، والتي غالبا ما تكون محفوظة عند الداي، والخزناجي، والآغا، ولا يمكن سحب الأموال من هذه الخزينة إلا بحضورهم الثلاثة.

قصة فتى أمريكي

من المستحيل تصور الهلع الذي يحصل دائما وسط العبيد في القصر. فكل واحد يدرك باستمرار أنه سيفقد حياته، وأنه عند ما يعطى له أمر، فإنه ينفذه برعب شديد ومع سرعة لا تخطر بالبال.

ومن بين عدد عمال الداي هناك غلامين، أحدهما أمريكي والآخر إسباني. الذي يحضر مع الداي في الغرف العلوية للقصر وهو مكلف بغرفة ملابسه ويكن الغلام الإسباني عداوة ما ضد الغلام الأمريكي إذ أعد خطة للانتقام منه.

وذات يوم في الصباح هم الداي بالتوجه إلى مقر إقامته بالريف فأمر الفتى الأمريكي أن يحضر له بسرعة قميصه. فأسرع الفتى في الحال إلى غرفة النوم. وهناك التقى بالفتى الإسباني. الذي سلم له القميص من غير أن يفتح أعلى الحريـة. وكان مسرعا جدا للعودة إلى الداي من غير أن يلاحظ ما حدث. والذي كان واقفا غاربا في انتظاره. وأثناء محاولة الداي لبس قميصه. وجدها تلتف حول رأسه، ولم يستطع التخلص منها وفكر أن هناك مؤامرة مدبرة ضد حياته. وصرخ بصوت عال ومخيف. وبعد ما خلص نفسه أمسك بـالطحان Tahan، كلمة تركية. وركض غاربا خارج الغرفة لقتل الفتى الأمريكي، الذي فر والتجأ داخل غرفة ليست بعيدة عن مكان الواقعة. ناداه الداي بأعلى صوته. المقدر بنعمة الانتقام على العودة. عاد الفتى وجلس أمامه وهو يرتعش خوفا من الموت، وبجهل تماما سبب غضب الداي، وشيئا فشيئا هدأ بال الداي. وبدلا من قتل الفتى سلط عليه ضربات بالعصي من غير شفقة، مما جعله ينقل إلى المستشفى. حيث قضى فيه أسبوعا كاملا. بعدها وظف في الغرف السفلى للقصر بين من هم أقل من العمال درجة.

حملة لجمع القصب

يطلب من جميع الأسرى الذهاب إلى الريف لقطع القصب مرة في كل سنة. ويحصل ذلك في العادة في الجمعة الأولى من [illegible] ويستعمل هذا القصب لعرض القدر الخشبية في منازلهم

وهي أمر من حياتي [illegible] الخرج ولأول مرة الأسرى الأمريكان في حملات جمع القصب. ويقع الجزء الريفي الذي توجه إليه الأمريكان حوالي فرسخ وراء باب عزون. وهناك مروا على عدد من حقول القصب من غير إذن أصحابها. وبعد أن جمع كل أسير حزمتين كبيرتين، قدر استطاعة حملهما، يعودون بها إلى ساحة خاصة، التي حددت كما كان النداء عام، حيث يحضر وكيل الخرج، وحارس الباشا، وحراس آخرون يحضرون جميعهم على ظهر فرسانهم ويقام حفل يكون على نفقة أحد الأعيان، أو رئيس موظفي الداي، ويلزم حارس الداي أصحاب الحانات بإرسال خمر بهذه المناسبة

يقوم بإحضار الخبز، والخمور، والمواد الأخرى الضرورية للحفل سائقي البغال في السلال. على أن يخصص جزء يقوم بإعداده العبيد لوكيل الخرج، وحارس الباشا أيضا، والحراس الآخرون وكلهم يجلسون على المناديل، ويقدم لهم الطعام في أطباق على الأرض

ومن بين عدد عمال الداي، هناك غلامين، أحدهما أمريكي، والآخر أسباني، الذي يحضر مع الداي في الغرف العلوية للقصر، وهو مكلف بغرفة ملابسه ويكن الغلام الأسباني عداوة ما ضد الغلام الأمريكي. إذ اعد خطة للانتقام منه

وذات يوم في الصباح هم الداي بالتوجه إلى مقر إقامته بالريف، فامر الفتى الأمريكي أن يحضر له بسرعة قميص، فأسرع الفتى في الحال إلى غرفة النوم، وهناك التقى بالفتى الأسباني، الذي سلم له القميص من غير أن يفتح أعلى الخزينة. وكان مسرعا جدا للعودة إلى الداي من غير أن يلاحظ ما حدث، والذي كان واقفا عاريا في انتظاره، وأثناء محاولة الداي لبس قميصه، وجدها تلتف حول رأسه، ولم يستطع التخلص منها وفكر أن هناك مؤامرة مدبرة ضد حياته، وصرخ بصوت عال ومخيف. وعند ما خلص نفسه أمسك ب«الطحّان Tahan» كلمة تركية، وركض عاريا خارج الغرفة لقتل الفتى الأمريكي، الذي فر والتجأ داخل غرفة ليست بعيدة عن مكان الواقعة ناده الداي بأعلى صوته، المنذر بنغمة الانتقام على العودة، عاد الفتى وجلس أمامه وهو يرتعش خوفا من الموت، ويجهل تماما سبب غضب الداي وشيئا فشيئا هدأ بال الداي، وبدلا من قتل الفتى سلط عليه ضربات بالعصي من غير شفقة، مما جعله ينقل إلى المستشفى. حيث قضى فيه أسبوعا كاملا. بعدها وظف في الغرف السفلى للقصر بين من هم أقل من العمال درجة

حملة لجمع القصب

يطلب من جميع الأسرى بالذهاب إلى الريف لقطع قصب مرة في كل سنة، ويحصل ذلك في الغالب في الجمعة الأولى من جانفي ويستعمل هذا القصب لغرض القدد الخشبية في منازلهم.

وفي 3 من جانفي 1794، خرج ولأول مرة الأسرى الأمريكان في حملات جمع القصب. ويقع الجزء الريفي الذي توجه إليه الأمريكان حوالي فرسخ وراء باب عزون، وهنا مروا على عدد من حقول القصب من غير إذن أصحابها، وبعد أن جمع كل أسير حزمتين كبيرتين، قدر استطاعة حملهما، يعود بهم إلى ساحة خاصة، التي حددت كمكان التقاء عام، حيث يحضر وكيل الحرج، وحارس الباشا، وحراس آخرون يحضرون جميعهم على ظهر فرسانهم. ويقام حفل يكون على نفقة أحد الأعيان، أو رئيس موظفي الداي، ويلزم حارس الداي أصحاب الحانات بإرسال خمر بهذه المناسبة.

يقوم بإحضار المؤن، والخمور، والمواد الأخرى الضرورية للحفل، سائقي البغال في السلات. على أن يخصص جزء يقوم بإعداده العبيد لوكيل الحرج، وحارس الباشا أيضا. والحراس الآخرون وكلهم يجلسون على المناديل، ويقدم لهم الطعام في أطباق على الأرض

والتي أعدت خصيصا لهم قبل وصولهم. وبعد استمتاعهم، يقوم، خادم برش الماء على أيديهم، ثم ينسحبون، بعدها يسمح للعبيد بدورهم ليقتاتوا مما ترك لهم من فتات، توضع امامهم معالق خشبية للطعام حيث تملأ بالخل، والزيت، أين ينقعون خبزهم، ومع هذا الطعام الخشن يأخذون وجبتهم. بعدها يقوم سائقي البغال بتوزيع الخمر عليهم، من غير أمر. فجميع الذين قصروا في تجهيز أنفسهم بأدوات الشرب، أي وعاء لكل واحد منهم، لم يتلقوا نصيبهم، وهذا لسوء حظ الأمريكيين، غير ان الأسرى القدامى احتاطوا بتجهيز أنفسهم بعدد من قرن الشرب وزجاجات لهذه المناسبة.

انتهى هذا العيد بضرب البوق. حمل جميع العبيد على أكتافهم متاعهم من الصرة، وساروا في صفوف نحو حدائق الأغا، والخزناجي، الموجودة في المرتفعات العليا حيث أودعوا في كل حديقة بين ٤٠ و٥٠ من هذه اللفات، وما تبقى أخذ إلى حدائق الداي، التي تقع على مسافة تقارب ثلاثة أميال، فوق حي آخر، ومن هناك عادوا إلى السجون، وهنا ينتهي عمل اليوم.

توزيع الملابس

عين اليوم الذي توزع فيه الملابس على العبيد، في الجمعة الموالية لهذه الحملة، والذي يحدث مرة واحدة في العام. فهو يوم لمهرجان عام، وفي هذا اليوم يعفى الأسرى من العمل، وفي الصباح الباكر لهذا اليوم، ينضمون في صفين في الفناء المجاور للقصر، حيث يقوم وكيل الحرج،

وعدد من مرافقيه يقدمون لكل عبد بانتظام حلة من الثياب بالزي التركي، تجمع في حزمة صغيرة. وتتشكل هذه الحلة من زوج سروالين قصيرين من الجوخ، وسترة تشبه إلى حد ما غرارة، بدون أزرار ولا حتى كمان، وقميص قماش خشن بكمان قصيرة، وزوج من الأحذية مصنوعة من الجلد الأصفر، ويقدم الداي نفسه من أعلى الدار، خلال فترة التوزيع، ينظر إليهم بوجه ثابت، دون أن يغير وضعية جسمه في الوقوف والجلوس اثناء الوقت بكامله. وظهر أثناء انصرافهم من الفناء عدد كبير من الباعة المتجولين من اليهود والأهالي، والذين باع لهم العبيد كامل حلتهم باقل من سكوين، من أجل زيادة نقود قليلة بغرض الاحتفال بذلك اليوم.

وهكذا فإن العديد من المعذبين في الأرض، ولأجل إرضاء لحظة، يمشون عراة كامل السنة ولهم ثقة في وجود الاخرين بالدعم لهم.

الأمريكيون مقيدون في سلاسل

يبدو أن السيد، بارلو، يحظى باحترام شديد من قبل الأسرى الأمريكان لحسن نيته. فتواضعه لا يمنعه من بذل جهود لتخليصهم من العبودية، مع انه يبدو أن السيد، دونالدسون، كان خشن الطبع في تصرفه، فلم يكن محل تقدير عندهم، إذ حدثت واقعة ادت به إلى كره من قبل جميع الأسرى الأمريكيين.

اقام قرابة تسعة اشهر بالجزائر، في انتظار وصول المبلغ الضروري لجعل المعاهدة نافذة المفعول، اصبح الأمريكيون قليلو الصبر للتاخير الذي حصل، انتظروه صباح ذات يوم في جرم وطلبوا منه الجواب النهائي، إن

كان هناك أمل في تحريرهم من العبودية ؟ وبدلا من جواب متواضع لتهدئ غضبهم وسوء أحوالهم،والسواد القاتم المتوقع للبقاء في العبودية مدى الحياة، وبعد بروز أمل للخلاص بسرعة، كان رده بصوت متغطرس وأمرهم بالانصراف فورا من إقامته، أو يجد سبلا أخرى لإجبارهم على ذلك.

ضاق صدرهم من مثل هذا التصرف الغير الإنساني، من الوكيل الأمريكي، وثارت ثائرتهم من هذا التصرف، وردوا عليه أنهم لن يبرحوا مكانهم حتى يتلقوا بعض المعلومات حول الموضوع. وتوعدهم دونالدسون، حيث أخبر البحرية بتصرف الأمريكيين، الذين فرقوا فورا، وكانت نتيجة تصرف هذا الوكيل الضيق الصدر، أن نقلوا بسلاسل ثقيلة في أرجلهم مدة ثلاثة أسابيع، حتى تدخل أخو القنصل السويدي، من أجل عمل إنساني لصالحهم، وتحصل على إطلاق سراحهم من السلاسل.

وهكذا أننا نجد أحيانا أناس طيبون بالعمل الخيري، وأنهم مستعدون أن يقدموا عملهم هذا إلى كل البشر، في حين نجد الآخرين، ومن غير أدنى انفعال، بل يخضعون أبناء وطنهم إلى سلاسل وبؤس، غير أنه يمكن أن نلاحظ عن طريق الاعتراف بالخطأ، مع الأسف، أن الحالة الصحية السيئة للسيد دونالسون المتكررة هي السبب في تغيظه لأهون الأسباب نحو أبناء بلده.

وقد ابتلى عند وصوله الجزائر بمرض النقرس «يصيب المفاصل ويتورم إبهام القدم منه بألم شديد»، وعليه كان مجبرا بمساعدة عند سيره، كما أصيب بعاهات أخرى خلال إقامته هناك.

تعاقب وكلاء الحرج

أرسل وكيل الحرج السابق الذي كان يرأس البحرية قبل وصول الأمريكيين، إلى المشرق ومعه كمية ضخمة من المال لبناء مسجد على شرف الداي.

غير أنه لم يسمع عن السفينة التي أبحر بها بعد ذلك، ويعتقد أن هذه الخزينة قد أغرت الطاقم بقتله.

وحل محله قبل سفره بشكل مؤقت، حتى فقد الداي كل أمل بعودته. عندها عين أحد من أقاربه في هذا المنصب الذي جاء مؤخرا من المشرق ومعه فرقاطة جديدة كهدية للداي، ونتيجة لهذا التعيين تخلى القنصل الإسباني الذي كان يقيم في دار وكيل الحرج السابق لوكيل الحرج الجديد.

وبينما كان يقوم بعض البنائين من الأهالي بعمل الإصلاحات في التبليط في أحد الغرف السفلى، اكتشفوا صندوقا مليئا بعدة آلاف من الدولارات. يعتقد أنها قد أخفيت هناك من قبل سيدي وكيل الحرج السابق. وقد تمكن الأهالي الأوفياء من تسليم الصندوق إلى الداي الذي لا يزال يكن عداوة ضد سيدي. وقد رفض قبول أي شيء خاص به غير أنه أصدر أوامر تقضي بتوزيعه بين ضباط البحرية والبحارة من الأهالي والعبيد.

فوكيل الحرج هذا لا يشبه سابقه من حيث شدة قسوة قلبه
شخص ذو رقة وإحساس كبيرين، فهو قليل الصخب والخشونة في

العمل. غير أنه استقال من منصبه بعد شهر من تنصيبه، واختير وكيل حرج آخر بعد رحيل الأمريكيين من الجزائر.

قصة زنجي أمريكي

إنه من العادة ، على أي حال، عند إنهاء الأسرى من دحرجة المراكب الجوالة، أن تطلق ثلاث طلقات نارية من إحدى القلاع. كعلامة لأخذ صابورتها «حجارة لتثقيل السفينة» والمدافع، والمواد الأخرى الضرورية للطواف. وأثناء ذلك أعد وكيل الحرج لهذه السفينة. وعلى نفقة القبطان، حفلا للأسرى، يشمل كمية من الأرز، وقمح مجشش. وثلاثة أو أربعة أكباش مغلية معا في قدر من النحاس على الرصيف.

وعادة ما يوزع لحم الضأن على النجارين الأهالي والكراغلة، ويؤخذ قدر من الكسكس على ظهر السفينة، حيث يقدم فيما بعد إلى الأهالي والعبيد ويأكلون بمعلقة حديدية طويلة. وفي يوم ما، وبعد دفع السفينة الطوافة وإحضار القدر على ظهر الطوافة. تجمع عدد كبير من الأهالي والعبيد حول القدر لأخذ نصيبهم، ومن بين الباقين زنجي أمريكي يدعى «Scipio»، وبينما كان الجميع يتسابق ليكون أول المستفيدين، وإذا بأحد الأمريكيين يمسك بهذا الزنجي من عقبيه، ويلقي برأسه أول الناس في القدر، حيث بقي حتى قام أحد الأهالي بجره من القدر. رافق ذلك قهقهة كبيرة، ولم يصب هذا الزنجي المسكين بأي جرح سوى أنه أصبح أبيض اللون بفضل الكسكس. لم تؤثر هذه الحادثة على الجماعة في الأكل، وقيل أن الجزء الباقي من الكسكس أرسل فيما بعد، إلى الداي.

الهارب الأسباني

اسباني باسم «Mooris»، هو الفار من سفينة اسبانية يوم ... احضر إلى الجزائر من قبل الأهالي، وأصبح عبدا، حتى اتخذه القنصل الأسباني لصالحه وتحصل على حريته. استقبله القنصل في داره حيث عومل معاملة حسنة، ووعده بالعودة إلى اسبانيا في أول سفينة تحضر إلى الجزائر. غير أن الأسباني، لم يكترث لا بفضل القنصل الذي خصه به ولا برغبة العودة للوطن. سرق أحد خيول القنصل ومبلغ معتبر من المال وبهذه الغنيمة توجه إلى الجبال وسط الأهالي، حيث بقي بعضه ثم إلى البلدة وقدم أمام الداي، الذي أصدر عليه حكما يقضي بضربه مئات المرات، وعين في دكان الحداد في الغرفة، وبقي هناك حتى ظهور الطاعون عام 1796. وأطلق سراحه من العبودية.

نتائج الحسد

ليس هناك شعب في العالم ضار بشكل مفرط في الحسد مثل الأتراك، ولا يظهر ذلك غريبا عندما نعتبر أن كل العلاقات بين الجنسين ممنوعة قبل الزواج، ومن ثم فإنه نادرا ما يحصل أن تحصل امرأة على هدفها في المحبة. وهنا، وعندما يجد تركي نفسه غير قادر على إثارة المشاعر، يصبح أكثر حذرا في الحفاظ على شخصية زوجته.

إلا أن كل هذه الشدة لا تستعمل سوى كدافع للانهماك في العلاقات وينتج عنه أن روح المكيدة هي التي تسود، وغالبا ما يحدث هذا في غياب الأزواج، حيث يرسلون نساء يثقون فيهن إلى الشوارع لدعوة الغرباء إلى منازلهن، قصد تعاضي الشهوات المحرمة.

وقعت إحدى زوجات قبطان الميناء أو وكيل في البحرية، الذي سبق وأن كان رئيسا للبحرية، قبل وصول الأمريكيين، في غرام غلام كرغلي، الذي سبق وأن شاهدته مرارا يمر في الشارع، وبما أن التركي كان منشغلا في القسط الأكبر من اليوم في البحرية، فقد سنحت فرصة للكرغلي بالاتصال مع زوجته واستمرا في هذا الاتصال الغرامي، إلى أن وقع تلميح وهمس للزوج، الذي أجر إثنان من الأهالي كجواسيس، للقيام بمراقبة داره في غيابه.

واثناء عملية المراقبة المستمرة ظهر الكرغلي، ودخل المنزل، وسارع المخبرون بإيصال الخبر إلى التركي، الذي جاء مسرعا من البحرية، وهو يغلي بالانتقام ضد خصمه، الذي اكتشفه عند مروره امام داره. وقع شجار فورا بينهما، وفر الكرغلي بعد أن تلقى عدة ضربات. امسك التركي زوجته من عنقها، وكتكفير منه عن الجريمة التي ظن انها قد ارتكبتها، شنقها حتى الموت.

وعند ما تلقى الداي خبر هذه العملية أمر بتحقيق دقيق حول المسألة. وأعطى حقا للأتراك بقتل زوجاتهم في مثل هذه الحالة. فهن يعتبرن ، ملكا لأزواجهم. غير انه عند ما تبين بعد الفحص ، أن المرأة في حالة من الحمل عند وفاتها، غضب الداي غضبا شديدا، ذلك أنه وبرغم حق التركي في ممارسة هذا الامتياز على زوجته لكنه بناء على أمان من العقاب والضرر،ثم أن الزوج لا قوة له على حياة المولود. ونتيجة لهذه الجريمة فإنه أبعد من وظيفته، غير أنه تمت ترقيته إلى قائد سفينة طوافة، وهو الذي أسر القبطان الأمريكي«M’Shane»، وطاقمه.

مكيدة النابولي

معظم أسرى الجزائر هم من الأسبان، والبرتغاليين، والجنويين، والنابوليين وآخرون من بلدان هي في حرب مع هذه الإيالة. فالبعض من هؤلاء الأسرى قد سجنوا منذ ٤٠ سنة في الجزائر، حيث تحملوا كل رزية التي يمكن أن تتسلط على الطبيعة البشرية.

ومنذ ٤٠ سنة أعدت خطة بين حوالي ٥٠ نابولي و ١٥٠ تركي للهروب إلى الجزائر، حيث اعتقدوا أنهم سينالون مكافأة القيام بتخليص مثل هذا العدد من الأتراك. وبعد قتل الضباط والطاقم، والاستيلاء على الممتلكات المنقولة للقرقور النابولي، أبحروا ووصلوا الجزائر بسلامة. وكانوا محل تقدير من الأتراك لوقت ما، إلى أن راسل ملك نابولي الداي، يرغب منه استرداد أسراه منهم. وعليه سرعان ما تمت الاستجابة لهذا الطلب. وبقي البعض من هؤلاء المعذبين النابوليين في الجزائر حتى اليوم.

جشع الداي السابق

وإن لم أخطأ، فإن اسم الداي السابق، محمد باشا، كان أسوأ داي سبق وأن حكم، وقيل أن جشعه ازداد مع سنه إلى درجة كبيرة، حيث أراد أن يلهي نفسه بصيد قطع نقدية تقل عن بني «واحد من مئة من الجنيه الإسترليني» في الشوارع، التي يضعها مع نهاية أصابعه ومبلولة ببصاق. وعند تغيير ملابسه في اليوم، فإنه يحدث أن يترك بعض من هذه القطع النقدية في غرفته، ويقوم «Poor»* قبطان القصر، بأخذها بحرية ويحولها لاستعماله الشخصي، وليس الأمر، أن ذلك مبلغ تافه، يخص

* رئيس الكناسين، وحسب العادة المتّبعة في القصر، فإن هذا المنصب يحرّر عند عقد معاهدة سلم مع أي بلد.

ملك الجزائر، بل أن الداي أغاظ كثيرا لأنه فقدها، وبعد التحقيق تبين ان القبطان بور هو الذي اختلسها، ونتيجة لسرقته هذه فقد رأسه.

الحملات البحرية

مباشرة بعد وصول القبطان، أوبراين، الجزائر ، تمت ترقية أحد من طاقمه، والمدعو «James Hall»، والذي كان خبيرا بحريا، إلى منصب تولي شئون بحارة السير في المركب، الذي كان في السابق فرقاطة فرنسية ، والتي خرجت للقيام بعملية قرصانية ضد النابوليين. اعدت تحضيرات كبرى، ووعد الداي نفسه بنجاح كبير في هذه الحملة، حيث أرسل كامل أسطوله للإبحار، وبعد أيام قليلة من الإبحار ورد أن الفرقاطة وقعت في معركة مع طوافة نابولية، واستمرت المعركة بينهما، واصطدمت الفرقاطة بالنابوليين.

ورأى النابوليون انه من الحكمة عدم متابعة الفرقاطة، غير أنه بعد مدة عدلوا عن فكرتهم وأجبروها على التوجه إلى نابولي مع طاقمها، ومع نزول الليل ظهر مركب جزائري الذي حاول استعادة الفرقاطة، وتبعا لذلك أصدر الطاقم أمرا إلى الجذافين وبسرعة للاقتراب من الغنيمة، وكلف البعض بها، غير أنهم وجدوا أن ركوب طاقم الفرقاطة مع طاقم المركب لا يتسع لذلك، وأصبحوا في خطر، وفكروا في إحراق الفرقاطة، غير أن البعض ممن بقي من الأهالي المسنين على ظهر الفرقاطة كسروا الفك وحرروا أنفسهم، وحالوا دون إحراقها واستردها المركب، ونقلت إلى عنابة قصد تلقي الإصلاحات الضرورية.

وهكذا فقد النابليون لسوء حظهم الفرقاطة، غير أنهم أمنوا الطاقم ونقلوه إلى نابولي حيث أصبحوا أسرى.

وبعد عودة المركب، كتب السيد دونالسون، إلى نابولي باسم «Hall»، الذي حرر توا وركب فرقاطة انجليزية.

وعند عودة الأسطول الجزائري، غضب الداي غضبا شديدا لفقدان الطاقم، وأعطى أمرا باستعداد فوري لحملة أخرى، ووعد الطوافون بمكافأة جد عالية في حالة إلقاء القبض على كل نابولي يلقى عليه القبض.

لكنه وبعد أسابيع من التجوال في البحر المتوسط، استولوا على عدد قليل من المراكب المالطية والنابولية، التي كانت متجهة نحو صقلية، ونقل طواقمها وأصبحوا أسرى.

الأمريكيون يغادرون الجزائر

تم تبادل معظم الأسرى النابوليين مقابل الأتراك عند افتداء الأسرى الأمريكيين، ونقلوا مع الأمريكيين في سفينة «الحظ السعيد Fortune»، تحت قيادة القبطان «كالدار caldar»، والتي كانت في الأساس متجهة إلى القرنة بكسر القاف «Leghorn».

بدأ استعداد ترحال الأمريكيين من 11 إلى 13 جويلية 1796، وفي 13 مساء اتجهوا نحو الميناء، وفي 14 صباحا استعدوا المقدار الوزن القاصر عن الحد، وفي هذا الوقت هب نسيم غربي نشيط. غير أنه وقع إهمال في رفادة عارضة السفينة، حتى أنها اقتربت من صخور «Porta Pisco»،

والذي أجبرهم على العودة فورا إلى الميناء، مما أدى بقائد الميناء أن يصعد إلى السفينة بغضب شديد، وضرب قائد السفينة ، كالدار، بعدة ضربات، وأعيدت السفينة إلى الميناء، وقام عدد من قوارب الحراسة من الأهالي بجرها خارج الميناء.

وحوالي ساعتين ، بعد الإعلان عن الإبحار، أصيب أحد النابوليين بالطاعون وتخوف الجميع من أن العدوى ستنتقل بين أعضاء الطاقم، وعليه أوقفت السفينة مقابل الجزائر، من أجل إنزال النابولي المصاب إلى اليابسة، وبعد الإشارة مباشرة جاءهم قارب وأخذ المعني إلى الشاطئ، لكن وكيل الحرج رفض إنزاله إلى اليابسة وأمر بعودته فورا.

ولما سمع الداي بالخبر بعد إقلاعهم بنصف ساعة، بما حدث، أمر عدد من البساكرة باللحاق بالسفينة، وعادوا ومعهم المريض النابولي.

غير أن سوء حظهم لم يتوقف هنا ، بل اكتشفوا بعد يوم، نابولي آخر مصاب بالطاعون، والذي مات مباشرة، وفي اليوم الموالي، أصيب القبطان «Baily»، بمرض ومات هو الآخر.

تحول مقدم السفينة في الأعلى أمام الشراع القداماني إلى مستشفى. كما أصيب إثنان من الأمريكيين الذين سبق وأن أصيبوا بالطاعون في الجزائر، واتخذت إجراءات جد صارمة لمنع انتقال العدوى. وقد أصبح الطاقم في حركة دائمة، وعرضوا ملابسهم للهواء، وحافظوا على تنظيف سطح السفينة باستمرار، وبهذه الطرق جنبوا أنفسهم التهلكة. وأثناء ذلك قرروا أن يغيروا قبلتهم، ليتجهوا إلى مرسيليا، بدلا من القرنة، التي يصعب الوصول إليها، وعند بلوغهم مرسيليا، أجبروا على

قضاء 80 يوما من الحجر الصحي. وبعد قضائهم فترة الحجر الصحي، سجن جميع النابوليين لأن بلدهم كان في حرب ، آنذاك، مع جمهورية فرنسا، لكنه سرعان ما أطلق سراحهم وأرسلوا إلى نا بولي.

الفصل 6

مدينة الجزائر في عهد *Pinchinin*

عانت مدينة الجزائر من تغييرات معتبرة في حالة حصونها، وحكومتها، وتقاليدها ...الخ منذ سنة ، وذلك أثناء أميرالها الشهير 1640، علي بنتشينين.

لازال السور القديم للمدينة قائم، غير انه نادرا ما يشاهد آثار باقية للخندق الذي يمتد على طول السور من جانب الأرض. ويبلغ طول هذا الخندق حوالي 15 قدما عرضا، وبنسبة مماثلة تقريبا في العمق، ويستعمل كمكان لقاذورات المدينة. ويستمد السكان ، وإن كان قليلا، فائدة من هذا السور، وذلك لعدم وجود قوة عسكرية متمركزة وراءه للدفاع عن المدينة، فكل الشوارع مقيدة بالسلاسل، باستثناء ذلك الشارع الذي يمتد على طول المدينة من ميناء باب الوادي، بين الجامع الكبير وقصر الداي إلى بوابة باب عزون.

ويقيم الجزء الرئيسي من الحامية في خمس بنايات عمومية كبيرة، مع ساحات واسعة في الوسط، التي تستخدم كمخزن أسلحة. وتضم كل واحدة من هذه البنايات قرابة 600 جندي، الذين يعتمدون في حياتهم على النفقة العمومية. وكل واحد منهم ينزل في غرفة لوحده.

لكن العديد من الشخصيات التركية يقيمون في بيوت كبيرة تدعى الفنادق والتي يملكها الخواص.

وتسمى القلعة بالتركية «Alkazabar»، التي كانت جزءا من المدينة والواقعة على الجنوب الغربي، يقسمها سور، الذي يبدأ في المتراس على الجانب الشرقي، وتمتد حتى الغرب. حيث تقع جزيرة صغيرة عن حوالي 300 قدم من الشاطئ، الذي يتصل بالمدينة عن طريق المرفأ الذي تم بناؤه في سنة 1533، والهدف من إقامته هو حماية السفن. نقل هذا المرفأ بعيدا بسبب عاصفة هوجاء في بداية 1662، التي أدت إلى دمار كبير في نقل البضائع.

ويوجد خارج المدينة عدة حصون ذات قيمة أقل، فالحصن الرئيسي هو ذلك الذي بناه حسن باشا في عام 1545، في الموقع الذي أقام فيه شارل الخامس خيمته سنة 1541، ولازال هذا الحصن قائما، ويدعى حصن أمبريال يبلغ عدد سكان المدينة حوالي 100.000 ساكن، منهم 12.000 جندي تركي، و30.000 عبيد*، من عدة جنسيات، والباقي مواطني الجزائر العاصمة، يتشكلون من الأهالي «المور» والموريسكيين «عرب الأندلس» واليهود، وبعض من التجار المسيحيين.

والسلطة العليا، الآن، في أيدي الداي، أو، كما كان يسمى . الباشا، والذي كان يشرف بلقب السلطان عند التصفيق عليه، وهو ما يعجبه كثيرا.

ويبدو أن وضعيته كانت أكثر خطورة آنذاك مما هي عليه الآن، وكان يخشى باستمرار وقوع تمرد داخل جنود الأتراك، خاصة إذا لم

تدفع أجورهم الشهرية في وقتها، وعليه كان يحرص دائما بدفع المرتبات عند شهر قمري جديد، وإن تأخر عن الدفع ثلاث ساعات عن الوقت المحدد، فإنه سيقع في خطر إما أن يقتل أو يسجن.

كان لزاما على الداي أن يحتاط في أن لا يأخذ أكثر من نصيبه المستحق في كل الغنائم، وإلا سيكون في خطر الإعدام الفوري عن طريق جندي أحمق، كما حدث في سبتمبر 1661، عند ما أعطى رمضان باشا حكما ، لنفسه، وأخذ الجزء الأكبر من غنيمة القمح، فاق نصيبه، فهذه العملية سببت تمردا في الحال للجند الذين قطعوا عنقه، وقتلوا 28 شخصا من الديوان، ورميت جثثهم إلى الكلاب في الشوارع. وما تبقى من الديوان فر في قوارب صيد السمك، هروبا من غضب الجند، ووقعوا بعد ذلك أسرى في أيدي المالطيين.

وبعد وفاة رمضان باشا، جاؤوا بباشا آخر، الذي سجنوه منذ سنوات خلت ، بسبب إهماله في دفع مرتباتهم في وقتها، انتخبوه حاكما للجزائر، وأوصوه بحسن الأخلاق، في التسيير.

غير أنه وبعد ثلاثة أيام ، نسي وصاياهم، ورفض عرضا للوساطة وأصر على القضاء على الآغا، الذي كان سببا في سجنه، وتنفيذا لخطته وعد بمبلغ10.000 باتاكون* لجنديين إن قاما بقتله. ولهذا الهدف اتجها معا إلى دار الآغا، وطلبا منه التحدث معه، غير أن العبد الذي خرج إليهما، شك في زيارتهما بسبب اضطرابهما، أجابهما أن سيده ليس في المنزل.

* عملة اسبانية تساوي دولارا واحدا و3سنت و7ميل.

للجند، الذين القوا القبض عليه ورموه في مطمورة مظلمة، أين يتلقى طعامه من خلال حفرة صغيرة، وليس له سوى غرفة تكفي للجلوس.

إن ضرورة تحديد موعد الدفع، تقتضي إلزاميا من الداي تحصيل المال بأي وسيلة خبيثة مادام هو الآمر بالصرف، ولو عن طريق خرق أو سوء تأويل المعاهدات. وهذا التغطرس أدى به إلى قطع العلاقات مع بريطانيا العظمى في عام 1661، وهو ما يخالف معاهدتهما للسلم بالاستيلاء على ممتلكات وأشخاص أجانب يبحرون على ظهر السفن البريطانية. ونتيجة لنقض المعاهدة أرسل إيرل–لقب شرفي انجليزي «Sandwick» إلى الجزائر ومعه أسطول يتكون من 18 سفينة من نوع قبق، تطالب بإرجاع الممتلكات المنقولة إلى المالكين الأصليين. وصل الأميرال ميناء الجزائر يوم 22 أوت، وأرسل ملازمه مع أوراق اعتماده إلى الشاطئ طلبا للاعتذار، والذي رفضه كل من الداي والديوان. وبسبب ذلك، انتقل القنصل البريطاني إلى الأسطول البريطاني،عندئذ، قام الأميرال بإطلاق قذائف على المدينة، وهدم بعض البيوت ثم عاد منسحبا. وتقتضي الخطة الرئيسية للداي أن يفرض ضرائب على الدول التي هي في تحالف معه. فغالبا ما كان يلقي القبض على سفنهم، ويجبر ضباطها عن طريق عقاب بدني، بالاعتراف أن الممتلكات المنقولة على سفنهم تابعة لدول أخرى.

في الواقع إنها مهمة عسيرة بالنسبة له أن يتجنب النزاعات الأجنبية، وفي نفس الوقت، يعمل على ترقية الوئام الداخلي. كان شاعرا أن إقامة سلام مع الدول الأخرى يستلزم الميل إلى تقليص عائداته،

والحاجة إلى موارد مالية، للتخلص من المطالب الضرورية، وهذا سيؤدي به إلى غضب العسكر المنطوي على روح التمرد. وعليه فإنه من الضروري خرق اتفاقيات السلام، وبما أن الجزء الأكبر من مداخله يأتي عن طريق أسر السفن، فإنه نادرا أن يكون في سلام مع أي دولة.

تتكون قوات الداي العسكرية من 12.000 جندي، معظمهم من الأتراك العصاة، والمرتدون الهاربون من أوربا نحو الجزائر، التي كانت ملاذا آمنا لهم لخبثهم وسفالتهم، وحتى أولئك الذين أساؤوا إلى الباب العالي نفسه وجدوا حماية لهم مباشرة بعد وصولهم هنالك، كما هو الحال في سنة 1640، ومن هؤلاء المرتدين «sigala»، ابن المرتد الجنوي الشهير ، وهو أميرال بنفس الاسم، قد عين لقيادة عمارة بحرية من المراكب التابعة للباب العالي في عهد مراد الرابع، التي نقلت الضريبة السنوية من مصر. أرسى «Sigala»، أثناء عودته بأسطوله في إحدى موانئ اليونان ، حيث نزل إلى البر لقضاء جزء من وقته مع النساء، وبينما كان هنا مسترسلا في إشباع شهواته، توجه المالطيون إلى الميناء، وألقوا القبض على السفينة المحملة بالكنز، وتجنبا للضرب، أبحر «Sigala»، فورا مع سفنه الباقية إلى الجزائر، حيث عاش على القرصنة حتى صدر عفو في حقه من إبراهيم خليفة مراد

كانت الجزائر في هذه الفترة تشكل نوع من جمهورية عسكرية، وكان الداي تحت رقابة مشددة من العسكر، وبدون موافقتهم لا يقدر على فعل أي شيء. فإن وافقوا على أوامره فإنهم ينفذونها ، وإن رفضوها، فما على الداي إلا أن يتخلى عنها.

وفي سنة 1642، رفض ملك دفع الجزية، وظهر مع جيش للتخلص من قران الصداقة الجزائرية. وكان على رأس الجزائر في هذه الفترة

الداي يوسف، الذي طلب إعفاءه من قيادة الحملة، بدعوى مرضه. غير أن الجنود لم يكونوا ميالين لقبول عذره، وأجبروه أن يصعد إلى إحدى سفن من سفنه، وخوفا من فراره، رافقته سفينة أخرى، وعليه أجبر أن ينزل مع جيشه في المكان المحدد.

وحسب المعلومات المتوفرة الآن فإن هناك في الجزائر حوالي ثلاثة آلاف مرتد فرنسي في الجزائر. وكان ممنوعا في السابق على المرتدين العمل مع الجنود الأتراك، غير أن محمد باشا، سمح بإدماجهم مع الأتراك في عام 1568.

كانت أجرة كل جندي 8 باتاك تفوق 8 أضعاف الجندي الموريسكي، شهريا، غير أن أجورهم هذه تزداد في الحالات الاستعجالية، مع مراعاة سنوات الخدمة. وعند ما يزداد مولود للسلطان، أو لهم أي ارتباط هام مع العرب، أو أي جندي قتل عدوه في معركة وأحضر معه رأس ذلك المقتول، فإن رواتبهم تتضاعف كل شهر، على ألا يتجاوز عدد التضعيف أربعون.

يتمتع الجنود الغير المتزوجين بامتيازات كبيرة أكثر من المتزوجين ، حيث يقدم للصنف الأول، أربعة أرغفة من الخبز يوميا، أما الصنف الثاني فواحدة. فالجنود لا يقومون بحراسة في المدينة، سوى رقابة تسمى بالتركية «Mesuart»، تتكون من 25 شخصا، يسيرون في موكب استعراضي بالشوارع. وتصبح المدينة في الصيف خالية، تقريبا، من الحامية العسكرية، ذلك أن الجيش قد وزع على عدة مناطق من البلاد لتعزيز قوة دفع الضرائب. ويدعى الديوان إلى الاجتماع مرتين في الأسبوع في شرفة داخلية للقصر، ويبلغ عدد أعضاء الديوان 40 شخصا،

لكن ما يلاحظ أن الأصوات قد تم جمعها مسبقا قبل إغلاق ... وتحل كل النزاعات القائمة بين الجنود في هذ المجلس ... المتعلقة بالمواطنين فيقوم بحلها شيخ، يعتبر مساعد ...

مع أن حصونهم في هذا الوقت لم تكن ذات اعتبار إلا أنها كانت مصدر رعب للأوروبيين. وطبقا لبعض الإحصاءات فإنه قد مات ... 600.000 عبد في الجزائر بسبب سوء معاملتهم بين سنوات ... ومع أن الجزائريين أخذتهم الفرحة الشديدة بخبر كارثة ... في عام 1541، إلا أنهم لم يتجرؤوا أن ينسبوا ... مرابطا أو خياليا، يقيم بجوار المدينة، تنبأ بعاصفة ... الأسباني، وذلك بضرب عصاه في البحر ... مسجد قرب باب الوادي، حيث دفن.

فالأتراك يمجدون هذا المكان، ويزعمون أنه في حالة قيام جيش مسيحي بحصار الجزائر، مرة ثانية، فإنهم سيحركون عاصفة ... يسبق لها مثيل برمي عظام هذا المرابط في البحر

الفصل7

خلاصة مغامرات «إيمانويل دارنادا*D'arnada Emanuel*»، متضمنة رواية معاملة أسرى الجزائريين في عهد «*Pinchinin*».

إيمانويل دارنادا، من أصل «Dunkirk» في «Flanders»، كان أسيرا في الجزائر مدة عامين. وفي أول أوت 1640، غادر مدريد، متجها إلى «St. Sebastian»، برا، ومن هناك امتطى سفينة انجليزية، من أجل العودة إلى وطنه، بعد أن زار مناطق عديدة من أسبانيا. بعدها دخل البحر لأيام قليلة، واكتشفوا سفينة كبيرة تلاحقهم، والتي أثبت لاحقا أنها سفينة من نوع صرصور*، عندها أمر ضابط السفينة الانجليزية بلف أشرعتها، وادعى بعذر أنه ليس من العدة لسفينة انجليزية أن تفر في البحر. وسرعان ما جاءت تلك السفينة وأطلقت نيرانها من غير أن ترفع رايتها، وثبت في النهاية أنها كانت سفينة قرصانية.

لكن الظلام غطى على كل من السفينتين، في انتظار ما يحدث صباحا. وقد حاول مسافروا السفينة الانجليزية إقناع قائد السفينة بالهروب، غير أن الضابط قرر دون انثناء البقاء في موقعه. وفي حدود الساعة 10 صباحا من اليوم الثاني ظهرت في الأفق سفينتان تركيتان، وسرعان ما أطلقتا النار. وأمام هذه الوضعية الحرجة، فإن المقاومة تصبح انتحارا. قدمت إحدى السفن تحية لها وأمرتها بضرب علمها، وصعد طاقمها فورا إليها، وأخذوا ما في السفينة الانجليزية، وأرسلوا طاقم السفينة الانجليزية إلى التركية، التي ولت وجهتها نحو الجزائر.

---

* سفينة صغيرة سريعة في القرنين 15 و16.

وفي اليوم الحادي عشر من اسرهم، مروا بمضيقي جبل طارق، حيث لاحظ الأتراك عند مرورهم، العديد من الاحتفالات المؤمنة بالطيرة، ومن بين هذه المراسم الممنوعة ما يلي: يرمون بوعاء من الزيت في البحر، ويتخيلون انه صعد إلى جبل يدعى «La Montagne des Signes »، حيث يقيم قديس، يعيش على الزيت، ونتيجة لهذه الهدية، وزع عليهم نعم كثيرة. وخلال مرور الزيت، اشعلت شموع ووضعت فوق المدافع الكبيرة وقد لاحظت السفن المارة للمضيق أضواء شموع الاحتفال والتي أشعلت لعرض تهيئة الضوء للزيت عند مرورها، وقد أجريت جميع هذه الاحتفالات بالصلاة والخشوع التام.

وفي اليوم الثالث، من بعد مرورهم المضيق، أرست مقابل مدينة الجزائر، وأطلقت السفينة طلقات نارية، وكان لتلك الطلقات صداها عند الأهالي، فاحتشد جمع غفير من الناس على الشاطئ، فكت الأغلال على دارنادا ورفاقه الآن، وتوجهوا بهم نحو السوق حيث يباع الأسرى المسيحيون، لمعرفة إذا كان أحد منهم معروف، ومن هناك يقصدون قصر الداي «الذي له حق ثمن الأسرى» وهنا قد يقوم باختيار عدد من الأسرى.

وجد الداي جالسا في قاعة الانتظار، جالسا جلسة القفصاء، على مقعد أنيق، مغطى بقماش النجود الأزرق، وفي يده عدد من ذوابة الريش تشبه مروحة ولباسه علقة طويلة من الحرير الأحمر، وعمامة متحابكة بنظافة وترتيب. وبعد أن قام الداي باختيار نصيبه من الأسرى . نقل الباقي إلى بلو أحد الأتراك، صاحب السفينة التي استولت على الغنيمة. وبينما كان دارنادا يتجه إلى الدار، سأله التركي بالإيطالية، إن كان جائعا، وأجاب بالتأكيد، عندها أحضر احد الأسرى المسيحيين شيء من الخبز

إلى الأسرى وقفة من العنب. وبها متعوا أنفسهم. وقد بنيت الدار على الطراز الإيطالي، وشرفاتها برخام أبيض. والرصيف. والأعمدة، والأقواس كلها متناغمة تماما طبقا لقوانين الهندسة المعمارية. ثم حبسهم في هذه الدار، حيث أجبروا على النوم على وجه الأرض في الشرفات، ولم يسمح لهم بالذهاب حتى تم بيعهم. وبعد أن سجنوا سبعة أيام، زارهم «Pinchinin»، وبعض الأتراك الأثرياء، الذين جاؤوا بنية شراء العبيد، وسألوا الأسرى فيما إذا هم قادرون على دفع فديتهم. غير أنهم أجابوا بالنفي، ونتيجة لعدم إجراء عملية البيع، أخذ رجل مسن وبيده عكاز، داراندا، من ذراعه، يدور به مرارا في مكان السوق. ظهر عدد من الأشخاص يرغبون في شرائه. وسألوا داراندا، عن مهنته ومكان ميلاده، ولمسوه من يده ليروا مدى صلابته. أم لا، وأمروه بفتح فمه. لمعرفة ما إذا كانت أسنانه تجيد بكفاية مضغ بسكويت على متن السفن. عندها مروا بالجلوس في صف. أخذ المسن العبيد الأول في الصف وجعله يدور ثلاث أو أربع مرات حول السوق. وهو ينادي. المسن: أراش. أراش. أراش. بالتركية، ومعناه من يزيد أكثر " وبعد بيعه وضع خلف السوق. ثم بيع داراندا، إلى مرتد يدعى «Saban Gallan»، الذي اشتراه بقيمة 200 باتاكون. فالداي له الحق في أي عبد وبأي سعر تم بيعه في السوق. بعد هذه العملية الأولى من عرضهم في السوق يعادون إلى قصر الداي. لتوضع على كل منهم قبعة ورقية يكتب عليها السعر الذي بيع به. فكر الداي مليا بشراء داراندا، واثنان من رفاقه «ealoen» و «Saldens» وأخبرهما أنه علم أنهما شخصيتان من النوع الرفيع. وعليه يتوقع مبلغا ضخما لفديتهما. عندها أمرهم بالتوجه إلى اصطبلات القصر. حيث وجدوا 250 عبيدا. وهو العدد المطلوب للسفر وسجنوا في هذه الاصطبلات 21 يوما. وطعامهم اليومي هنا هو رغيفين صغيرين من شقفة

ومع نهاية سبتمبر ، وبعد أن قامت سفنهم بآخر خرجة، استعد هؤلاء الأسرى للإبحار. وبأمر من الداي، وزعت على كل واحد منهم بعض الملابس الخشنة، وذلك قصد لبسها على ظهر السفن. ولما حان وقت الإبحار، جاءت مجموعة من البربر إلى الاصطبلات وحلقوا رؤوس ولحى هؤلاء المعنيين بالذهاب كجذافين. وبعد عملية الحلق، دخل وكيل الداي للمؤن وأحد ضباط السفن إلى الاصطبلات وأمر العبيد بالتوجه إلى الساحة الملاصقة، حيث حددت لكل واحد منهم مهمته ومكانه المخصص له. بعد ذلك وجد أنه بقي 20 عبيدا زائدا عن المطلوب. وكان داراندا، ضمن هذا العدد، وقال ضابط السفينة لوكيل المؤن عند مروره عليهم، «سنترك هؤلاء اللؤماء على الشاطئ، لأنهم وحوش».

إذن، طلب منهم العودة إلى اصطبلات الداي، وفي نفس اليوم أبحرت سفن أربعة بمن فيها من الأسرى المختارين، تاركة وراءها الميناء. فوجد الداي أن كلا من دارانادا ورفيقيه ليسوا بأغنياء ولا بشخصيات. أمر بإحضارهم فورا إلى قاعة الانتظار، وهناك وجدوا «Pinchinin»، الذي قال لهم أيها المسيحيون اشتريتكم من الداي، ولكن بثمن جد غال عندها أرسلهم إلى منزله، ووجدوا في منزله 20 عبيدا من النساء، يقمن برعاية زوجته، إضافة إلى 12 عبيدا من الذكور، وحرم من 40 طفل بين 9 و 15 من عمرهم. ومن دار «Pinchinin»، حولوا إلى سجنه، وهو مكان مخصص لعبيده المنتظر منهم أن يلتحقوا بالسفن، فهذا السجن ، هو بمثابة شارع أو مدخل كبير في داره، حيث يلجأ القراصنة والأتراك، الذين يقضون أوقاتهم في الشرب، والقيام بجرائم غير طبيعية إطلاقا. فأرنادا، لم يكن يعرف أي أحد من مدرسة الفضيلة هذه، وكان عليه أن ينام في

الليلة الأولى فوق شرفة السجن، وفي صبح اليوم الموالي جيء بشيخ يتقدمه عبد إيطالي ومعه مجموعة مختلفة من أدوات وخردوات منزلية وهو ينادي، أراش، أراش. استخبر داراندا مع بعض فرسان مالطا الذين أصبح يعرفهم، ما معناه بالإيطالية. أراش، رد سيدنا «Pinchinin» على الفارس المالطي، الذي قال : لا تتركوا شيئا لأسراه من قوتهم، فالجزء الأكبر منهم يعيش على السرقة، وغنيمة اليوم السابق تباع كل صباح لهم لكسب عيشهم.

وفي صباح اليوم الموالي وقبل شروق الشمس جاءهم حارس إلى السجن وحيا دارنادا ورفاقه بكلمات خبيثة بالتركية: سورفاكاني ، أياصو كانالاً ومعناها قوموا أيها الكلاب، أنزلوا أيها الخبثاء وبعد هذه التحية الفظة، يسير بهم نحو باب الوادي، في ضواحي المدينة، حيث يسخرون في أكبر دهليز تصنع فيه الحبال. عين دارنادا، ورفيقه سالدنس بدوران عجلة كبيرة، وأثناء قيامهما بدوران العجلة بسرعة، صرخ عليهم حارسهما بلغة «Lingua Franca» فورتي، فورتي، والتي تعني رويدا رويدا، غير أنهما لم يفهما المصطلح، فأدارا العجلة بكل ما لديهما من قوة وهو ما أغضب الحارس، وأسرع إليهما بغضب شديد، وبهراوة هائلة الحجم وعلمهم معنى فورتي.

وبعد أن عرفوا كيف يصنعون الحبال، أجبروا على ردس أو دق الحنطة أو القمح في المهراس، وقد تعرضوا لأعمال جد قاسية، مما أدى بداراندا أن يتخلى عن ذلك العمل، عند ها قال له حارسها عليك بالاهتمام بعملك أيها الكلب، فلا زلت شخص همجي بعد وأثناء وضع القمح أو الحنطة في الأكياس بعد دقه، حصل فلق بسيط في تلك الأكياس وسقط

القمح على الأرض، وخاطبهم حارسهم بالتركية، «پيلاّ إيس كاني» خذ ذلك ايه الكلب، غير أن دارنادا لم يفهمه، وأعطاه حارسه ضربة قاسية على ظهره بهراوة من حطب، والتي سببت له جرحا خطيرا، وبها سال دم غزير منه.

أجبر كل واحد منهم على حمل كيس ضخم من القمح على ظهورهم، لمسافة معتبرة، ورغم قوة دارنادا ، فقد فشل في ذلك بعد بضع خطوات، وبدأ الكيس ينزلق من على ظهره، وعليه قام حارسه بضربه في وجهه عدة مرات بقبضة اليد، وسال الدم مرة أخرى وبغزارة أكثر من فمه وأنفه، وأجبره أن يبذل جهدا أكثر.

تمايل تحت الحمل حتى وصل دار «Pinchinin»، وسقط على الأرض، فاقدا كامل قواه. لكن الجزء الأكبر من عملهم الشاق قد أنجز.

كانوا ملزمين بنقل هذه الأكياس إلى مخزن الحبوب على ارتفاع 40 قدما، مهمة وجد داراندا تنفيذها متعذرا، وخوفا عليه قام رفيقه «سالدنس» بحملها في مكانه، وجد نفسه حال وضعها على الأرض غارقا في عرق، وغبار ودم، ومازال يضربه حارسه بقوة وبدون شفقة. عاد إلى السجن وهو في هذه الوضعية المزرية.

وفي نفس الوقت قام رفيقه الآخر، كاليون، بعمل في قيادة بغل محمل بالبسكويت من دار سيدهم، إلى جانب الماء، وتبعا لضيق الأنهج، فإنه جرت العادة في الجزائر، عند ما يكون شخص ما محمل بثقل على بغل أو حمار، أوجمل، فإنه ينادي بأعلى صوته : بالاك. احذر هناك، لكن سائقنا الجديد للبغل يجهل هذا العرف، فلا يحذر من هم أمامه، أو الذين يقتربون منه، وهكذا تسبب في لطخ تركي بالطين، مما جعل هذا التركي

يغضب، وسل سكينه، فالذي يحمله معه بدل السيف» وأراد قتل كاليون ولم يتدخل أحد من الأتراك لمنعه بالقيام بذلك.

أما التركي فقد خاطبه بقولها «ألا تدري أن مسيحيا لا زال همجيا ولا يفهم العادة» فكلمة همجي تستعمل للمعرة التي ألصقت به لأنه كان مرتديا لباسا مسيحيا. وهم في هذه الحالة من الفقر، لم يتوقعوا أي شيء من سيدهم، وليس لهم تجربة في فن الرقة، وهي المهنة المشتركة في السجن، كانوا محظوظين في سلفة 75 باتاكون، من التاجر الإيطالي، بالجزائر، وهم مدينون له بدفع مئة باتاكون، في «Antwerp»، مقاطعة شمال بلجيكا.

وكان شغلهم الموالي في بستان مزرعة العنب التابعة لدار سيدهم، في الريف، حيث يوجد عدد من العمال في مهام مختلفة أسندت لهم، أما داراندا، فقد أظهر عدم كفاءته وأهليته، واتفق مع الحارس أن يدفع له أربعة ريال في الشهر إن قبل الحارس بإسناده عملا أقل صعوبة. ومن ثم تكفل بحمل بعض القدر الكبيرة من الماء إلى مساكن رئيس الحراس، مقابل تحسين طعامه نوعا ما، وكان جد مسرور بعمله الجديد، لكنه وقع له حادث بسيط بعد طرد ه من هذا العمل، وبينما كان حامل لقدرة في يوم ما إلى الخزان الكبير، تحرش بامرأة تركية دخلت الدار، وسألها إن كانت ترغب في شرب كأس من النبيذ، وكان هذا السؤال غريبا، وعليه أبعد من عمله هذا وأجبر في اليوم الموالي أن يعمل مع بعض الأسرى الآخرين والمطلوب منهم أن يكونوا بنائين.

حدث هذا في شهر ديسمبر، عند ما خرج القراصنة إلى الساحل الأندلسي، من أجل القبض على سفنِ انجليزية محملة بالخمر والفواكه.

فقد استولى هؤلاء القراصنة على سفينة من «Dunkirk»، والتي كان على متنها شاب يافع، والذي بيع إلى «Pinchinin»، والذي سبق وأن تعرف عليه داراندا، وبعد فترة قصيرة من مقابلة هذا الشاب بداراندا، الذي روى له قصته المشئومة، أعطاه إياه بعض المجوهرات، التي رهنها مقابل 150 كرونات. وقد كان هذا الدعم في وقته المناسب، وبما أن 75 باتاكون، كانت جاهزة في هذا الوقت، وأن ديونه قد ازدادت وهو في السجن، الذي لم يكن مكتظا مثل هذا الوقت بعدد كبير من الأتراك والعبيد المسيحيين القادمون لشرب النبيذ، وهو ما يعادل حمولة من الغنائم، التي تم الاستيلاء عليها مؤخرا، وبلغ عدد المحتجزين من الأسرى في هذه الفرقاطة ثلاثون، والذين استخدموا في تفريغ الحمولة هنا.

وكان البعض من هؤلاء محظوظين بأن يشغلوا فيما بعد كحراس الحانات، وهو عمل يمنع على الأتراك، والجزء الآخر منهم خصص للسفن، حيث تم ربطهم بعيدا عن المجذاف، ويطلق الجزائريون على الجذافين، اسم بوقافالدس بالتركية، ويتشكل هؤلاء الأسرى من الأسبان، والإيطاليين، والروس، وقد تسمم البعض منهم في ليلة ما بالسجن وحصل هلع كبير وسط النازلين، وعلى إثر ذلك قدم كاهن إلى الغرفة ومعه شمعة في يده، وهدأ الاضطراب، وسرعان ما وصلت أخبار هذا التمرد إلى مسامع حارس السجن، وحضر ومعه أضواء. فروا عند اقتراب المجبر، لكنه ألقي القبض على أحد المتمردين، وترك عريانا، حيث أمسك بالأيدي والأقدام من قبل العبيد وبطنه على الأرض، وتلقى مئة ضربة على الظهر بهراوة.

مر اليوم بستة أشهر على إقامة داراندا في الجزائر، وأثناء ذلك ذهب هو ورفاقه إلى دار سيدهم وقبلوا عباءته وأكمام ملبسه الداخلي،

وتعد هذه طريقة تركية في تكريم المرء، أخبروه أنهم جاؤوا إليه للاتفاق معه حول سعر فديتهم. وبعد محادثات قصيرة، أخبرهم سيدهم،أنه ذاهب إلى خارج البلدة مع بعض الأسرى لقطع أخشاب لفرقاطة جديدة، والتي كانت محل بناء، وعليه سيتحدث معهم حول الموضوع عند عودته.

وفي نفس الوقت توظف داراندا في دار جديدة تابعو لسيده، في الجزء العلوي من المدينة، حيث أجبر على حمل مواد على ظهره، وفي جبيل شديد الانحدار، حيث لا يمكن استعمال البغال والجمال. وبينما كان في العمل وإذا بتركيين قدما إلى السجن يسألان عنه وعن رفيقيه، سالدون، و كاليون، لكنهم غيروا أسماءهم ولا أحد بإمكانه أن يدلهم عليهم. عندها التجأ التركيين إلى عبد اسمه «Barbant» ويطلقون عليه «the student Français»، لفحص بعض الأوراق المكتوبة باللاتينية، وقدم لهم بعض المعلومات. وتبين فيما بعد أن فرانسيس، بعد التدقيق، خلص إلى أن داراندا ورفيقاه هم الأشخاص اللذين يبحثان عنهما، وأخبرهما أنه يعرف العبيد معرفة جيدة. عند ذلك، ذهب معهما إلى السجن، حيث وجدوا داراندا ورفيقاه، وأخبروهم أنهم ليسوا بعبيد من الآن، وفرح الثلاثة أيما فرح.

وفي اليوم الموالي جاء يهودي إلى السجن، وذلك بأمر من زوجة سيد داراندا، وأخبره هو ورفيقاه أن الداي يرغب في الحديث معهم، وعند ما أحضروا أمامه، أمرهم بالتوجه إلى غرفة رسم صغيرة في القصر، حيث بقوا قرابة ثلاث ساعات مع بعض الأسرى الشباب المسيحيين، وبعد طول انتظار حضر وكيل الخرج مع هراوة وخاطبهم، قائلا: «أيها الكلاب الذين راسلتم دياركم ليقع تبادلكم بالأتراك» ؟ واعتذروا جميعا، غير أن الوكيل لم يكن مستعدا لقبول أعذارهم، فضربهم بقسوة، وأخبرهم

أنه سيعود ليلا لقطع أذنهم وأنوفهم، وقد حبسوا في هذا البيت الصغير وفي ظروف جد قاسية مدة ثمانية عشر يوما، وكان الوكيل يزورهم خلال تلك الفترة من حين لآخر، وكان يحمل دائما معه هراوة في يده، ويضربهم أحيانا عند ما يعرج عليهم. بقي الأتراك ينتظرون عودة سيدهم، ليخبروه أنهم تعهدوا بالقيام بتبادل سبعة من أصدقائهم الأتراك مقابل داراندا ورفيقاه.

ويتواجد الأتراك الأسرى في «Flanders»، وأن المبلغ المقدم في حقهم يساوي ما يعادل فدية داراندا ورفيقاه.

لكن «Pinchinin»، أخبرهم أن هؤلاء الأسرى يعدون من الشخصيات، والذي سبق وأن طلب في حق كل واحد منهم 6.000 باتاكون كثمن لفديتهم. وبينما كان الأتراك يسعون تحقيق تبادل الأسرى منذ تسعة أسابيع مضت، كان داراندا وزميلاه محبوسين في قصر الداي. وبعد تأخير طويل، اتفق الأتراك مع سيدهم على سعر فديتهم، عند ما يطلق سراحهم من الحبس، ويقيمونهم في دار «cataborn» مصطفى، أحد الأتراك، الذي أصبح ولي نعمتهم. وسرعان ما أرسل «كاليون» في سفينة متجهة إلى القرنة ، من أجل تدبير حرية الأسرى الأتراك بالتبادل، طبقا للاتفاق المبرم بين هؤلاء الأتراك وأصدقاء داراندا وزميلاه، الذين حبسوا الأسرى الأتراك في فلاندرز .

لا زال داراندا باقيا مع مصطفى ، لكن إقامته هنا أصبحت قصيرة، وقد تعاطى مصطفى نبيذا بصورة زائدة في يوم ما وتشاجر مع «Bulcebas»، قبطان الرياضة، الذي كان يناديه بالمسيحي، ولأجل هذه المخالفة، استحق سجنا، وبأمر من الديوان تلقى مئة ضربة على الظهر

بهراوة، بعده أجبر على القيام بخدمة في الحقل مدة ستة أشهر للملك بن علي.

بعد سفر مصطفى ، استقبل داراندا في دار محمد «Celibi Oiga»، حيث استخدم بصفة خادم. وسرعان ما أصبح صديقا حميما جدا مع سيدته الجديدة التي منحته حرية كبيرة، وسمحت له بحضور الصلاة العامة كل يوم في سجن «Pinchinin» وفي نفس الوقت لم يكن كاليون محظوظا جدا وقد سجن في دار حماة مصطفى حيث حبس في غرفة صغيرة وهو يحمل ثقلا، يقرب 80 من الحديد عند رجليه(غير مفهوم. المترجم) ويرسل أحيانا إلى الريف، حيث أعطيت تعليمات لحراسه أن يعذبوه بجوع شديد من أجل تعجيل دفع فديته.

ومع انتهاء ستة أشهر من إقامة داراندا في دار «Oiga» ، تلقى رسالة من سالدنس مؤرخة في سبته ، والذي طلب منه الحضور فورا إلى تطوان في مملكة فاس، طبقا للعقد مع التركيين.

وتحمل هذه الرسالة معلومات مفادها أن والد كاليون رفض قطعيا أن يدفع 700 باتاكون المطلوبة لفديته، غير أنه لم يبدي إشارة إلى الأتراك الخمسة الذين يفترض أن يقع تبادلهم مقابل داراندا وزميلاه. ونتيجة لهذه المعطيات فإن جدة مصطفى أمرت فورا بسجن كاليون مع ثقل 100 حديد في رجليه، وذلك في قبو صغير. حيث كان داراندا يزوره من حين لآخر، وفي يوم ما وبينما كان معه، وإذا بالعجوزة تدخل القبو، وتسأل كاليون إن كان لازال مستعدا بدفع 700 باتاكون، لم يرد عليها، غير أنه ضحك عليها، مما أغضب العجوزة، وعليه أمرت بإلقاء القبض على داراندا وإجباره على حمل أثقال حديدية في نفس الحجرة الصغيرة بالسجن،

لأنها نسبت كامل تصرف كاليون إلى نصيحته. وبقيا هنا إلى غاية الوقت الذي تبحر فيه السفينة إلى تطوان، وهنا تدخل ثلاثة أسرى مسيحيين الذين سيبحرون هم أيضا في نفس السفينة، وأطلق سراحهما بناء على وعد أن ابنها الأكبر مصطفى. الموجود آنذاك. في سبته. سيتم تحريره بالتبادل.

وفي حدود هذا الوقت الذي يصادف أول جانفي 1642 انتهى صيام رمضان الذي دام شهرا كاملا. ويمنع خلال هذا الشهر تناول الأكل والشرب في النهار، أما الذين يكتشفون بخرق هذا القانون فإنهم يجبرون على بلع أو جرع رصاص ذائب. ويسمح للناس بالأكل عند غروب الشمس وتضرب الطبول كعلامة للإفطار.

ويتبع هذا الصوم الاحتفال برمضان، يستمر ثمانية أيام ويحتفل بأبهة كبيرة وباحتفالات شعبية.

وتتشكل مواكب خيالة خارج المدينة. ويقع عرض وتباه بالفروسية. ويمرح أطفال الأتراك في مراكب احتفالية صغيرة، حيث يسخر لها الأسرى المسيحيون. فالتسلية الوحيدة كانت المصارعة، التي يتقنها الأهالي ، فممنوعات القرآن تبدو منعدمة أو قليلة في هذا الظرف، ويشرب الخمر والبراندي بشكل مفرط جدا. و بهذه المناسبة توزع الهدايا على الأسرى، ويعفون من كل نوع من العمل لمدة ثلاثة أو أربعة أيام.

وفي الرابعة عشرة من جانفي سوى كلا من داراندا و «كاليون» ديونهما المتعلقة بهما، أبحرا مع عدد من الأتراك والأسرى المسيحيين على ظهر سفينة متوجهة إلى تطوان. وصلوا بعد ثمانية أيام إلى وهران، التي تقع على مسافة حوالي 40 فرسخا من الجزائر، وفي اليوم الثاني

عشر كانوا في تلمسان، حيث رست السفينة مدة ثلاثة أيام، وأنزلت جزءا من الطاقم الأهلي.

كانت تلمسان فيما مضى مملكة قوية، حيث كان داي الجزائر يدفع الضريبة لها. وتقع في أقصى أراضي الباب العالي، وتحيط بها مملكة المغرب وفاس، التي لها تحالف مع الباب العالي، لكن بدون شك فإن هذه المملكة غالبا ما تكون في حرب مع الجزائريين، ويحدث هذا دون خرق للتحالف.

ونفس الشيء مع تونس، التي تدخل ضمن أملاك الباب العالي الذي لا يهتم شخصيا بشئون الباشوات، ولا يعتبرون أنهم في حرب إلا إذا انتزعت بعض المناطق الهامة من أملاكهم.

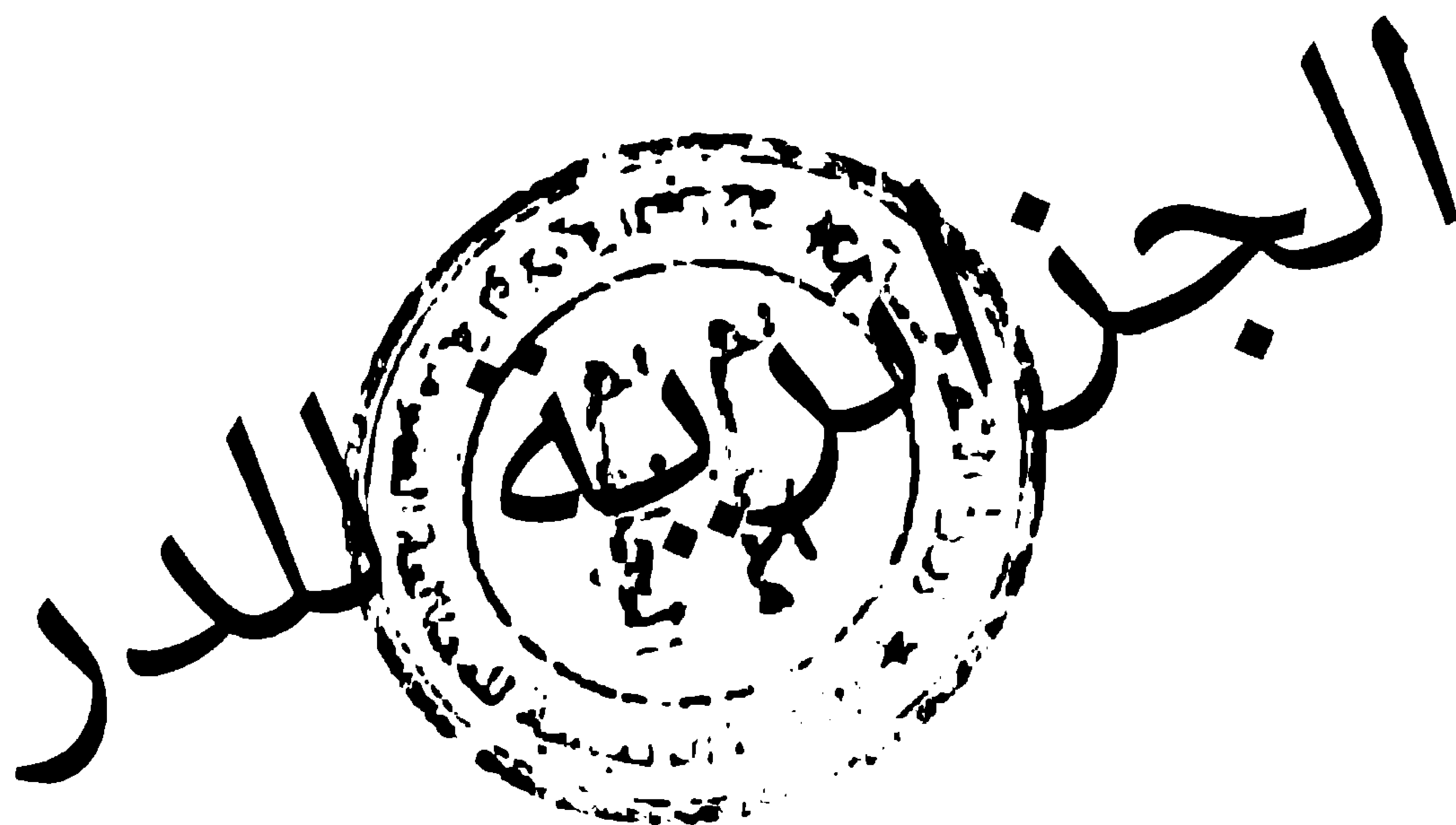
ومن تلمسان واصلوا إبحارهم، وبعد فترة قصيرة، ونتيجة لإنزال بعض الأهالي، دبرت مكيدة بين الأسرى المسيحيين لقتل جميع الأتراك الموجودين على ظهر السفينة، وجعل أنفسهم أسيادا للسفينة. غير أن الخطة أحبطت بكاملها نتيجة وجل أسباني، الذي كان الأساس في المؤامرة بإهماله إعطاء إشارة الهجمة، حسب ما اتفق عليه سبقا جماعيا.

وفي 12 من فيفري مساء رست السفينة في جون ضمن نصف فرسخ من تطوان، وحدث في اليوم الموالي هبوب رياح شرقية عنيفة جعلتهم عرضة إلى خطر عظيم. أصيب الأتراك برعب شديد عند بداية العاصفة وبدؤوا يقرأون الفاتحة، ووعدوا بتوزيع صدقات عند وصولهم بر الأمان. غير أن العاصفة الهوجاء ازدادت حدة، وكانت السفينة تتعرض من حين لآخر باصطدامها بالصخور. ومع هذا الخطر الشديد، قرر الأتراك أن يقدموا أضحية إلى محمد كآخر ملاذ لهم، ومن عادة الأتراك أنهم يحملون على ظهر سفنهم عدد من الضأن لهذا الغرض. وذبحوا هذا الضأن وقسموه إلى أربعة

أقسام، وضرب من احتفالات سخيفة وقاموا برمي الأقسام الأربعة في البحر من الجهات الأربعة للسفينة. استمرت العاصفة الهوجاء في تزايد حتى منتصف الليل، وإلى ذلك الوقت بدأت السفينة تجر مرساتها. اجتمع كل الأتراك في مؤخر السفينة وهم في أشد رعب، وتوسلوا مساعدة محمد بأعلى عويل. استمرت السفينة في جر مرساتها، وبعدها ولمدة قصيرة تحطمت السفينة على الشاطئ، غير أن الجزء الأكبر من طاقم السفينة نجا. خرج كلا من داراندا و كاليون، بتخليصهما، وفي الصباح الموالي، شرعا في رحلتهما نحو تطوان، حيث وصلا في حدود منتصف النهار.

وبينما كانا في طريقهما وصلتهما رسالة من «Pegnaloso Don de Martin» ، التاجر الأسباني، في سبته، الذي أخبرهما أن سالد نس قد ذهب إلى جبل طارق، وأنه ترك أوامر تقضي بتزويدهما بكل ما هو ضروري. وفي نفس الوقت وصل الأسرى الأتراك المسجونين في فلاندرز إلى سبته. تخيل مصطفى إنجلز، أحد الأسرى أن سالد نس قد عاد من فلاندرز وكتب إلى الأترا ك بتطوان، الذين تكفلوا بداراندا و كاليون، أن سالدنس، قد وعد عند ما كان في فلاندرز بدفع 700 باتاكون، من أجل الفدية دفعها أقاربه لصالح كاليون، وبالتالي أراد أن يضعهم في المطمورة. فالشخص الذي رتب هذه الصفقة هو «Abraham Arrais»، أحد الأسرى الأتراك، الذي أورد في سبته أن داراندا وكاليون، قد وعدا ب 700 باتاكون قبل سفرهما من الجزائر. وبسبب هذه الرسالة وضعوا في المطمورة، التي كانت سردابا واسعا بحوالي 30 قدما تحت سطح الأرض، حيث يقيم 170 أسير مسيحي. وبينما هم في هذه الوضعية راسل داراندا، سالدنس، العائد من سبته وعن طريق وساطته أطلق سراحهم من الحبس، وإثر ذلك مباشرة، استعدا للعودة إلى بلدهما الأصلي.

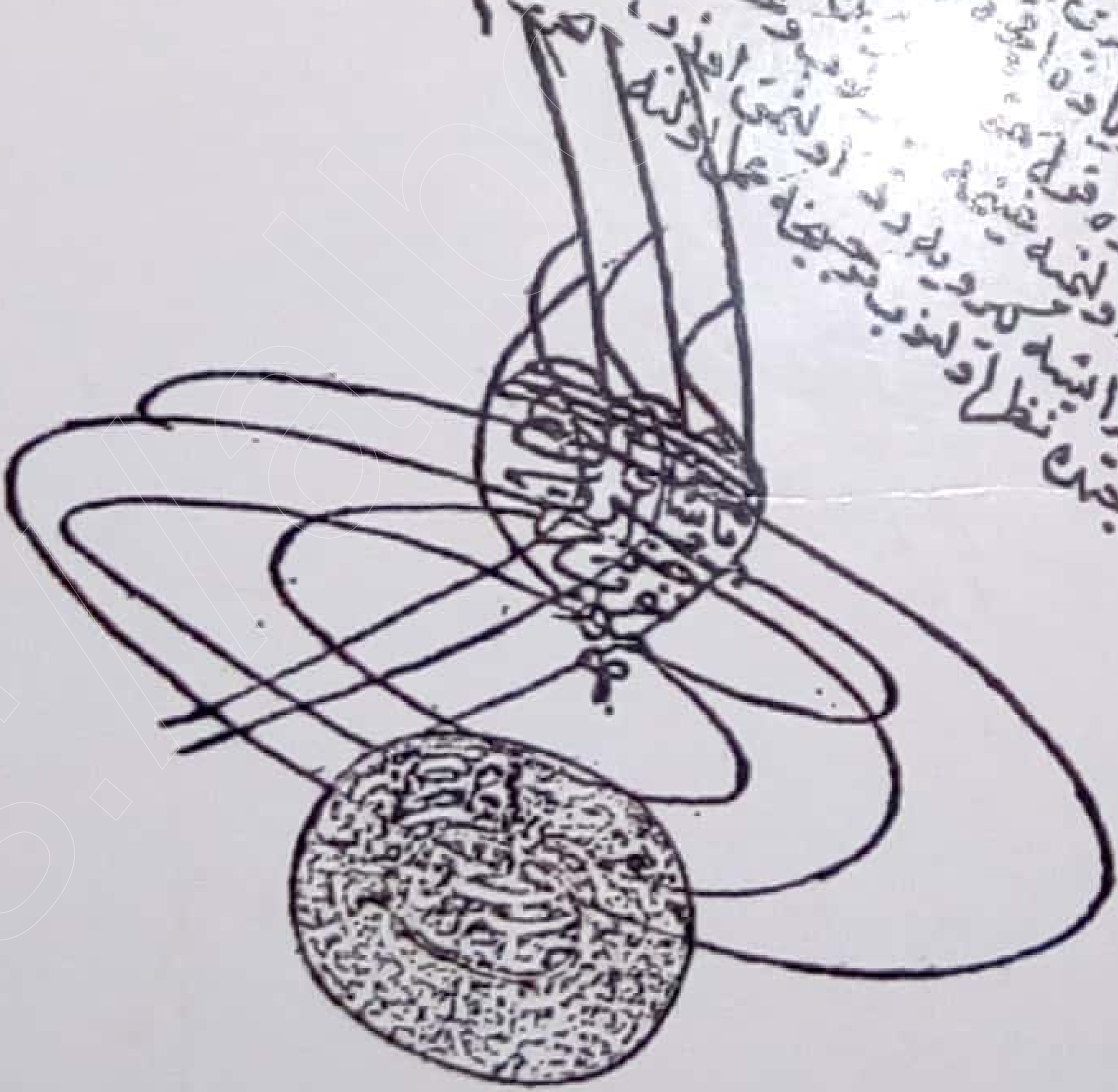
فهرس



إنجاز وتصميم منشورات ثالة – الأبيار، الجزائر، 2007.
هاتف : 58 36 92 / 11 42 92 021
فاكس : 11 42 92 021

مقدمة معاهدة الجزائر مع الولايات المتحدة الأمريكية
في 21 صفر 1210 هـ/ الموافق 5 سبتمبر 1795 م

سبب تحرير عهدنامهٔ در صلح طائفه مريكان



ر.د.م.ك : 978-9961-905-99-9